

رواية

الوجه الآخر

عادل محمد الزنكي



رواية

الْوَجْهُ الْآخِرُ

عادل محمد الزنكي

الطبعة الأولى

2015

مراجعة الباحث: مناف الكفري

فهرسة مكتبة الكويت الوطنية أثناء النشر

813.03 الزنكي، عادل محمد حسن.

الوجه الآخر (رواية)/ عادل محمد حسن الزنكي. - ط 1. - الكويت، 2015

304 ص؛ 24 سم.

ردمك: 3 - 794 - 0 - 99966 - 978

1. القصص العربية - الكويت - ق 21 أ. العنوان

رقم الإيداع: 2015/202

ردمك: 3 - 794 - 0 - 99966 - 978

الطبعة الأولى: 1436هـ - 2015م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

تقديم

«الرواية جميلة، استمتعت جدًا بها، وفق الله كاتبها الذي أعادنا إلى الماضي الجميل بشكل قصصي، متحرراً من جمود السرد التاريخي».

صاحبة السمو الملكي

الأميرة

فهدة بنت سعود بن عبدالعزيز آل سعود

الإهداء

إلى الكويت
إلى الوجه الأول للتاريخ
إلى الأرواح الهانئة في ملكوت السماء
والتي غيبها التدوين لكنها حاضرة في القلوب
إلى الأحباء
رفيقة دربي أم عبدالرحمن
أبنائي وبناتي
إليكم جميعاً
أهدي هذه الرواية

شكر وتقدير

لكل من ساهم في إخراج
هذه الرواية التاريخية إلى النور
الأهل والأصدقاء والأحبة
شكرًا لكم

فهرست المحتوى

- تقديم ٣
- الإهداء ٥
- شكر وتقدير ٧
- المحتوى ٩
- كلمة حق ١١
- مدخل ١٥
- الفصل الأول: بَوَاكِيَرُ النَّشْأَةِ ١٩
- الفصل الثاني: الوَبَاءُ وَالْهَجْرَةُ ٦١
- الفصل الثالث: الْمُجْتَمَعُ الْجَدِيدُ «الزُّبَارَةُ» ٩٩
- الفصل الرابع: الْعَوْدَةُ إِلَى الْوَطَنِ ٢٠٩
- الفصل الخامس: الجيرة والرضاعة مع آل سعود ٢٥٩

كلمة حق

قبل زمن، عندما قرأتُ مخطوطة المؤرخ الكويتي عثمان بن سند الوائلي «سبائك العسجد» في أخبار أحمد نجل رزق الأسعد» للمرة الأولى، استوقفتني الأحداث المقتضية عن الشخصية المترجم لها، فأنغمستُ في دوامة التساؤلات والفرضيات عنها، وباتت تعصف بذهني إشكالية القُصور في التعريف الوافي بها وبحقيقتها؛ وكيف أنَّ شخصية اقتصادية مهمة كابن رزق، وقامةً من قامات المجتمع الكويتي آنذاك، بقيت في الظل على الرغم من علو كعبها.

لا أجد لذلك سبباً إلا قصر يد المدونين آنذاك عن الإسهاب في تناولها، سواء أكان السبب في ضحالة أدوات الطباعة، والتي تقتصر على الكتابة اليدوية. أم في عدم الاكتراث بالتوثيق، وخصوصاً أنَّ الكويت كانت في طور النشوء. أم أنَّها عادة فطرية لدى نسبة كبيرة من البشر في عدم إدراك أهمية الشخصية المعاصرة لهم إلا بعد وفاتها، أو بعد فترة زمنية يثبت التاريخ فيها أثر الأعمال الجليلة التي قدّمتها الشخصية لموطنها.

ولأنَّ هذا القُصور سيُلقي على عاتق المؤرِّخين المهتمِّين بتاريخ دول الخليج العربيِّ بعامَّة، وعلى أحفاد أحمد ابن رزق الأسعد بخاصَّة؛ حيث إنَّهم المعنيُّون بإخراج سيرة هذا الرجل وشخصيات عائلته إلى النور، ورفع ستار الطمس عن تاريخهم المشرق، ذاك الذي يجهله كثيرٌ من المعاصرين.

فقد آثرت أن أقوم بهذه المهمَّة الجليلة الصعبة، علَّني أستطيع أن أعيد إحياء ذكرهم في الأذهان مجدِّداً، على الرغم من أن آثار هذا الذكر ما زالت شاهدة عليه إلى يومنا هذا، بل إنَّني لا أبالغ إذا ما قلت إنَّ هذه الشخصيات هي ركن أساسيُّ أسهم في تطوير جزء من مجتمع شبه الجزيرة العربيَّة آنذاك.

وتقف الكلمات حائرة أمام لطف صاحبة السمو الملكي الأميرة فهدة بنت سعود بن عبدالعزيز آل سعود -حفظها الله تعالى- وتواضعها، هذه الشخصية العظيمة المحبة للتاريخ، والمقدِّرة للأدب، والتي لم تبخل علي بملاحظات المهمة منذ اللحظة الأولى، وقد شرفنتي بقراءة الرواية قبل دفعها إلى المطبعة، خصوصاً وأن الرواية في جزء منها تتطرق للسنوات العشر التي قضاها المغفور له بإذن الله الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود، وولادة ابنه تركي وسعود، رحمهما الله تعالى.

وقد أبدت سموها إعجابها بالأحداث الروائية، مؤكدة الدور الجليل
للأدب عندما يتجه إلى تحرير التاريخ من جموده النصي، ليكون بين يدي
القراء بأسلوب روائي قصصي، يحفر في أذهانهم أدق تفاصيل الأحداث
التاريخية في شبه الجزيرة العربية. فلها مني كل الشكر والامتنان.

وهنا أضع لك عزيزي القارئ سيرة حياة أبناء رزق بين يديك، آملاً
أن تتعرّف على هذه الشخصيات من قرب، وأن تسبر مجاهل الماضي من
خلال الدراما التاريخية في هذه الصفحات.

عادل محمّد الزنكي

مدخل

تدور أحداث الرواية حول شخصيات حقيقية من الكويت، تتناول سيرة حياة التاجر محمد بن حسين بن رزق الأسعد (١٧٢٥ - ١٧٧٩م). الذي قدم الكويت شاباً، فكان صاحب وجهة فيها، وعموداً راسخاً من أعمدة مجتمعتها، وبعض مناطق شبه الجزيرة العربية.

ثم ابنه أحمد (١٧٥٦ - ١٨٠٩م)، الذي ولد في الكويت وقضى فيها فترة صباه، حيث تلقى تعليمه في الكتاتيب البسيطة على أيدي المقرئين والملاي آنذاك. ونشأ في حجر والده وتحت رعايته، فتخلق بأخلاقه، وامتحن مهنته، وكان ساعده الأيمن في تجارته. قال عثمان بن سند فيه: «وقد أبرزته قُدرة القادر من الرّحم الطيّب الطاهر، مُنتخباً لأزكى العناصر في بلدة مُصغرة فكبرها، حتّى تبوّأها ودبر أمورها»..

وصولاً إلى أحفاده من ابنه محمد، والذين كان لهم أثر كبير في النهضة الاقتصادية في معظم المدن الساحلية في الخليج العربي، مع التطرق إلى بعض الأحداث التي عاصرتهم، وأبرز الشخصيات التي عاصروها.

تمتدُّ أحداثُ الرواية من النصف الثاني من القرن الثامن عشر حتَّى
أواخر القرن التاسع عشر. تتناول تفاصيل حياة محمد بن رزق وذريته.
وأتركك عزيزي القارئ مع أحداث هذه الرواية، لتكشف لك عن
الوجه الآخر من التاريخ في بعض مناطق شبه الجزيرة العربية، أبرزها
في الكويت.

الفصل الأول

الفصل الأول بَوَاكِرُ النَّشْأَةِ

مدينةٌ ساحليةٌ صغيرةٌ ترنو بعينين برّاقتين إلى الشمس وهي تسكب
أشعتها الذهبية على وجه الخليج العربي كل صباح، مستلقية على ساحله
كحورية أرهقها السفر بين أمواج ليلة مظلمة. وتنتظر بعينيها المكحولتين
بالغبار إلى كُثْبِ البادية، مراقبةً الأفق المتموج وهو يخفي الشمس وراءه
كل مساءً. وتراقب مع انبجاس الفجر هدوءَ البحارة وهم يمشطون أمواج
البحر بمجاديفهم الخشبية.

بيوتها المتجاورة، حانية على بعضها بعضاً، لها هسيس أحاديث تدور
بين جدرانها الطينية السمكية، وللبیوت أرواح كما البشر، تألف وتبذ،
تحب وتكره، جدران صامته وأخرى مثرثرة، ونوافذ مبصرة وأخرى
كفيفة، وأبواب كريمة طائفة، وأخرى جاحظية.

ممراتها الترابية الضيقة المتعرجة، كالغضون في جبهة خارطة
عثمانية، منقوشةً بآثار أقدام صبيان الحي وصباياه، كلوحة تشكيلية
عنصرها التراب وأبناؤه.

إنها الكويت، بحواريتها التي تضجُّ بالحياة قُبيل إشراق الشمس، ثم تعود إلى السكينة بُعيد أذان العشاء. بأهلها البسطاء الطيبين الذين اكتسبوا من الصحاري وضوحها وانبساطها، ومن البحر عظمتة وسخاءه وغناه بالدرر النفيسة. بمساجدها المعمورة بسواعد أبنائها، العامرة بالذكر والعلم والأدب. بأطفالها الذين زينوا جدران منازلهم برسوماتهم البريئة، وخططوا البراحات الترابية برسومات هندسية ورثوها عن أجيال من الأطفال اعتادت هذه الألعاب التقليدية.

يمتد وسط المدينة سوق مسقوف في معظم أجزائه، تباع فيه وارداتها التي يجلبها التجار من الهند في أثناء رحلاتهم إلى تلك البلاد، من أقمشة وبهارات وأخشاب وأدوات صيد ومعدات غوص، وبعض الحاجيات الأساسية التي لم تكن متوفرة في مجتمع البادية، كما تباع فيها صادراتها من الأسماك واللؤلؤ والتمور، فضلاً عن المنتجات التي تجود بها البادية، من ألبان وأجبان وأصواف وأنعام.

لهذا شكلت الكويت ميناءً تجاريًّا أكثر منها مجتمعًا قبليًّا، بل إن أغلب المقيمين فيها توطَّنوها بغية التجارة وكسب الرزق، وخصوصًا بعد الجفاف الذي قضى على موارد العيش في قلب البادية، الأمر الذي جعل المعيشة ضنكة، والعيش شظفًا، والحياة قاسية.

هذا مع عدم إغفال بعض الصراعات السياسية التي ألجأت الكثيرين من أهل البادية إلى البحث عن الأمن والأمان اللذين تحققا لهم في مدينة الكويت.

لميناء الكويت مكانة استراتيجية على مستوى الموانئ الساحلية على الخليج العربي، ومرسئ للعديد من سفن النقل القافلة من الهند إلى البلاد العربية، الأمر الذي جعل منه مورد رزق كثير من سكان الكويت والمناطق المحيطة بها، ولقي اهتمام العديد من البداء الذين آثروا العمل في البحر والتجارة في موانئه، على حياة البداءة والرعي القائمتين على التنقل المستمر بحثاً عن مواطن الكلاء والماء.

إن المستوى المعيشي للأفراد في معظم مناطق شبه الجزيرة العربية متقاربٌ وقتئذٍ، ولكل منهم وسيلته المتاحة لكسب عيشه. وقد حجّمت البيئة البسيطة النشاطات اليومية لأبناء المجتمعات البدوية أو الساحلية على السواء؛ إذ لم يكن المجتمع منفتحاً بعدُ على أوجه الحضارة التي شهدتها المجتمعات بعد ثورة النفط، فالحياة اليومية تكاد تنحصر في تقاليد ثابتة.

لم يكن الليل يحمل بين طياته الضجيج والقلق الذي زخرت به الليالي في أيامنا، ولم يكن النهار يحفل بالمشاغل والهموم التي لا تنتهي، فأبو أحمد يبدأ يومه بصلاة الفجر، ويحرص على اصطحاب ولده معه إلى المسجد، بل إنه يتهياً قبل الفجر بساعة تقريباً. ولأنّه من بيت عامرٍ بالطاعة، أهله محافظون على واجبات العباد تجاه ربهم، فقد كان موعد صلاة الفجر هو اللقاء الأول للعائلة في كل يوم.

أبو أحمد رجل أربعينيٌّ له شأنه الرفيع ومكانته الجليلة بين أبناء قومه، تأخذ ملامح وجهه طابع الجدية والحيطة اللتان تتسم

بهما شخصيته الرصينة، ويعتبر من الرجال الصالحين البعيدين عن مجالس الهرج واللهو، قريباً من أصحاب العلم والدين، متأدباً بآداب الإسلام، وحريصاً على تحصيل العلم وتعليمه، ومحافظاً على الحضور إلى مجالس الأدب، فضلاً عن كونه ذا فضلٍ في نشر التعليم بين أبناء المجتمع الكويتي آنذاك.

قُبيل الفجر، اعتدل في فراشه ومسح وجهه براحتي كفيه، ثم أجال طرفه في الغرفة شبه المظلمة، خلا نور قنديل يضيء على استحياء في زاويتها، فنهض وأبرز فتيلة شعلته، ثم أرسل طرفه نحو زوجته وابنه أحمد متفقداً إياهم، وبهدوء، تقدّم من فراش ولده، وقد انكشف عنه غطاؤه الخفيف الذي يكاد يستر نصف جسده، فغطاه برفق ثم طبع قبلة على جبينه.

يَعتبر أبوأحمد أنَّ كُلَّ مَنْ أشرقت عليه الشمس وهو نائم، فاته رزق يومه، وقُسمت الأرزاق من دونه، وقد كانت هذه الفكرة منتشرة بين معظم التجار المهرة وقتئذٍ، ولا يزال كثيرون ممن تمسكوا بعادات الأولين محافظين على هذه العادة. وفي هذا السياق فقد كان أبوأحمد محافظاً منذ نشأته على الاستيقاظ مبكراً ليصلي الفجر في مسجد الحيّ القريب من بيته.

سار بهدوء نحو الباب، متجهاً نحو الآنية الفخارية فحملها إلى جليب الماء في وسط منزله، فملأها وتوضأ منها، ثم ملأها مجدداً، ووضع عليها الغطاء النحاسي كي لا يلوث الماء شيء عارض، وأسندها إلى الحائط بالقرب من باب الغرفة التي ينامون فيها.

استيقظت أم أحمد على صوت زوجها المهموس وهو يقرأ القرآن، وأيقظت أحمد بهمسات الأم الحنون ورقتها، فنهض وهو يدعك عينيه الكسولتين بكلتا يديه، بيد أنه معتاد على الاستيقاظ في هذا الوقت كل يوم، حيث يرافق والده إلى المسجد.

أخذ أبو أحمد بيد ولده وخرجا قاصدين مسجد الحي، وهو يمسح على رأس ولده برفق كي يزيل عنه وسن النوم أو ما تبقى منه، متعمداً رفع نبرة صوته بعض الشيء بالذكر والتسبيح، وولده يردد معه في صوت خفيض، تفسره حركات شفثيه الصغيرتين.

كان حريصاً على تعليم ابنه أدق تفاصيل الالتزام والاستقامة، حيث إنه يرى أن الاستقامة في الدين، والمحافظة على الفضائل، حتى وإن كانت فضيلة واحدة، تؤهل صاحبها ليكون في عداد الفضلاء.

بدت نوافذ البيوت التي تحاذي الطريق يمنة ويسرة مضاءة بالقناديل الراجفة، وهي بيوت قريبة من بعضها بعضاً، متجاورة لكن غير متلاصقة، بيوت مبنية من اللبن الطيني المستطيل، المشغول بطريقة تجعل منه صلباً كالحجارة، حيث يمزج بنأؤه التراب أو الرمل بالتبن والماء، ثم يجعلونه في قوالب خشبية مستطيلة متحدة الشكل، لتأخذ كل اللبنة شكلاً واحداً.

دبت الحياة مجدداً في هذه البيوت الطينية التي نامت بنوم أصحابها ليلاً، واستيقظت باستيقاظهم، وبدا الليل وكأنه في أوله لا في آخره، فالناس تنهياً لمباشرة يوم عمل آخر، وصوت المؤذن وهو ينادي للصلاة

أشبه بمبشر لميلاد شمس صبح جديد، دافعاً الناس إلى الأمل والتوكل والسعي إلى أداء فروض الله ثم واجبات الحياة.

لا يجلس أحمد في المسجد إلا بمحاذاة والده، فصلى معه ركعتي السُّنة، ثم تناولوا مصحفين وبدأ كل منهما يقرأ ما تيسر منه بانتظار إقامة الصلاة. وبعد أن فرغاً، وهماً بالانصراف، أبطأ أبوأحمد حتى غادر جميع المصلين، وبدأت خطواته أقصر من خطوات غيره في المسير، حتى بدأ أحمد يتململ من هذا التأخير، فلاحظ والده ذلك عليه، فمد يده إلى جيبه وأخرج منها قطعة نقدية ووضعها في يده، وقال له:

- هذه لك.

فقال أحمد في نفسه، لعله أعطاني إياها كي لا أبدو ضجراً من التأخير، فأبدا تمنعه عن أخذها حياءً وخجلاً، بيد أن والده أصر عليه:

- خذها كي يبارك الله لي في رزق هذا اليوم.

فأخذها مستبشراً بأنه بذلك يساعد والده على كسب الرزق.

كانت تصرفات الوالد وأفعاله وأقواله دروساً تعليمية لابنه، ورغبة منه في أن تتقش تصرفاته في ذاكرته أخلاقاً ستكون لاحقاً خصاله التي سيتحلى بها ولا يتخلى عنها، بل التي سيتعلم منها كثيرون ممن عايشوه وعاصروه.

قاطع صمت أحمد وتفكيره وقوف والده عند رجل مسكين يتكأ على عمود خشبي بجوار المسجد، وقد بدا عليه وهن الشيخوخة، إذ يسير

سيرًا متقطعًا ويستند إلى أي شيء على قارعة الطريق كي يرتاح قبل أن يتابع مسيره إلى منزله.

وقف بجانبه ثم ناوله قطعة نقدية بينما ابنه ينظر المشهد ويراقب ما يدور بينهما. رفع المسكين يديه ودعا له وسأل الله أن ييسط له في رزقه.

أثر المشهد في الفتى أحمد، فمد يده الصغيرة إلى جيبه، وأخرج القطعة النقدية الوحيدة التي معه، وناولها للرجل المسكين، ولسان حال الرجل المسكين يلهج شاكرًا:

- عَوْضُكَ اللهُ خَيْرًا مِنْهَا، وَأَوْسَعُ فِي رِزْقِكَ وَرِزْقِ وَالِدِكَ.

نظر إلى أبيه مبتسمًا، في إشارة إلى تعلمه درسًا مهمًا لهذا الصباح، ثم سارا إلى البيت يتجاذبان أطراف الحديث في طريقيهما، فقال أحمد:

- قَالَ لِي الرَّجُلُ إِنَّ اللَّهَ سَيَعُوضُنِي خَيْرًا مِنْهَا.

أثارت كلماته ضحك والده، فأخرج من جيبه قطعتين نقديتين، وأعطاهما إياه، ثم ربت على كتفه:

- هَذِهِ حَالُ الصَّدَقَةِ، وَقَدْ عَوْضُكَ اللهُ خَيْرًا مِنْهَا بضعفها.

- إِنَّهَا تِجَارَةٌ رَابِحَةٌ، فَهَلْ أَتَصَدَّقُ بِالْقِطْعَتَيْنِ الْآنَ كَيْ تَعْطِيَنِي بَدَلًا مِنْهَا أَرْبَعُ قِطْعٍ؟

اشتد ضحك الأب من نباهة ابنه:

- الله سبحانه هو الذي يعوضك ويعوضني.

ثم تابع:

- عندما تكبر تصدّق من مالك كيفما تشاء وفي أي وقت تشاء، لكن تذكر أن تتصدق عني أيضًا، كما أتصدق اليوم أنا عنك.

- يعني أن أسدد ديني تجاهك.

- احسبها كما تشاء، لكن لا تنسى ذلك.

هكذا بنى أبوأحمد شخصية ولده منذ نشأته، ولم يكتف بتعليمه أسس التعامل والحض على الفضيلة فحسب، بل كان حريصًا على اصطحابه معه بُعيد طلوع الشمس إلى شاطئ البحر، حيث يجتمع الصيادون والتجار والبحارة والغواصون، كل فئة في مكان خصص لهم، فيخالط هذا وذاك، ويتفقد حال السوق والتجار، ثم يسير إلى محله التجاري الذي افتتحه خصيصًا لمتابعة تجارته من خلاله.

وبينما هما يسيران على الرصيف البحري بين شباك الصيادين وسلالهم، إذ بمنادٍ على الناس بصوت جهوري:

- وصل اليوم.. وصل اليوم..

أرسل أبوأحمد نظره إلى الساحل وإذا بسفينة شراعية تقترب لترسو في مرسى السفن، وبدا بحارة السفينة ملوحين بأيديهم للمنتظرين على

الساحل، بينما تسلق بعضهم الصاري كي يحظوا بمنظر أكثر وضوحًا لليابسة.

فبينما أبوأحمد ينظر إلى البحر، كان أحمد ينظر إلى السماء، وسأله مستغريًا دون أن يبعد بصره عنها:

- أين البوم؟

ضحك منه برهة ثم أشار بيده إلى البحر:

- يقصد سفينة البوم الشراعية، هكذا اسمها، البوم.

- وهل تسمى كل السفن الشراعية بالبوم؟

فأشار أبوأحمد بيده إلى السفن التي في المرسى:

- تلك المقبلة علينا تسمى بوم الغوص.. أما تلك فتسمى الجالبوت..
وتلك السنبوك وتلك الشوعي...

فتابع أحمد:

- وتلك الكبيرة هناك؟

- تلك من سفن النقل البحري والتجارة، ولهذه السفن أسماء مختلفة بحسب نشاطها وحجمها، فمنها ما يستعمل للتجارة والبضائع مثل: البوم القطاع، البغلة البوم السفار. ومنها للنقل الساحلي كالتشاله باشا، وحمال باشا.

بدأ الناس بالاقتراب من مكان رسو سفينة اليوم أكثر فأكثر، وسار أحمد بجوار والده إلى هناك، وانتظرا حتى ترجل البحارة من على متنها، وعينا أبوأحمد تراقب الواصلين وكأنه ينتظر أحداً ما، ثم رفع يده وتحرك يمينه ويسرة ونظر إلى أحد الواصلين، وناداه بصوت مرتفع قليلاً:

- أبا جاسم، هنا.. هنا يا أبا جاسم.

التفت النوخذة أبوجاسم إليه وكان قد وضع قدميه للتو على الشاطئ، ورفع يده مع ابتسامة تفيد بأنه رآه، وبأنه قادم إليه، وخلال لحظات كان أبوجاسم يقف بجوار أبي أحمد الذي أخذه بالأحضان، فسلم عليه وهنأه بعودته، مرحباً:

- حمداً لله على سلامتك يا أبا جاسم، قالوا من أطال الغياب جاء بالغنائم.

ضحك أبوجاسم ثم أسرَّ له بصوت مهموس:

- هذه المرة أحضرت لك بعض اللآلئ مختلفة الأحجام، لكنها أقل من المرة الماضية، فموسم الغوص لم يكن جيداً كفاية، يبدو أنه في آخره.

- كل ما يأتي منك مبارك يا أبا جاسم.

كان أحمد يقف مستمعاً للحديث الذي يدور بين أبيه والنوخذة، وراقب عملية البيع التي تمت بينهما، وقد حرص والده أن يكون ابنه مطلعاً على طريقة البيع والشراء حتى يتعلم الأسلوب، وضرورة التعامل المباشر مع النواخذة للحصول على اللؤلؤ فور وصوله إلى الشاطئ.

إن العلاقة القوية التي تربط أبا أحمد بالنواخذة آنذاك، جعلته يتجاوز الطواشين الذي ينتشرون على الشاطئ قبيل وصول سفن الغوص، كي يشتروا اللآلئ من النواخذة، ثم يبيعونها للتجار المشهورين، كابن رزق وأقرانه.

أخذ أبو أحمد حبات اللؤلؤ، وعاد إلى محله التجاري في السوق، حيث إن التجار المسافرين إلى الهند اعتادوا أن يمروا به لأخذ ما عنده من لآلئ كي يبيعوها في سوق بومباي، وكانوا حريصين على ذلك لما عُرِفَ عنه من خبرته في انتقاء الجيد من الرديء، وعنايته في اقتناء أغلب ما يجود به البحر من لآلئ ثمينة.

ولذلك كان يوصيهم على بعض الحاجيات من الأسواق الهندية ببيع قيمتها ما اشتروا به اللآلئ منه، سواءً أكانت هذه الحاجيات خاصة به، أم كانت بقصد المتاجرة فيها في سوقي الكويت والبصرة.

لاحظ أحمد أن والده ربح في هذه التجارة الخاطفة ضعف المبلغ الذي اشترى به اللؤلؤ من النواخذة أبي جاسم، فراقت له هذه الفكرة كثيرًا، وقضى ليلته تلك متأملًا كيف لو أنه أصبح تاجرًا كبيرًا له شأن في الكويت بين التجار، لكن المعضلة التي تؤرقه كانت تكمن في طريقة البداية، فنظر إلى والده الذي يجلس إلى طاولته الخشبية بالقرب من القنديل ويفتح أمامه أحد الكتب القديمة:

- أبي.. كيف بدأت بالتجارة؟

رفع رأسه عن الكتاب الذي كان يشده إلى قراءته، واتكئ بمرفقه على طرف الكرسي:

- رأيت يا ولدي الجهد الذي يبذله الغواصون في البحر، إضافة إلى مشاق السفر وعناء رحلة الغوص الطويلة، ناهيك عن الغربة في البحر، حتى تشتاق لرائحة اليابسة. وفوق كل ذلك وجدت أن بعض التجار يربحون من تجارة اللؤلؤ مثل أولئك الغواصين، رغم أنهم لا يذهبون ولا يغامرون، ففكرت بأن أكسب رزقي من التجارة.

- وكيف بدأت؟ (سأله أحمد بلهفة).

- البداية كانت بسيطة، بعشر حساوياوات فضية فقط، أقرضنيها أحد التجار المتمرسين آنذاك.

ثم استرسل في سرد بداياته وما عاناه من مشاق في سلك التجارة، وكيف أنه تعلم الحذر والحيطة في البيع والشراء من مرافقته للتجار الكويتيين الذي يكبرونه سنًا. وابنه يستمع إليه وكأن كل حرف من حديث والده يحفر في ذاكرته قانونًا سيسير عليه لاحقًا في حياته العملية.

إنَّ أبرز درس عملي استفاده من والده إبان مرافقته المتواصلة إلى مرسى الصيادين، وأعشاش التجار، ثم مداومة العمل في المحل التجاري، يكمن في أن والده أراد له أن يتعلم أن صاحب العقل المتقد والفكر الناضج لا يحتاج لإعمال عضلاته وبذل جهد جسدي للحصول على المال والرزق في هذا المكان. وبخاصة أن طبيعة العمل اليومي أفرزت فئات وطبقات من

المنتفعين من خيرات البحر، كان أولهم أصحاب المراكب الشراعية، وبانوها، ثم الغواصون الذين يسبرون قاع الخليج بحثاً عن المحار ودرره الثمينة، ثم العاملون على فتق المحار واستخراج لآلئه، ثم التجار الذين يشترون اللآلئ من هؤلاء بعد هذه المسيرة من قاع البحر إلى شاطئه.

ولأن مهمة التاجر كانت محصورة في شراء اللآلئ دون اضطراره إلى الإبحار ثم الغوص بحثاً عنها، فقد كان المستفيد الأكبر والأبرز من هذا السوق اليومي، فضلاً عن المكانة التي يحظى بها بين العاملين في البحر، إذ من المهم أن يتملق الكثيرون رضاه سواء أكان على حق أم لا.

والتاجر بدوره يقوم ببيع هذه اللآلئ للتجار الأجانب القادمين على السفن التجارية إلى ميناء الكويت، أو أنه يبيعها لتجار من أبناء منطقته اعتادوا جمع اللآلئ والسفر بها إلى بلاد الهند لبيعها هناك بمبالغ مضاعفة. وهكذا سلسلة التجارة، لتنتهي حبات اللؤلؤ التي اغتسلت بعرق الغواصين وكدهم إلى عقد ثمين في جيد فتاة مخملية.

حينها، كانت مهنة الشباب الرائجة آنذاك هي الغوص، أو مساعدة الغواصين في مهامهم، فانتظموا ضمن السلسلة الإنتاجية لاستخراج اللؤلؤ، وقد عمل أغلب أقران أحمد ابن رزق في هذا المجال، فأساليب التعليم البسيطة البدائية التي تقتصر على الكتابيب عند الملالي شجعت على هذا الجانب.

كانت هذه المهنة هي السبيل الأكثر شيوعاً لكسب الرزق، فالشاعر الكويتي صقر الشبيب مثلاً في فترة لاحقة، رغم كف بصره، عمل مساعداً على إحدى سفن الغوص الكويتية، حيث هي باب الرزق المتاح.

بيد أن أبا أحمد لم يشأ لولده أن يسلك هذه الطريق الشاقة، بل أراد له تعلم مهنته، وأن يكتسب من مشاهداته اليومية لحال السوق، وأسعار اللآلئ، حتى تكون له رصيذاً معرفياً لاحقاً يستطيع من خلاله مجارة التجار المتمرسين. والتي تتيح له مزيداً من الوقت، وراحة في البدن، وسعة في الرزق، مما تجعله منكباً على التعلم والحرص على طلبه، وليس منشغلاً بالمخاطر التي قد تعترضه إبان غوصه أو إبحاره بحثاً عن رزقه كما حال كثير من العمال.

وقد تطبع الابن بطباع والده، وسار على دربه، وتخلق بأخلاقه، وجاء حرصه على الالتزام الديني والتأدب بآداب المجالس، تمثلاً بوالده، فكان فتىً نجيباً منذ نشأته، ليس كغيره من الفتيان، بل متزناً بعيداً عن اللهو، حريصاً على الدارسة وطلب العلم.

لأبي أحمد سمعة حسنة في السوق، وصيت ذائع بالفضل بين التجار في الكويت والمدن المحيطة بها، حتى في الأحساء. فكما كان محله التجاري في السوق مقصداً للتجار والصيادين والبحارة، كان يشكل مجمعاً لبعض أصدقائه الذين يشدهم حديثه الشيق، وحكمته المعروفة عنه، فيستشيرونه في كثير من المشاكل التي تعترضهم في حياتهم اليومية.

لم تكن هذه المكانة التي تبوأها بين أبناء قومه وليدة المصادفة أو المحبة العارضة، بل تقديرًا لجهوده المتميزة في دعم أوجه الخير وسبل الفضيلة، وإغداقه على أهل منطقته من أمواله الخاصة، وسعيه الدؤوب لتأمين احتياجات منطقته من مساجد أو كتاتيب أو آبار المياه العذبة.

فابن رزق وصل الكويت شاباً، قدمها مع جموع القادمين إليها في بداية نشوئها، ولأنه كان تاجراً منذ الصغر، فقد ساعدته تجارته على توطيد أركان إقامته في الكويت، حيث حرص على أن تكون الكويت مكاناً ملائماً للإقامة الدائمة، سواءً أكانت له أم لغيره من الوافدين إليها من المناطق المجاورة والبوادي.

ولم تنسَ لَبَنَاتُ السوق وأبوابه ذلك اليوم الذي وقف فيه محمد بن رزق في سوق الكويت، منادياً بالناس:

- أبشركم، إن مياه البئر الذي حفرناه في الشامية عذبةٌ، وسنحضر غيره قريباً.

حينها كانت كمية المياه التي تجود بها آبار الماء العذب كافية لسكان الكويت، فلم يحتاجوا استيراد مياه الشرب من شط العرب عن طريق السفن المخصصة لذلك، علماً أن هذا الأمر تم بعد أن ازداد عدد سكان الكويت بشكل مضطرد وبفترة زمنية قياسية، إذ وجد كثير من سكان البوادي ضالتهم في هذه المدينة الناشئة، ورغبوا في الاستقرار فيها.

إن حياة الانتظار التي كان يعيشها البداءة قبل التحضر، انتظار المطر، والربيع، والقلق من الصيف، والحذر من الشتاء، جعلت الكثيرين منهم يرغبون عن الاستمرار في هذا النمط المعيشي المتوتر، مما أوجد الرغبة في نفوس الكثيرين منهم للابتعاد عن حياة البداية المؤقتة، المرتبطة بالماء والمرعى، والانتقال إلى حياة الاستقرار الدائم في التجمعات السكانية.

ولعل أن أهم ميزات هذه التجمعات السكانية، هو التخلي عن حدة الطبع القبلي الجاف، فكما يقال: فإن النفس البشرية تكتسب صفات الأرض التي تعيش عليها، ومن هنا فقد كانت البادية تفرض قساوتها على سكانها ليتطبعوا بطباعها، ويتسموا بالصبر على مشاق الحياة وشظف العيش أكثر ممن أَلَفَ المدينة، فهؤلاء أضفى أنس المدينة رفته على طباعهم.

والميزة الأخرى التي اتسم بها المجتمع المدني إزاء نظيره القبلي، تمثلت في التحرر من العصبية القبلية في تجمعات البادية، فالمدينة ضمت بين حوارها البدوي والحضري، المتعلم والأمي، العربي والأجنبي، مما أضعف من وحدة التكتل للقبيلة، مع التسليم بأنه كان مجرد إضعاف لها ضمن حدود التعايش المدني، ولم يصل حد الانفصال والتخلي كما حدث في المجتمعات الأوروبية، وبعض المجتمعات العربية خارج إطار شبه الجزيرة العربية آنذاك.

إن العلاقة التي ربطت ابن رزق بهذه الفئات المختلفة من سكان المدينة، على اختلاف مشاربهم، وتنوع قبائلهم، أهلته ليكون محل ثقة للجميع آنذاك، إذ إنه أنف أن يكون متعصباً لجهة على حساب جهة أخرى، بل كان همه الأول والأخير هو الارتقاء بالمجتمع الكويتي لينافس المجتمعات المتحضرة.

فلم ينسَ الناس فرحة ذلك اليوم الذي آثر ابن رزق فيه أن يجعل البئر لجميع من يقطن الكويت، من دون أن يخصه بأسرة دون سواها،

أو بقبيلة دون قبيلة، أو بعرق دون آخر، بل إنهم ظلوا يستذكرون هذه الحادثة في كل محفل، وفي كل مناسبة، فعملية الحصول على مياه الشرب في منطقة ساحلية تطل على خليج ذي مياه مالحة أمر ليس سهلاً في ذلك الوقت.

لم تكن هذه الهبة التي قدمها لسكان الكويت الدافع الوحيد الذي رفع من قدره عندهم، فناهيك عن حبه للعلم والأدب، والتزامه الديني وأخلاقه الحميدة، فقد اتخذ خطوة مهمة ومميزة، فحيث إنه كان من أهل السوق، فقد كان يتعنى كغيره من التجار والمتسوقين لترك محالهم التجارية والذهاب إلى المسجد الصغير خارج السوق، فأراد أن يخفف عن التجار هذه المشقة، فقرر بناء مسجد في الساحة الرملية التي تحاذي المحلات التجارية في السوق.

اجتمع أبوأحمد مع التجار في أحد المحلات التجارية المطلة على الساحة الرملية، وذلك بعيد صلاة العصر، وأراد أن يشاورهم في أمر بناء المسجد، وأن يتخيروا مكاناً لذلك. مع أنه فكر في المكان من قبل، بل وعقد العزم ليكون موضع البناء، بيد أنه رغب في أن يكون إجماع الرأي حليفه في هذا القرار، وأن يكون المسجد نتيجة للشورى بين الجميع، حتى لا يظهر له لاحقاً أحدٌ يعترض أو يدعي ملكية الساحة الرملية في السوق.

بدت علامات الفرح واضحة على وجوه التجار وهم منصتون بينما هو مسترسل في شرح أسباب بناء مسجد السوق، مستشهداً في حديثه

بآيات من القرآن الكريم، وبأحاديث نبوية شريفة تؤكد فضل بناء بيوت الله وإعمارها في الأرض. ثم قال لهم:

- اقترحوا علينا مكاناً نبنى عليه المسجد .

(كانت الساحة الرملية التي رغب فيها أبو أحمد لتكون مكاناً للمسجد تقع تحت نظرهم، وقد اختار مكان الاجتماع قريباً منها كي تكون الساحة ضمن مقترحاتهم وليس اقتراحاً منه فقط)

إن فكرة الاقتراح محصورة في الأماكن المحيطة في السوق أو في السوق نفسه، ولذلك كانت الخيارات واضحة ومعدودة وبعيدة عن التشتيت، حيث قال أحد التجار:

- اختر أنت يا أبا أحمد، والله لو أردت مني أن أهدم محلي لتبني المسجد مكانه فإني لهادمه هذا المساء .

إن الثقة التي يوليها التجار له جعلتهم يوافقون على قراراته دون أي مناقشة، إذ علموا من تجاربهم السابقة معه، بأنه رجل يحب الحق ولا يحيد عنه، ويهمه شأن الناس من حوله أكثر من شأنه وأموره ذات المنفعة الشخصية، حيث غلب العام على الخاص في كل شأن ذي منفعة للكويت وساكنيها .

وقال آخر كان يجلس بوقار:

- كلنا مع ما تختار، وإذا كان لابد من الاقتراح، فأنا أقترح أن نبنى المسجد في جزء من هذه الساحة الرملية .

- ما رأيكم؟ (سألهم أبو أحمد).

كانت الآراء كلها تتجه إلى الموافقة على المقترح، وبالفعل تمت المباركة على المكان، وقرر أبو أحمد البدء بالتعاقد مع البنائين:

- غداً سنباشر بالبناء إن شاء الله.

لكن أحدهم استوقفه:

- وأنا جاهز لأي مبلغ يكون علي تجاه تكاليف البناء.

فردد بعض التجار من خلفه:

- وأنا جاهز.. وأنا.. هذا واجبنا جميعاً.

لكنه أجاب بحزم:

- إذا كانت لي مكانة في قلوبكم، فأرجو منكم أن تسمحوا لي ببناء المسجد وحدي، وأعدكم بأني سأشارككم ذلك في المرات القادمة، أما الثواب فنسأل الله أن يكون لي ولكم على السواء، فإنما الأعمال بالنيات.

بُني المسجد في المكان المخصص له، وحرص ابن رزق على جعله ذي عمارة متميزة عن المسجد الآخر الصغير خارج السوق، وحرص على حفر جليب ماء بجانب المسجد لتجميع المياه لتلبية احتياجات المصلين.

ولأن تجارته تقوم في الأساس على محله التجاري الكائن في وسط السوق، فقد كان أحمد يجلس في المحل مع والده في أغلب الأيام، منها فترة وجيزة في الصباح الباكر، وفترة أطول في المساء، حيث إنه ملتزم

في الفترة الصباحية في وقت الضحى بحضور الحلقة التعليمية التي يقيمها الملا حسين في المسجد، لتعليم الفتيان القراءة والكتابة، وحفظ القرآن الكريم وتجويده. وكان أبو أحمد حريصاً على تعليم ابنه أكثر من حرصه على إبقائه معه لمساعدته في تجارته.

وبينما كان أبو أحمد يتجول في السوق برفقة ولده، في طريقه إلى محله، استوقفهما تجمع بعض التجار أمام محلّ تاجر الحبوب أبي سعيد، فوقف أبو أحمد واقترب ليعرف سبب هذا التجمهر، وإذا بهم يتحسرون ويتساءلون في حيرة عن قد يكون فعل هذا الفعل الأثيم، فقال أبو أحمد:

- عساه خيراً يا قوم.. ما الذي حصل؟

فأجابه أحد الحضور:

- لقد وجد أبوسعيد محله مفتوحاً، وربما أن أحدهم قد سرق منه شيئاً. (قالها وهو يحاول أن يسترق النظر من بين الناس إلى أبي سعيد الذي يحاول إحصاء المسروقات).

اقترب من باب المحل ودخل على أبي سعيد الذي بدا مضطرباً في تفقد محتويات محله، فتارة يفتح كيس القمح وتارة أخرى يعدُّ أكياس الشعير، وأخرى يحصي فيها عدد أكياس الذرة. فألقى أبو أحمد السلام عليه، وبدأ يواسيه في الحال، ويهدئ من روعه. بينما أخذ أبوسعيد يسرد لأبي أحمد تفاصيل الحادثة، وكله أمل في أن يكون الحل لديه. بينما يقلب أبو أحمد عينيه في المحل بحثاً عن دليل يشير إلى السارق.

كان أحمد مندهشاً من هذه الحادثة، فطلب من أبيه مفتاح المحل كي يسبقه إليه، وكانت هذه عادته كل يوم، إلا أن الوضع هذا اليوم مختلف عن سابقه، إذ شعر بالقلق في ما إذا كان محلهم قد تعرض للسرقة في الليل.

التقط المفتاح من يد والده، وركض في السوق قاصداً المحل، والذي لا يبعد كثيراً عن محل أبي سعيد، فالتقط أنفاسه لما رأى باب المحل موصداً كما تركه ليلاً، لكن ذلك لم يطمئنه كثيراً، فبذرة الشك التي زرعت في نفسه قبل دقائق جعلته يفتح الباب بلهفة وعجلة ليزداد اطمئنانه أن المحل لم يتعرض للسرقة. لكنه تنفس الصعداء لما فتح الباب ورأى كل شيء على حاله.

تفقد أغراض المحل بحذر، ثم بدأ بحمل الطاولات الثلاث إلى الباحة الأمامية التي تشكل مدخل المحل، ثم تناول دلواً من الماء، كان قد هيأه مساءً قبل أن يغلق الباب، فبدأ يرش الماء رذاذاً بيديه الصغيرتين على أرض الباحة، مما بعث من الأرض رائحة زكية تذكر كل من يتسمها بأواخر أيلول وأول خيرات السماء على الأرض.

لم يكن الوحيد الذي بدأ بفتح محل أبيه، بل إن الحياة بدأت تدب في السوق شيئاً فشيئاً، وكلما مرَّ أحد التجار بجوار أحمد المشغول بتجهيز المحل، ألقى عليه السلام مع ابتسامته الصباحية:

- صبحك الله بالخير يا أبا محمد.

حرص التجار على مناداة أحمد بهذا اللقب، تكتيًّا باسم والده، الأمر الذي رفع من معنويات الفتى الصغير، وجعله يشعر بالمسؤولية المبكرة، والحرص الدائم على السير على خطوات الرجال الأكبر سنًّا منه، كي يكون بمثل ركازتهم وحصافتهم.

إن الاحترام الذي يتلقَّاه الفتى من الناس في السوق، قد أسهم في بناء شخصيته الجسورة الوقورة منذ الصغر، وخصوصًا أن علاقته كانت وطيدة مع كبار السن مقارنة بسنه، الأمر الذي جعله يتخلص من رهبة المجالس التي تسيطر على أذهان الكثيرين من أترابه.

وصل الأب إلى محلِّه، فتلقاه أحمد مستقبلاً له بوجهه البشوش، وقد هيَّأ له كل شيء تقريباً، فدخل إلى المحل مع أبيه الذي أخرج دفتره من جيبه ووضعه على الطاولة، ثم فتح صفحة بيضاء وسجل في رأسها اليوم والتاريخ. وبينما هو يقلب صفحات الدفتر، وإذ بصوت ينادي من خارج الباب:

- أبوأحمد.. يا أبوأحمد..

نهض أحمد من على كرسيه ونظر خارجاً فإذا بأحد تجار السوق يقف في الباحة:

- إنه عمي أبوفصيل.

(كان معتاداً أن ينادي أصدقاء والده، وكبار السن أيضاً، بهذا اللقب «عمي» أو «يا عم» تقديرًا منه لهم، وكناية عن الاحترام الذي يكنه لأصدقاء أبيه).

نهض أبو أحمد عن كرسيه مرحباً به، وخرج من خلف الطاولة داعياً إياه إلى الجلوس على المصطبة الخارجية في شمس الصباح الدافئة. بيد أنه آثر المسير:

- نجلس بعد أن نعود.. فسفن الغوص على وشك الوصول..
- والبارحة انتظرناها ولم تأتِ. (قال أبو أحمد مبتسماً، ثم أردف):
- أفضل السوق أوَّلُه.. توكلنا على الله.

كانت هذه اللحظة هي أفضل ساعات النهار بالنسبة لأحمد، حيث إن أفضل خبر ينتظره من والده، هو أن يقول له:

- أحمد.. أبق عينيك متيقظتين، سأغيب لفترة وجيزة. وإذا سأل أحد عني فدعه ينتظرني في الداخل.. لن أتأخر..

فور خروج الأب من باب المحل، سارع أحمد إلى أخذ مكانه على الكرسي الخشبي المجدول بسعف النخل، وجلس خلف الطاولة الخشبية المغطاة بقطعة قماشية سوداء، ثم وضع أمامه دفتر الفواتير والقلم، منتظراً أي أحد يدخل عليه.

في السوق المفتوح، حيث تبدأ المزادات العلنية لبيع السمك، أو اللؤلئ، أو المنتجات التي جلبها التجار معهم من البلاد الآسيوية، وقف أبو أحمد وأبو فيصل بجوار بعضهما بعضاً، مراقبين الشاطئ من أقصى ما يرونه إلى الأقصى المقابل، في انتظار سفن الغوص التي اقترب موعد وصولها، بيد أن السوق بدأ ولم تصل أي سفينة بعد، وبحكم أنهما تاجرا

لؤلؤ، فقد وقف أبوفصيل غير مكترث لمزاد الأخشاب والأقمشة الذي بدأ بجوارهما من السفينة القادمة من الهند .

اقترب أبوأحمد من التجار المتحلقين حول البضاعة يتفحصونها ليتأكدوا من جودتها، وبدأ ينظر معهم إلى المعروضات، لكن أبا فيصل نادى عليه:

- أبوأحمد .. تعال قف معي هنا .. لماذا تقف بين هؤلاء في زحامهم؟
وليس لك في الأمر لا ناقة ولا جمل!

فأشار إليه بيده بأن يترث قليلاً، ثم أشاح بوجهه عنه وبدأ يستمع لرأي التجار ذوي الخبرة في البضاعة المعروضة، أولئك الذين أثثوا عليها وعلى جودتها. وما إن بدأ المزاد حتى رفع أبوأحمد يده مشاركاً فيه.

استغرب أبوفصيل من هذا التصرف، وخصوصاً أن أبا أحمد لم يشارك من قبل في مزادات بعيداً عن اللآلئ والأسماك وما شاكل ذلك. زاد حيرته دخول أبي أحمد في مزاد لشراء كمية كبيرة من الخشب الهندي، والتي لن يستطيع المحل استيعابها، ولا حتى داره، ولا يمكنه تركها ملقاة على الشاطئ بانتظار فرصة بيعها مجدداً.

وكلما رفع تاجر السعر، صاح أبوأحمد بسعر أعلى منه، حتى خفت أصوات التجار أمام إلحاحه على شراء الأخشاب. وانتهى المزاد على ما كان يخشاه أبوفصيل، فقد فاز صديقه بالصفقة وكانت الأخشاب من نصيبه، بينما ذهبت الأقمشة لتاجر آخر كان ممتهناً لها، حيث لم يُبد

أبو أحمد اهتماماً حقيقياً بالأقمشة المعروضة، حتى أنه لم يشارك في مزادها، مع أنها رست على تاجر بسعر زهيد جداً قياساً إلى صفقة الأخشاب.

دفع ربع ثمن الأخشاب، على أن يكمل باقي المبلغ في اليوم نفسه، واتفق مع العمال المنتشرين في المكان على تجهيزها لنقلها من مكانها. ثم التفت إلى أبي فيصل:

- أراك مستغرباً!

- بالطبع مستغرب.. لقد جئنا لنشتري اللؤلؤ وليس الخشب!

ابتسم أبو أحمد:

- وسفن الغوص لم تصل بعد، وربما ستتأخر لأيام، فهل نجلس مكتوفي الأيدي حتى تصل؟ وكما تعلم فموسم الغوص في آخره.

- ما أَتَجَرَّكَ..

(قالها أبو فيصل، وكان مشهوراً عنه استعمال أفعال التفضيل في تعليقه على كثير من المواقف التي تحصل أمامه).. ثم قال متابعاً:

- وماذا ستفعل بالأخشاب؟

- سأبيعها في البصرة. (أجابه أبو أحمد بثقة).

- في البصرة؟! (مستغرباً ومستهجناً).. أمن قلة أخشاب في البصرة؟!

- ربك ييسر لنا أمرنا في تجارتنا هذه، سأحاول أن أبيعها في سوق البصرة..

- ما أبيعك.. على كل حال.. اللهم ربي يسّر.

ضحك أبوأحمد، والتفت إلى العمال الذين بدأوا بإحصاء عدد الأخشاب بدقة. وكان أبوأحمد قد اشترط عليهم أن يحاسبهم على القطعة وليس على الكمية ككل، وبذلك سيستفيد منهم في إحصائها له فضلاً عن تحميلها ونقلها.

كان أبوأحمد على علاقة وطيدة بتجار سوق مدينة البصرة المجاورة للكويت، وكان دائم التردد عليهم، حيث يلقي عندهم الحفاوة البالغة، وفي المقابل فقد كان يعاملهم بالمثل وزيادة لدى زيارتهم الكويت.

ولم تكن علاقته وطيدة بالتجار فقط، بل إنه كان على علاقة جيدة بديوان الوالي العثماني على البصرة، حيث تردد إليه أكثر من مرة، كان أولها في اليوم الذي دعا فيه الوالي تجار البصرة لمأدبة غداء في قصره، ولما كان أبوأحمد حينئذٍ في البصرة، ومن التجار الفاعلين في سوقها، على الرغم من عدم اتصاله الدائم بالسوق، إلا أن بعض التجار قد ألحوا عليه لمرافقتهم إلى مأدبة الوالي، وشجعه على ذلك علمه برغبة الوالي بحضور أكبر عدد من التجار للتعرف عليهم ومجالستهم والاستماع إلى مطالبهم، مع أن الغاية الأساسية كانت في رغبة الوالي في الاطلاع على الوضع الاقتصادي للمنطقة من خلالهم.

يومها، هيئاً نفسه وذهب مع التجار إلى القصر، فكان الوالي في استقبالهم وبجانبه تصطف حاشيته من مرافقين وحرس وباشوات. وكان يصافح كل تاجر منهم ويرحب به بحرارة. فالتجار هم الركن الأساسي الذي يعتمد عليه الولاية في حال حصلت ضائقة مالية في الدولة العثمانية في أثناء الحملات العسكرية، وما يرافق هذه الحملات من مصاريف قد ترهق خزينة الدولة.

جلس التجار في الديوان حتى اكتمل المدعوون، ثم جلس الوالي بوجه بشوش مرحباً بهم، وبدأ يروي لهم بعض الإنجازات والانتصارات التي حققتها الدولة العثمانية. مستطرداً إلى العادات الغربية لبعض الشعوب الأجنبية في اللباس والزواج وما إلى ذلك، نقلاً عن أحد المقربين منه الذي شارك في الحملات العثمانية على أوروبا.

لاحظ أبوأحمد أن أسارير الوالي منفرجة، وأن الوالي يتمتع بشخصية أدبية طريفة، وممن تجذبه الجلسات الحوارية والأخبار الغربية والطريفة، فانتظر حتى انتهى الوالي من حكايته التي رواها للتجار متهمكاً لباس بعض أهل أوروبا الذي يشبه لباس النساء. فانتهاز الفرصة للمشاركة في الحديث:

- لو يأذن لي مولانا الوالي، لقصصت حادثة غريبة حصلت معي قبل فترة في ميناء الكويت.

نظر الجميع باستغراب ودهشة إلى جرأته على الحديث في مجلس الوالي، وخصوصاً أنه يحضره للمرة الأولى. لكن الوالي قال له:

- تفضل.. قُصَّ لنا ما حصل.

قَدَّمَ نفسه بكل وقار وثقة، تتم عن مدى عبقريته بأسلوب التعارف مع الولاة والحكام:

- أنا محمد بن حسين بن رزق، تاجر من الكويت. وإنه لمن دواعي سروري أن أكون في حضرتكم في هذا اليوم.. والذي حصل: أنني كنت أقف في مرسى السفن في ميناء الكويت بانتظار سفن الغوص، وبينما أنا كذلك إذ بتاجر هندي يضرب أحد الصبيان من أبناء جلدته، ويؤنبه بلغتهم، فاقتربت منهما مسرعاً كي أدافع عن الصبي المسكين، وأمسكت بالرجل ومنعته عنه..

الطريف أن الرجل كان يتكلم بعض العربية، وإن كانت غير سليمة في كثير من الكلمات.. لكنني استطعت أن أفهم منه سبب غضبه..

بدا الكل مشدوهاً لقصة أبي أحمد، الذي يمتلك أسلوباً يضع المتلقين في حقيقة الحدث ويصوره كأنه أمامهم.. فينظر حيناً إلى الوالي وهو يتكلم، وحيناً إلى التجار لينسجموا كجمهور مع هذه القصة. ثم تابع:

- عرفت أن هذا الصبي هو ابن الرجل الذي ينهال عليه بالضرب، وهنا سكن روعي قليلاً، لكن ذلك لم يمنني من الاستفسار عن سبب هذا الضرب كله.. فإذا بالأب الثائر يرمقني بغضب، ثم أخرج أفعى من كيس قماشى بجانبه، فهرعت إلى الخلف، في ظني أنهم في الهند

يستعملون الأفاعي للدفاع عن النفس بدل السيف، وأنه لا بد ملقيها عليّ.. لكنه قاطع ذهولي بقوله: أفعى مسكينة، وقد وجدت ولدي يلعب بها على الشاطئ، ماذا لو هربت؟ ماذا لو غرقت؟ ماذا لو قتلها؟

فقلت له: دعني عليها، أعطني أقتلها.. فرمقني بغضب أكثر من ذي قبل، وقال بما معناه: يبدو أنك أكثر رعونة من ولدي.. ثم ألقى الأفعى على الأرض وأمر ولده بالتقاطها ووضعها في الكيس ثم إدخالها إلى الغرفة في السفينة..

فانقض عليها الولد كالطير الجارح على فريسته، وأمسك بها من رأسها وذنبها معاً، ثم أودعها في الكيس القماشي، وركض إلى السفينة.. ولما سألت والده عن سبب احتفاظه بالأفعى الخطيرة على سفينته، قال لي: هذه بركة بركة.. ثم صار يتمتم وهو يطوي حبلًا كان في يديه: جاهل لا يعرف بركة الأفعى..

فظللت واقفًا مستغربًا من أمره، وخجلت من سؤاله عن بركات الأفعى، كي لا يثور مجددًا.. وعاهدت نفسي ألا أناقش هندیًا غاضبًا مرة أخرى..

ضحك الوالي ضحكًا شديدًا وهو يقول بصوت عالٍ:

- لا تغضبوا الهنود.. لا تغضبوهم.

شجع هذا بقية التجار على محاولة استذكار حوادث طريفة حصلت معهم في أسفارهم أو مع عملائهم من البلاد الآسيوية أو الأوروبية،

وعمَّ الديوان جوُّ من الأنس. وبعد لحظات وقف الوالي ودعا الجميع إلى الدخول إلى القاعة المخصصة للطعام بجوار ديوانه، فقاموا جميعاً واتجهوا إلى هناك.

ولما بدأ التجار يتخذون أماكنهم، أشار الوالي بيده إلى أبي أحمد في رغبة منه بأن يجلس قريباً منه. فاقترب أبو أحمد وجلس غير بعيد، ودارت أحاديث بين الوالي والمحيطين به، كان أبو أحمد يستمع إليها بحذر وإصغاء. ومن أبرز الأحاديث هو تطرقهم إلى ضرورة توسيع الأسطول البحري العثماني في سواحل البصرة، وقد وافق السلطان العثماني على ذلك، وكذلك والي بغداد ذي الصلاحيات الواسعة، وأشار الوالي إلى ضرورة البدء بالعمل في الأشهر القليلة القادمة.

كانت هذه الحادثة عالقة في ذهن أبي أحمد، فكان أول شيء خطر بباله وهو يفاوض على شراء الأخشاب، سؤاله إن كانت تصلح لبناء السفن، وقد أفاده ذوو الخبرة أنها لا تصلح إلا لذلك أصلاً. مما شجعه على شرائها، وقد عقد النية لبيعها لحاشية الوالي العثماني في البصرة.

عاد إلى محله في السوق ودخل على أحمد الذي يجلس بثقة خلف الطاولة الخشبية، والذي نهض فور وصول أبيه، فبادره الأب:

- أحمد.. اذهب إلى البيت وأخبر والدتك بأننا سنسافر غداً صباحاً إلى البصرة.

- لماذا يا أبي؟

- اذهب فقط ودعها تجهز لنا عدة السفر.

انطلق أحمد إلى البيت وأخبر والدته بذلك، والتي كانت معتادة على السفر مع أبي أحمد في رحلاته إلى البصرة. فهو لا يسافر إليها إلا ويصطحب معه زوجته وابنه، بينما يدع البيت تحت رقابة جاره أبي سعد، والمحل تحت رقابة جاره في السوق أبي فيصل.

جلس أبو أحمد في المحل يجهز المبلغ المتبقي من ثمن الأخشاب، فدخل عليه أبو فيصل وجلس دون أن يتكلم، منتظرًا أن ينتهي من عدّ نقوده. ولما انتهى قال له أبو أحمد:

- صديقي وأخي أبو فيصل.. سأسافر إلى البصرة غدًا كي أهيأ صفقة بيع الأخشاب قبل وصولها إلي.. وأنا هنا في حاجتك.

- أبشر.. ماذا تريدني أن أفعل؟.

- عليك التأكد أن الأخشاب ستقل إلى البصرة بعد غد.. وأنا سأكون في انتظارها هناك..

- هذا أمر سهل إن شاء الله..

- سأدفع بقية المبلغ الآن.. كما سأعطي العمال أجرتهم على تحميلها، بينما سأدفع لهم أجرة نقلها في البصرة عندما تصلني البضاعة. وكل ما عليك هو أن تتأكد من خروجها في موعدها.. فأخاف أن أسافر ويتقاعس العمال.

- لا تقلق سأكون هنا كما لو أنك موجود .

- باركك الله يا أبا فيصل .

خرج من المحل برفقة أبي فيصل، ثم أغلق محله، واتجه إلى الرصيف البحري حيث ترك الأخشاب بيد العمال، فدفع ما تبقى عليه من ثمنها، وأعطى العمال مبلغاً تشجيعياً كي يعملوا بجِد أكثر. ثم قال لهم مشيراً إلى أبي فيصل:

- هذا الرجل هو صاحب البضاعة في غيابي، فاسمعوا منه، وهو سيتابع شحنها إلى البصرة.

وتم الأمر كما خطط له، فعاد إلى بيته وبدأ التجهز للسفر.

في صبيحة اليوم التالي، وبعد الفجر، غادر الكويت قاصداً مدينة البصرة. فوصلها في آخر النهار واتجه إلى بيته المتواضع الذي اشتراه فيها من قبل، حيث يقيم فيه مع أفراد عائلته ريثما ينهي تجارته في المنطقة.

بعد أن ارتاح من عناء السفر، وكعاداته التي كان عليها في الكويت، ذهب إلى المسجد لأداء صلاة الفجر، ثم سار إلى شاطئ الخليج، عساه يلقى أحد المسؤولين عن السفن العثمانية.

وفي أثناء تجواله في المكان، كان يصطدم كل بضعة أمتار بتجار البصرة الذين يعرفونه معرفة جيدة، فيلقون السلام عليه ويرحبون

به، غير مستغربين تواجده في الميناء، فهو على اتصال مستمر بتجارة البصرة مثلما تجارة الكويت.

وبعد أن أشرقت الشمس وأخذ الناس بالتوافد إلى السوق، بدأ أبوأحمد البحث عن أحد المسؤولين العثمانيين، وبالفعل فقد وقع نظره على المسؤول عن السفن الذي قدم لتفقد وضع الشاطئ كما يفعل في أغلب الأيام. فاقترب منه وألقى التحية عليه:

- السلام عليكم يا باشا.

نظر إليه الباشا وقد عرفه فوراً:

- أهلاً أهلاً بتاجر الكويت وخطيبها.

وقف أبوأحمد بجانبه وبدأ الباشا يسأله عن تجارته وعن الأحوال في الكويت، فأجابه:

- الحمد لله بألف خير.

- وماذا تفعل في هذا الصباح الباكر هنا في البصرة.

كان هذا هو السؤال الذي ينتظره، فعاجله قائلاً:

- في الحقيقة انتظر شحنة من الأخشاب الهندية الخاصة بصناعة السفن، وستصلني اليوم أو غداً.

بدا الباشا مهتماً بالأمر:

- وهل ستبيعها هنا في البصرة؟ هل من تاجر محدد ستبيعها له؟
- في الحقيقة لا.. لكن نوعيتها الجيدة لن تدعها تنتظر كثيراً، فكثير من تجار السفن يرغبون بشرائها.
- إذن دعها لنا، نحن سنشتريها منك.
- كما تشاء يا باشا، هي لكم إن شاء الله.

أشار الباشا إلى أحد المرافقين له بأن يتولى مهمة انتظار الأخشاب مع أبي أحمد، وأن يقوم بالإشراف على عملية التسليم.

حصل أبوأحمد على مراده ببسر وسهولة بفضل ذكائه وحسن تصرفه، وما كادت شمس ذاك اليوم تغيب حتى كانت الأخشاب قد وصلت إلى البصرة، فسلمها لمرافق الباشا الذي أخبره بأن يتجه صباحاً إلى ديوان الوالي لقبض ثمنها من المسؤول عن الخزينة، وأن الباشا سيكون بانتظاره هناك.

في صباح اليوم التالي اتجه أبوأحمد إلى ديوان الوالي بالفعل، وكان الباشا قد أخذ الموافقة على شراء الأخشاب من الوالي، بعد أن أخبره أن التاجر الذي أحضرها هو ذاته الذي كان حاضراً في مأدبة الغداء قبل فترة، فأصر الوالي على لقائه واستضافته.

كانت هذه الصفقة الباب الذي دخل منه أبوأحمد إلى ديوان الوالي كشخص مقرب منه، حيث إن الأخير قد شكره على كمية الأخشاب التي باعها لهم، وأنه بذلك قد وفر عليهم الوقت للحصول عليها. ومن هنا

قويت العلاقة بينهما، وصار لأبي أحمد قدم راسخة في قصر الوالي منذ ذلك الوقت.

بعد أيام، حيث انتهى من صفقته التجارية الرابعة، عاد إلى الكويت، واستمر على ما كان عليه من قبل في العمل في محله التجاري في السوق، بيد أنه لم يحصر تجارته منذ تلك اللحظة بتجارة اللؤلؤ، بل إنه بدأ يعمل في التجارة بأشكالها المختلفة، لكن على نحو أقل من عنايته بتجارة اللؤلؤ، والتي كانت مهنته التي يبرع فيها.

وبدأ يعتمد على ابنه في مجال التجارة أكثر من ذي قبل، فصار يأخذه معه ليتعلم أسرارها، ومعرفة اللؤلؤ الثمين من غيره الزهيد، والأنواع والألوان والأحجام المطلوبة والمرغوبة في البيع والشراء. حتى أنه أصبح يرسل ابنه صباحًا إلى الشاطئ ليرى وضع الشاطئ وحركة البيع والشراء من السفن القادمة. ومراقبة وصول سفن الغوص إلى ميناء الكويت. فصار أحمد يشعر بالمسؤولية إزاء هذه المهام التي كلفها به والده. وذات يوم دخل أحمد المحل وهو يحمل بيده قطعة قماشية مبلولة بالماء، وبدا مبتسمًا ومنشرح الصدر، فأثارت هذه الابتسامة حفيظة والده، فقال له:

- ما الذي تحمله في يدك.

اقترب ووضع القطعة القماشية على الطاولة، ثم فتحها برفق، وإذا هي لؤلؤة متوسطة الحجم أخذت لونًا أبيض مشربئًا باللون الوردي:

- ما أجملها! من أين حصلت عليها؟
- لقد اشتريتها من أحد البحارة.
- اشتريتها! (متفاجئاً).
- نعم اشتريتها بثلاثة حساويات.
- ثلاثة حساويات فقط! والله إنها تجارة رابحة.. وكيف عرفت قيمتها؟ أما خفت أن تكون أقل من هذا السعر؟
- لا يا أبي، فهذا اللون نادر في اللآلئ، وسعرها أكثر من ذلك، رأيتك ذات مرة تشتري واحدة باللون نفسه، بل أصغر منها بأربعة حساويات.
- ضحك الأب وأدناه منه وأجلسه بجانبه:
- لقد غلبتني في التجارة يا أحمد، وهذه اللؤلؤة من حقك، لهذا سأشتريها منك بما نبيعه للتجار في الهند، بستة حساويات، فما رأيك؟
- فرح أحمد بهذا الإطراء، وشعر أنه أحرز تقدماً ملحوظاً في سعيه ليكون مثل والده تاجراً:
- أنا لا أريد ثمنها، فقط أعطني ثلاث حساويات، ولا مانع لو زدتي واحدة، وهي لك.
- ربت الأب على كتفه وأعطاه ما أراد، وشجعه:
- أريدك حذراً في الشراء والبيع يا ولدي، فكن هكذا دائماً، سمحاً في الشراء وسمحاً في البيع. وبهذا ستكسب قلوب الناس والتجار.

دأب أبوأحمد على زرع الثقة في نفس ابنه منذ سن مبكرة، كما دأب على إطلاقه ليسبر مجاهل الحياة، فبعيداً عن تعليمه سلوكيات التجارة، فقد فسح له المجال لمخالطة أهل العلم والدين ممن يكبرونه، بل وحرص على أن يصاحب ولده من أقرانه الصالحين المتأدبين.

وهؤلاء، أقران أحمد، كانوا ممن يحضرون معه دروس العلم وتحفيظ القرآن في كل يوم وقت الضحى، فكان الصبية يجلسون معاً قبل بدء الدرس وبعده، في فسحة خارج المسجد تسمح لهم بالاختلاط بالآخرين. كما تسمح للمارين بالجلوس معهم بعض الوقت والاستماع إليهم، وجلساتهم لا تخلو من بعض المرح والترويح عن النفس، حالهم كحال أبناء هذه الفئة العمرية.

وفي أحد الأيام، وبينما كان أحمد يجلس مع أصدقائه بانتظار صلاة الظهر، بعد درس الأدب الذي أعاطهم إياه الملا حسين، قام أحد أصدقائه ويدعى جاسم وألقى على مسامعهم أبياتاً شعرية من منظمة تتغنى بالكويت وأهلها، فكان في إلقائه من البلاغة بمكان، فقام أحمد من مكانه وخلع بردته التي يرتديها، وألبسها لصديقه الشاعر، ففرح بها أيما فرح، خصوصاً وأنها فاخرة وثرينة، ولا يستطيع الفتى اقتناءها قياساً بأحمد ابن التاجر الثري محمد بن رزق.

إن مبادرة أحمد إلى هذه الخطوة كانت محاكاة لما شاهده سابقاً من أفعال والده وتكريمه للشعراء والأدباء وحفظه القرآن، بأن يخلع على كل واحدٍ منهم بردةً في مناسبة من المناسبات وهذا إن دل، فيدل على كرمه وطيب أخلاقه، وحرصه على تشجيع كسب العلوم بأصنافها المختلفة.

كانت هذه البردة باكورة مشاهد الكرم عند أحمد بن رزق، وسبباً من أسباب بذله وعطائه في ما بعد، كما كانت حافزاً لصديقه على الاستمرار في إبداعه، وحرصه على طلب العلم. فالمبدعون الصغار بحاجة إلى الحفز والرعاية أكثر من المبدعين الكبار، وحفزهم على مزيد من الإنتاج والعطاء يسهم حقيقة في تنمية عطائهم، ومضاعفة سعيهم بكدٍ لصقل الموهبة التي نالوا التقدير عليها، وتشجيعهم على اعتناق مذاهب الأدب وخصال الدين.

ولما كان أبو أحمد ذاهباً إلى صلاة الظهر، إذ من عادته التذكير في الحضور إلى المسجد، وجد في طريقه أحد أصدقائه، فترافقا سوياً لأداء الصلاة، وفي طريقهما مرّاً بجوار المكان الذي يجلس فيه ولده أحمد وصحبه، فرأى بردة ابنه على فتى غيره وهو يقف مفتخراً بها متباهياً بين أقرانه، فعلم أن في الأمر قصة وحكاية، ولم يخطر بباله أن تكون هذه البردة خلعة عليه من أحمد.

أثارت نظرات الأب الحائرة ريبة صديقه الذي يمشي معه، ورأى في عينيه ترقباً لمعرفة حكاية البردة، فقاطع صمته أحد الصبيان الذين يتحملون حول أحمد مفتخرين به:

- يا عم.. يا عم.. لقد أهدى ابنك أحمد بردته للشاعر جاسم.

انفرجت أسارير الأب، وقال مبتسماً:

- على أي صنيعٍ أهداها إليه؟

فقال الصبي بلهجة الفرّج، وهو يسترق النظر إلى أحمد الذي يقف
غير بعيد عنهما خَجلاً بعض الشيء:

- لأن أحمد سمع جاسم ينشد أبيات شعر في الفخر بالكويت، فأعجب
بها، ثم خلع بردته عليه.

لما سمع الأب ذلك، فرح بهذا الموقف، وعلم أن ابنه يتحلّى بخصاله
في حبه للكرم والبذل، ثم قال بصوت خفيض:

- سيكون لابني هذا شأن عظيم.

كانت هذه بعض مجريات الجلسات النهارية في الكويت آنذاك،
بينما كانت الجلسات المسائية تعقد في حلقات ضمن مجالس أعدت
خصيصاً لهذا الغرض، والتي تعتبر من تقاليد المجتمع الكويتي، وتتميز
هذه المجالس بالجدية والصرامة وعدم إفساح المجال للهو والمرح كتلك
التي يعقدها الصبية منفردين في النهار قبيل صلاة الظهر، وتكون
المجالس إما داخلية أو خارجية، لكن أغلبها كان خارجياً مطلقاً على
براحة من الأرض، مكشوفة الجوانب كي تتيح للجالسين التمتع ببعض
النسيم للتعويض عن حرارة شمس النهار اللاذعة.

إن النباهة التي كانت في الفتى أحمد، جعلته حريصاً على اختيار
خلانه ومجالسيه، وكان من أصدقائه في هذه الفترة عثمان بن سلمان
البصري، المعاصر له والمجايل له في السن، وتحلّى الأخير بنباهة كما

عند الأول، إذ اعتمدا في كثير من الأحيان على الإيماء والألغاز لإيصال فكرة معينة بينهما .

ومن المواقف التي حصلت لهما، أنهما كانا حاضرين في إحدى المجالس، بيد أن مكان جلوس كل منهما كان بعيداً عن الآخر، وقد أراد أحمد من عثمان أمراً لا ينبغي إعلانه على الملأ، وبخاصة أن المجلس عامر بأهل الفضل والعلم، بيد أن رغبة أحمد في الخروج من المجلس والذهاب مبكراً إلى المسجد قد أحوجته إلى رفيقٍ دربٍ، فأشار بعينه إلى عثمان ملغزاً برغبته في الخروج، ففهم عثمان مقصده، ولبى له حاجته .

كانت الحياة اليومية في الكويت تسير على هذا المنوال، فجلسات نهائية تتخللها دروس دينية وأدبية، مما وسم هذه الجلسات بالطبيعة التعليمية في أغلب الأحيان، كما أنَّ تخللها مفاكهات بين الفتیان يتجاذبون فيها أطراف الحديث عن أحوالهم، وسمها بالترفيهية أحياناً أخرى .

وفي المقابل كانت الجلسات الليلية تتخذ سمة المسامرة، حيث لم تكن تخلوا من حديث طيب، وخبر نادر، ومساجلة من هنا أو نادرة من هناك .

وخلال ثلاث سنوات، اشتد عود الفتى أحمد، وبلغ حينها من العمر ستة عشر عاماً، وأصبح والده يعتمد عليه في شؤون تجارته، في أمور البيع والشراء، فكان يده اليمنى في كل شيء .

الفصل الثاني

الفصل الثاني

الوباء والهجرة

قُبيل غياب الشمس، جلس أبو أحمد على المصطبة الطينية أمام بيته، وعلى يمينه ولده أحمد، بينما جلس على يساره جاره أبوسعد، يتجاذبون أطراف الحديث ويحتسون القهوة كلما ورد ذكر طرفة من ذكريات الأيام الماضية، فيمتزج حديثهم بالضحك والمزاح، فقال أبو أحمد لأبي سعد:

- هل تذكر يا أبا سعد، عندما كنا في القارب متجهين إلى جزيرة فيلكا، وسقطت في الماء ورميتُ نفسي خلفك وأنقذتُ حياتك!
- لله درك، لو كنت أدري أنك ستسرد هذه الحكاية لي في كل مرة نلتقي فيها لما أمسكت بيدك حينها ولبقيت في الماء.
- لا تنكر ذلك فقد أنقذت حياتك. (مع ابتسامة عريضة ونظرة حادة محاطة بالمكر).
- أنا أصلاً أجيد السباحة، وكنت سأعود إلى القارب وحدي.

ضحك أبو أحمد بصوت عالٍ هذه المرة، بينما كان أبوسعده مغتاضاً بعض الشيء لهذا الأمر، فهو لا يحبذ أن يطعن أحدهم بصدق حديثه، وخصوصاً في ما يتعلق بالبحر والسباحة.

كان بيت أبو أحمد شامخاً بين بيوت الكويت آنذاك، مكوناً من ثلاثة أدوار، مرتفعاً كمنارة اسكندرانية، وجميلاً كقصر وارف بين البيوت الطينية. بناه مربع التصميم، واعتنى بأدق تفاصيله ليكون مميزاً يليق به كتاجر وصاحب وجاهة، ولذلك فقد أحضر أبواب البيت ونوافذه من الهند، إذ طلبها من بعض التجار المسافرين إلى الهند آنذاك، فكانت الأبواب خشبية موشاة بالرسومات الهندسية، بينما جعل النوافذ مشغولة من قضبان النحاس المتشابك، فكان بذلك أول من أدخل معدن النحاس لتزيين هندسة البيوت في الكويت.

كما أنه جعل أمام البيت ساحة زينها بأشجار النخيل، يجد في ظلها نزهته وراحته، ويستقبل في أثناء جلوسه أصدقاءه ومحبيه، ورؤاد مجلسه أغلب أيام الأسبوع. ولأن بيته كان على قارعة الطريق، فقد اعتاد المارون بجواره على إلقاء التحية عليه وهو جالس على مصطبة الطينية، والذي يصير دائماً على دعوة المارين لاحتساء فنجان من القهوة تعبيراً عن الترحيب والضيافة.

كان أحمد يجد متعة في تقديم القهوة لأصدقاء والده والمارين عليه، بيد أن أبا أحمد كان يؤثر في كثير من الأحيان أن يقدم القهوة بنفسه، تكريماً للشخص الزائر، ورفعاً من مكانته وقيمته في مجلسه.

وبينما هما جالسان يجتران ذكريات الشباب، يتخللها ضحكات
وابتسامات، وأحمد يستمع إليهما مستمتعاً بهذه الأحاديث، ويتمتم
ضاحكاً، وإذا بشابٍّ عليه هيئة السفر يقطع حديثهما:

- السلام عليكم عمي.

ردَّ عليه أبو أحمد مُرحباً ثم قام من مكانه، وكذلك أبوسعد وأحمد:

- أهلاً بخالد، حمداً لله على سلامتك يا ولدي.

وسارع أبوسعد مبادراً:

- لم تُطلِ الغياب هذه المرّة يا خالد، لكنك أنرت الديرة، وحمداً لله
على سلامتك.

صافحهما خالد وهو يتمتم بصوت مسموع ببعض عبارات الشكر
والعرفان والحمد، ثم صافح أحمد الذي فعل كما فعل أبوه من قبله،
فرحب بخالد، ثم انحنى وأمسك دلة القهوة وتهياً ليسكب لخالد فنجاناً
منها، ريثما يكون قد جلس وأخذ مكانه بجوارهما.

خالد، شاب في أواخر العقد الثالث من عمره، اعتاد السفر والترحال
منذ توفي والداه بالحمى وعمره خمسة عشر عاماً، ومن وقتها وهو يعمل
في ميناء البصرة عند أخواله، لكنه لم يترك بيت والديه في الكويت، بل
كان مقيماً فيه بين الحين والآخر، وقد كان يتهيأ للزواج من بنت خاله
في البصرة.

بادره أبوأحمد :

- طمنا عنك يا خالد، وكيف حال الأهل والأصدقاء في البصرة، فلم
أزرها منذ فترة بسبب انشغالي هنا .

أجابه خالد بصوت مرهق وكئيب:

- الأخبار لا تسرُّ يا عم، وأشكر الله أنني خرجت من البصرة .

أبو أحمد متفاجئاً :

- خير.. خير.. ما الذي حصل هناك؟ هل اعتدى الغزاة على البصرة؟

- لا أبداً، فالحياة آمنة مطمئنة من هذه الناحية، مع أن المناوشات
تتذر بشيء لا يسر، ربما في المستقبل ليس بالبعيد .

أبو سعد بلهفة وعجلة:

- ما الذي حصل، هات لنا الخبر أولاً .

- إنها لعنة الوباء، لقد حلَّت في أهل البصرة، والموت يحصد الأرواح
كل ساعة .

قالها خالد وعيناه تجوسان في الأرض وكأنه ينظر إلى الجثث
المتراكمة . بينما قاطعه أبوأحمد بقلق:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. وما سبب ذلك؟ ومنذ متى حصل؟ وكيف؟

بينما ضرب أبوسعده راحة كفيه ببعضهما بعضاً، وقال:

- حسرتي عليك يا بَصْرَةَ الخليج وبَصْرِهِ. كيف هذا، ولماذا؟

تابع خالد بحرقه وأسف:

- أنا لاحظت ذلك منذ عشرة أيام، لكن ربما كانت الأعراض قبل ذلك بأيام وربما أسابيع. والذي لاحظته أيضاً أن الأعراض نفسها تظهر على جميع المرضى، وما يكاد يصاب أحد في الحي بالحمى وفقدان السوائل بعامّة، حتى يصاب به من يخالطونه.

بدا التأثير واضحاً على أبي أحمد، فهزّ رأسه يمنة ويسرة، وهو يضغط براحة كلتا يديه على مسباحه، ثم قال:

- وكلهم بنفس الأعراض يموتون!

قالها أبو أحمد مستفهماً، ومتفاجئاً، وقلقاً.

- نعم.. فهذا ما دعى الناس إلى التخوف من أن يكون وباء.. خصوصاً بعد عجز الأطباء عن معالجة أية حالة مرضية، حتى أنهم لم يستطيعوا إنقاذ أحدٍ من المصابين.

نظر أبو أحمد إلى أبي سعد وقد بدا القلق واضحاً عليه، ثم نظر إلى خالد من جديد وقال له:

- وماذا قال الأطباء عنه يا خالد؟ هل هو مرض معدٍ؟

- نعم.. بالضبط، وهذا هو ما دفع الطبيب العثماني إلى مغادرة
البصرة منذ يومين.

أردف أبوسعده:

- الأمر خطير إذن يا أبا أحمد، ولو لم يكن كذلك لما غادر الطبيب،
وهو الذي يُعتبر أعرفنا بالمرض ومدى خطورته.

- صدقت يا أبا سعدة، علينا أن نأخذ الأمر بشكل جديّ.

همّ خالد بالرحيل عنهما، وقال:

- أنا مضطر للذهاب الآن، فإنني أشعر ببعض التعب نتيجة السفر.
إلا أن أبا أحمد استوقفه قائلاً:

- خالد.. انتظر في بيتك ولا تخرج منه، فقد نأتيك لمتابعة حديثنا
في المساء.

انصرف خالد إلى منزله حاملاً بيده حقيبته الجلدية المعبأة،
وممسكاً بيده الأخرى طرف ثوبه، وعينا أبوأحمد ترقب انصرافه إلى أن
غاب بين بيوت الحي.

أحمد، الجالس بجوار والده، لم يستطع الصمت، وحاول التعقيب
على الحديث الذي دار للمشاركة فيه، فقال لوالده:

- أبي، بما أن المرض معدٍ، وخالد كان في البصرة، ورأى المصابين بالمرض، وبالتأكيد جلس مع بعضهم أو بجوارهم، فهل خالد مصاب بالمرض أيضاً؟

أبو أحمد يستمع بصمت ودهشة وينظر إلى أبي سعد دون أن يقاطع ولده وهو مسترسل في شرحه، حيث تابع قائلاً:

- وإذا كان خالد مصاباً بالمرض، فإن كل من يزوره سيصاب به، وبالتالي كيف ستزورونه وهو مريض، ألا تخافون من العدوى منه؟

لم تكن هذه الفكرة واردة في ذهن أبي أحمد، لكن ابنه أيقظها، فظل صامتاً ولم يعقب، إلى أن قطع أبوسعد صمته قائلاً:

- بالفعل يا أبا أحمد، مصيبة إذا كان خالد مصاباً بالمرض، مصيبة حقاً. تنهد أبو أحمد طويلاً:

- إذا كان الأمر مقتصرًا على خالد، فهذا هيئ، لكن المصيبة الحقيقية هي في القادمين الجدد من البصرة، الهاربين من الوباء، لينقلوه لنا من غير دراية أو علم منهم.

اعتدل أبو أحمد ووقف من مجلسه، ووقف معه ابنه أحمد وصديقه أبوسعد، وقال بصوت خفيض مليء بالحزن:

- لا بد من حلٍّ لهذه المسألة، وإلا فإن الكويت ستسير على طريق البصرة، وسيلاقى أهلها ما لاقاه أهل البصرة من المرض، نسأل الله العافية والسلامة.

- اللهم آمين. (قالا معاً).

استأذن أبوسعده للذهاب إلى بيته كي يتوضأ لصلاة المغرب، ودخل أحمد البيت ليتوضأ بينما سار أبوه إلى المسجد بخطوات قصيرة، محدثاً نفسه في أثناء ذلك عن إمكانية انتقال العدوى إلى الكويت، والأضرار الجسيمة التي ستتجم عن ذلك، وما سترتب على هذا الوباء من خسائر بشرية، وتهجير للفارين إلى المناطق الآمنة التي لم يدخلها الوباء بعد.

لم تكن فكرة الهجرات الضخمة واردة بعد في تلك الأثناء، حيث إن الهجرات كانت فردية من البادية إلى المدينة غالباً، ومن المدينة إلى البادية أحياناً، مع بعض الهجرات التي اتخذت طابع التجارة، والتي يُعتبر أصحابها مهاجرين دائمين، بحثاً عن سبل العيش وتوسيع تجارتهم. بينما كان عامة القوم مقيمين بصورة دائمة في المدن التي ولدوا فيها واستوطنوها وأسسوا فيها نشاطاتهم التجارية أو الحرفية لكسب عيشهم.

بُعِد صلاة المغرب، وقف أبوأحمد بالمصلين خاطباً بهم، وهم جلوس ينظرون إليه، وابنه أحمد بين المصلين ينتظر ما سيقوله والده للناس، مستغرباً منه هذه الوقفة في نفسه، لكنه كان يتوقع أن يكون الأمر متعلقاً بأحداث مدينة البصرة المجاورة.

بدأ أبوأحمد بالصلاة والسلام على رسول الله، ثم قال:

- أيها الإخوة الكرام، ربما سمع بعضكم بالمرض الذي حصد كثيراً من أرواح أشقائنا في البصرة، وربما أن قسماً كبيراً منكم لم يسمع به شأنه شأنى، حيث إنى سمعت هذا الخبر قبيل المغرب من الشاب خالد الذي عاد اليوم من البصرة.

بدأ الهرج يرتفع في المسجد بين المجتمعين، فأحدهم يتحسر على أخيه الذي يعمل هناك، وآخر يفكر بإرسال الأطباء المقيمين في الكويت لمساعدة أشقائهم، وثالث يلقب بأبي محمد، دفعته الحمية فقال:

- لنذهب إلى البصرة لنقف مع إخواننا هناك، ونقدم لهم مساعداتنا ورعايتنا، فهم إخواننا وهذا أقل واجب علينا.

جاءته بعض ردات الفعل المتباينة، فصاح أحدهم من يمين المجتمعين:

- أحسنت يا أبا محمد، لو حصل الأمر عندنا لما كانوا سيقصرون معنا، وأنا معك في هذا الرأي.

وصاح آخر من يسار المجتمعين:

- هذه المهمة لا يستطيع القيام بها إلا الأطباء، فلنرسل كل من يعرف عن الطب شيئاً لتقديم المساعدة لهم، لكن من لا يعرف شيئاً فليس لنذهابه أي داع.

قاطعهم أبوأحمد:

- يا إخوان.. يا إخوان.. الأمر أخطر وأدهى من ذلك، إذ ربما كان هذا المرض وباءً، والأرجح أنه كذلك، لأنه ينتقل بالعدوى، سواء أكانت باللمس أم عن طريق الهواء.

فقال أحدهم، وقد بدا صاحب حكمة وثقافة دينية:

- في هذه الحالة، لا يجب أن يذهب أي واحد منا إلى البصرة، ويجب على أهل البصرة ألا يخرجوا منها، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله في غزوة تبوك: «إذا وقع الطاعون بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها، وإذا وقع بها ولستم بها فلا تقدموا عليه».

فقال أبوحسن:

- وما الحل يا أبا أحمد؟

فأجاب:

- الحجر الصحي، أي أننا يجب أن نمنع أي أحدٍ من أهل الكويت من الذهاب إلى البصرة، كما أننا يجب أن نمنع أي أحد قادم من البصرة من دخول الكويت، وهذا حفاظًا على أهل الكويت من العدوى، حتى يأذن الله بالفرج من عنده، ويزول هذا الوباء.

فتساءل بعض الموجودين من أبي أحمد عن معنى الحجر الصحي، كي تتضح لهم الصورة أكثر، فقال لهم:

- أي أن المصاب لا يجب أن يختلط بالناس، ولا يختلط الناس به.

رفع أحمد يده من بين المجتمعين، في إشارة منه للفت انتباه والده ليأذن له بالحديث، فقال له:

- ماذا تريد يا أحمد؟

وقف أحمد، وقال:

- هل سنحجر على خالد يا أبي، فهو من القادمين من البصرة؟
ولأن أمر الحجر كان شيئاً جديداً، فقد قام عدد من المصلين
بصيحات متفاوتة، مطالبين بالحجر على خالد:
- لنحجر عليه، نخاف أن يأتي بالبلى علينا، هيا إلى منزل خالد،
يجب أن يخرج من هنا.

رفع أبو أحمد صوته:

- يا إخوان، اسمعوني، نحن قلنا نحجر عليه، لا مهاجمة بيته، ولا
يتم الأمر بهذا الشكل، واطمئنوا فخالد في بيته الآن حاجر على نفسه،
فهو مُتعب من السفر ولم يخرج من البيت، حتى أنه لم يأتِ إلى الصلاة
كما ترون.

فقال أحدهم:

- وماذا نفعل إذن؟

فاقتراح أبو أحمد:

- نرسل له الطبيب إلى منزله، على أن يكون قد أخذ الحيلة
والحذر من العدوى، هذا في حال كان خالد مصاباً بالمرض. وبعدها نرى
رأي الطبيب في الأمر، فإذا كان خالد مصاباً، فإننا نلزمه بيته في حال

عجزنا عن علاجه. ثم إننا سنبحث عن أي قادم من البصرة لننفذ عليه الأمر عينه.

وقف أحد الشباب المتحمسين ويدعى عيسى، قائلاً:

- أنا عندي رأي، لماذا لا نضع حرساً على طريق البصرة من جهة الكويت، ونمنع القادمين من البصرة من دخولها؟ وبهذا تبقى الكويت آمنة من الوباء، وأنا على استعداد مع بعض الشباب لنقوم بهذه المهمة منذ الليلة.

وجد رأيه قبولاً في أوساط المصلين، وبدأ الأمر مقبولاً عن أبي أحمد أيضاً، لكنه نظر إلى الأمر من كل الجوانب، ودرسه من اتجاهاته كافة، فقال:

- يجب علينا أولاً أن نضع أولي الأمر والوجهاء بعين الاعتبار عما جرى في البصرة، وبالتأكيد فإنهم سيقومون بمهمة الحفاظ على حماية الحدود مع البصرة كما اقترح عيسى.

- ولكن هذا لا يمنع أن يشارك الشباب في هذه المهمة، على أن يكونوا حذرين إزاء القادمين.

استدرك أبو أحمد:

- وكيف لنا أن نعرف أن القادم إلى الكويت مصاب بأعراض المرض؟ فربما كانت الأعراض في بدايتها، بحيث لا نستطيع الحكم عليه بالإصابة بالوباء، وربما كان نفسه لا يدري بأنه مصاب به. دعونا أولاً

نطمئن على خالد، ومن ثم نستفسر من القادمين من البصرة عن حقيقة هذا الأمر، فربما أن خالد قد بالغ في وصفه، لكننا اجتمعنا لكي نكون حذرين من الأخطر.

اتفق المجتمعون على هذا الرأي، وخرجوا من المسجد وليس لهم حديث إلا حديث المرض في البصرة، وبدأ كل منهم يحدث أهله وذويه عما يحصل هناك، وفضاعة الوباء إن ما وصل إلى الكويت، فحرصت الأمهات على عدم خروج أبنائهن من البيوت، وبدأ الجميع حذرًا ومحتاطًا للأيام القادمة.

ظل أبو أحمد في المسجد مع بعض وجهاء قومه، بينما أرسل ابنه أحمد إلى المنزل كي يبقى مع أمه هناك، وأرسل أحدهم ليطلب من الطبيب لقاءهم عند باب المسجد كي يتجهوا إلى بيت خالد للاطمئنان عليه.

وصل الطبيب إلى باب المسجد، ووجد بضعة رجال ينتظرون قدومه وآثار القلق بادية على وجوههم، فسلم عليهم، فبادره أبو أحمد قائلاً:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

- ما الأمر؟ عساه خيراً!

- نسأل الله أن يكون خيراً.

هكذا قال له أبو أحمد، ثم قص عليه حديث خالد القادم من البصرة، فقال له الطبيب:

- هذا الأمر بالغ الخطورة، ويجب أن يكون لولاة الأمر إجراءات وقائية إزاءه..

رد عليه أبوأحمد :

- لقد اقترحت ذلك، وقد وضعنا هذه المهمة على عاتقك في أن تبلغ المسؤولين عن هذا الأمر.

فقاطعه الطبيب بقلق :

- وأين هو الآن؟ المصاب.. أين هو؟

- إنه في بيته، وقد ارتأينا أن تقوم بفحصه، حتى يتسنى لنا التأكد إذا ما كان مصاباً أم لا .

ذهب الجميع إلى بيت خالد، وطرق أبوأحمد الباب عدة مرات، لكن خالد المنهك من السفر كان ملقى في سريره كالقتيل، وقام متثاقلاً بعد الطرقات القوية على بابه الخشبي، بينما الطبيب والوجهاء ينتظرون على باب البيت، وبعضهم ابتعدوا عن الباب بضعة أمتار ولفوا نصف وجوههم بالشماغ حذراً من العدوى.

نهض خالد من فراشه واتجه إلى القنديل وزاد من نوره، ثم حمله بيده وسار باتجاه الباب. ولما فتح الباب ورأى أن الطبيب ومعه عشرة أشخاص تقريباً يقفون بجانبه وخلفه، استهجن هذا الحضور، وخصوصاً أنه كان متوقعاً زيارة أبي أحمد وأبي سعد، فقال لهم:

- خير يا إخوان.. عسى ما شر؟

- كل الخير إن شاء الله.. جئت لأطمئن على صحتك، وأسمع منك حقيقة ما حدث في البصرة، وعن الأعراض التي شاهدتها (قال الطبيب وهو يتفحص وجه خالد).

- أهلاً بكم.. تفضلوا.

لكن أحداً لم يدخل سوى الطبيب:

- حدثني عن حقيقة المرض الذي يفتك بالبصرة بحسب روايتك لأبي أحمد، وهل تشعر بشيء من هذه الأعراض؟

- حصل بالفعل، وقد رأيت المصابين بعينيَّ هاتين، لكنني لا أشعر بأية أعراض، فأنا منهك من تعب السفر ليس إلا.

لكن الطبيب أصر على فحصه، وقياس درجة حرارته، فوجد حرارته مرتفعة، مما بث في نفسه ريبة من أن يكون هذا أول أعراض المرض، فأعطاه علاجاً لخفض حرارته، وأوصاه بكمادات الماء البارد، وحذره من الخروج من بيته، ثم وعده بأنه سيعود للاطمئنان عليه في الصباح الباكر.

كان أبو أحمد ينتظر الطبيب بجوار الباب، عساه يأتيه بخبر يهدئ من روعه ويسكن قلقه، وفور خروجه من الباب، بادره:

- طمَّناً أيها الطبيب، هل هو مصاب به؟

نظر الطبيب إلى خالد الواقف على الباب الموارب لتوديعهم،
وعلامات قلقٍ وانتظار ترسم ملامح وجهه، ثم قال لأبي أحمد:

- إنه بخير والله الحمد، لكنه متعب من السفر.

ثم ألتفت إلى خالد:

- كما أوصيتك يا خالد، كمادات الماء البارد، ولا تخرج من البيت
حتى آتيك في الصباح.

أجابه بأنه ممثّل لتعليماته، وأنه سيقوم بذلك فوراً.

وعندما ساروا مبتعدين عن منزله، استفهم أبوأحمد من الطبيب عن
حال خالد، فقال له:

- إنني أخشى أن يكون مصاباً، فحرارته مرتفعة، لكنها رغم ذلك
غير مقلقة، ولعلها أول الأعراض، وما علينا إلا أن ننتظر الصباح لأفحصه
مرة ثانية.

عاد كل منهم إلى بيته، لكن معظمهم ممن شعروا بالمسؤولية تجاه
تطويق هذا الوباء والحوول دون امتداده وانتشاره إلى الكويت، أبت
جنوبهم المضاجع، وظلوا سهرين قلقين مما قد يأتي به صباح اليوم
التالي، ويفكرون في طريقة للحفاظ على أرواحهم وأرواح أبنائهم من
التهلكة التي باتت وشيكة الحدوث.

قبيل أذان الفجر وصل المصلون إلى المسجد وعلى رأسهم أبوأحمد،
ليطمئنوا عن الوضع مرة أخرى، عسى أن يجدوا حلاً يفضي إلى النجاة،
ولعل أن عجلتهم هذه كانت رغبة منهم في طرح أفكارهم التي ساورتهم
طوال الليل، مع قناعتهم التامة ألا جديد طرأ على ما تركوه عليه. فبادر
أحدهم أبا أحمد مستفهماً:

- هل من جديد يا أبا أحمد؟

فأجابه وعلامات عدم الاطمئنان ترسم ملامح وجهه الحزين:

- يفعل الله ما يشاء، ولم نسمع أي جديد بعد.

ثم وقف وأقام صلاة الفجر، وهو يدعو في سره أن يزيح الله
تعالى هذه الغمة عن أهل البصرة ويبيدها عن أهل الكويت، وفي أثناء
الركعة الثانية، أصفى المصلون لخطوات متسارعة وهرج عالٍ يقترب من
المسجد، وما كاد الإمام ينهي صلاته ويسلم في نهايتها، حتى كان الشاب
عيسى على باب المسجد ينادي:

- يا قوم، أيها الناس، وصلني خبر من البصرة.

التفت المصلون خلفهم، وقاموا باتجاهه، وقام أبوأحمد نحوه
بخطوات مسرعة، فأمسك به من كتفه وقال له بقلق:

- ما الذي حصل يا عيسى؟ هل هي إشاعة؟ هل أهل البصرة بخير؟

غير أن إجابة عيسى جاءت صادمة للجميع وعلى رأسهم أبوأحمد،
حيث بصوت لاهث:

- لقد أمسكنا بأحدهم.. وهو قادم من البصرة.. وألقينا القبض
عليه قبل أن يستطيع.. دخول أحياء الكويت.
قاطعهم أحدهم:

- هل هو وحده؟ وهل هو مريض؟

- لا.. لا.. معه عائلته، وعددهم ستة أو سبعة، ولا تبدو أعراض
المرض عليهم، لكنه قال لنا بأنه فرّ من المرض. كما أن كلام خالد الذي
حدّث به أبا أحمد كله صحيح، حتى أن هذا الرجل يقول أن الأمر أشد
وأعظم، وأعداد المصابين في ازدياد كل يوم.

ضرب أبوأحمد راحة كفيه ببعضهما بعضاً، وأشاح بوجهه عن
عيسى:

- لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.. (وكررها عدة مرات). أين
هو؟ أحضروه إلى هنا كي نسمع منه.

فأجاب عيسى:

- تركته مع بعض الأشخاص الموفدين من ولاية الأمر الذين بدأوا
يشرفون على الوضع بأنفسهم، وجئت أنا لأخبركم بالأمر.. خشينا أن
يكون مصاباً فيدخل الكويت ويدخل البلاء معه.

فقال أبوأحمد:

- بدأت الأمور تأخذ المسار الجدي الآن..

سار أبوأحمد من باب المسجد باتجاه القادم الجديد، وسار معه وجهاء القوم وبعض الشباب، ومنهم ابنه أحمد، ليطلعوا على حقيقة الوضع هناك، فلما وصلوا وتحدثوا مع الرجل، كان أقسى ما ألقاه على سمع أبي أحمد قوله:

- إذا وصل إلى هنا فهاجروا.. هاجروا تتجوا بحياتكم.. وأنا سأخرج من هنا قاصداً الأحساء.

بدأ القوم المحيطون بالرجل يتكلمون فيما بينهم بأصوات خفيضة تحبسها الغصة والخوف، قائلين:

- نهاجر! أين سنهاجر؟ والبيوت، والأرزاق، وأين سنقيم؟

لم يكن لهذا من إجابات عند أبي أحمد في وقتها، لكنه أخذ كلام الرجل البصراوي على محمل الجد، بخاصة أنه هاجر مع عائلته هرباً من الموت، تاركاً بيته وعشيرته ومدينته التي نشأ فيها.

وما كادت الشمس تغيب عن الكويت في نهار ذلك اليوم إلا وكان العشرات قد وصلوا من البصرة إلى مضارب مدينة الكويت، حيث يتلقاهم عيسى ومن معه من شباب المدينة، حريصين على ضرورة عدم دخول أي واحد منهم إلى المدينة في حال بدت عليه أي أعراض للوباء.

وبدأ كلُّ منهم يسرد على عيسى ورفاقه أهوال المرض وحالات النزاع التي ترافق المصابين قبيل وفاتهم، وأن المدينة قد أصبحت شبيهة بمدينة الأشباح، ووشيقة من أن تكون مقبرة مسوّرة، حتّى أن إحداهنّ قالت لعيسى بصوت مبحوح يغص ببكائها:

- حتى أخي لم ينجو من الوباء، كنت قد رجوته بأن أبقى بجانبه للعناية بحالته الصحية المتردية، لكنه أصر على رحيلي مع أبنائي خارج البصرة.

لم يعد خبر الوباء الذي حل بالبصرة أمراً خفياً على أحد في الكويت، كما لم يبقَ مشكك في صحة ما ورد عن أخبار الضحايا يوماً هناك، فقد سرى خبر انتشار مرضٍ فاتك في أنحاء البصرة سريان النار في الهشيم، وضجّت أحياء المدينة بهذا الخبر، وبدأوا يحتاطون من مخالطة بعضهم بعضاً، وعكف الآباء على حبس أبنائهم وعدم إرسالهم إلى حلقات التعليم عند الملالي في الكتاتيب.

حتى أن الأسواق بدت خالية من التجار والباعة وكذلك من رواد السوق، حيث قام أصحاب المحال التجارية بإغلاق محالهم، والتزموا بيوتهم حرصاً على المحافظة على أرواحهم من التهلكة التي جاء بها وباء البحر، كما كان يردد بعض المتذمرين.

وفي البصرة، أدرك ممثلو شركة الهند الشرقية، المقيمون في مقر الوكالة في مدينة البصرة، خطورة الوباء المحدث بهم، إلا أنهم ارتأوا

البقاء في المدينة دون الخروج من مقرهم، على أمل أن ينتهي الوباء، بيد أن انتشاره إلى درجة كان يحصد فيها عشرات الأنفس في اليوم الواحد، قد ألجأهم إلى مغادرة المدينة، فعاد أغلبهم إلى بومباي.

لم يكن أبوأحمد مستعداً للرحيل، آملاً أن يجد الأطباء علاجاً لهذا المرض في البصرة، والأمر الذي لم يؤجج فكرة الهجرة في ذهنه، هو عدم وجود أية إصابة ظاهرة في الكويت، حسب ما كان ظاهراً ومشاهداً له ولوجهاء القوم.

لكن الطبيب الذي كان مشرفاً على حالة خالد الصحية، أصر في عصر ذلك اليوم على لقاء أبي أحمد، فبحث عنه في البيت لكنه لم يعثر عليه، فسأل أحمد عن مكانه، وأنه يريد في أمر ضروري، فأجابه:

- ذهب مع أبي سعد والإمام وأبي محمد إلى مشارف المدينة، كي يتفقدوا القادمين من البصرة.

أسرع الطبيب في خطواته سيراً إلى المكان الذي أشار إليه أحمد، والذي لا يبعد عنه كثيراً، وهو يتمتم بأنفاس متقطعة:

- إذا وقف الأمر عند خالد فالأمر هين.. هين.. هين.

ولما أقبل عليهم صاح على أبي أحمد من بعيد، فالتفت إليه وهو يقول:

- أيها الطبيب، لقد جئت في وقتك، نريدك أن تفحص هذه العائلة، أهو المرض، أو تعب السفر ومشقة الطريق.

- الأمر يتعلق بخالد يا أبا أحمد .

- خالد .. عساه خيرًا، هل طرأ جديد على حالته؟

هز الطبيب رأسه إلى الأسفل بالموافقة:

- مصاب به، وتركته في حالة يرثى لها، وأظنه لا يدرك يوم غد .

وكان هذا الخبر وقع كالصاعقة على أبي أحمد، فليس الأمر مقتصرًا على أن خالد شاب من أهل الحي فقط، بل إن المصيبة في أن هذه أول ظاهرة للمرض في المدينة، والتي تنذر بحلول الوباء في الكويت، فأجابه بنبرة حزينة مرتبكة:

- هل من سبيل لعلاج؟ أم أنه ..

- لم ينفع معه أي شيء مما صنعت له، حتى أن حرارته ترفض الانخفاض إلى المستوى الطبيعي أو حتى فوق الطبيعي، كما أنه يفقد الكثير من السوائل .

- إذن، لنعد لنرى خالد، ونرى ما سنفعله مع هذه المصيبة التي حلت بنا .

فأجابه الطبيب:

- اذهب أنت .. ولكن إياك والدخول عليه، وبإمكانك انتظاري بالقرب من داره حتى أصل، إذ سألقي نظرة على العائلات التي قدمت

من البصرة، وأخشى أن يكون بينهم مصابون بالمرض أيضاً، فنكون في مصيبة فنصبح في مصيبتين.

عاد أبو أحمد إلى الحي ووقف يراقب بيت خالد من بعيد، لكن مظاهر القلق بدت واضحة عليه لكل من يراه من المارة، وبينما هو واقف وإذا بأحد الصبية يقترب من بيت خالد ويطرق عليه الباب، وقد لمح أبو أحمد وعاءً مغطى بيد الصبي، فصاح عليه:

- أيها الولد، تعال إلى هنا.. تعال.

أقبل الصبي إليه مستفهماً عما يريده منه، فردَّ عليه:

- لماذا تطرق الباب على خالد؟ ماذا تريد منه؟

فأجاب ببراءة وقد كشف الغطاء عن الوعاء الذي معه:

- هذا طعام لخالد، سمعت بأنه مريض، ولذلك أحضرته له.

- خذ الطعام وارجع إلى بيتك حالاً. (بنبرة حادة).

فرد الصبي مستهجناً:

- وخالد!

فأجاب أبو أحمد بحدة:

- خالد مشغول الآن.. وأنا سأتولى أمر إطعامه.

امتلل الصبي لأمر أبي أحمد ورجع عائداً إلى بيته، وعيناه تنتظران إلى باب خالد، وكأنه يتحسر أن يعود بالطعام إلى بيته دون أن يعطيه له. بعد ساعة من الزمن وصل الطبيب إلى أبي أحمد، وقال له بصوت خائف وهو يرفع أربعة أصابع من يده عالياً:

- أربع إصابات يا أبا أحمد.. أربع إصابات.

لم يكن أبو أحمد متفاجئاً من قول الطبيب، فأجاب:

- يبدو أن الوباء قد حلَّ في الكويت.

- وما الحل برأيك؟

أطرق أبو أحمد رأسه متفكراً قليلاً، ثم قال:

- الحل أن ننقل خالد إلى خارج المدينة هذه الليلة، ونضعه مع باقي المصابين عسى أن يصلنا خبر عن علاج من البصرة.

فقال له الطبيب:

- وماذا سيجل بهم يا أبا أحمد؟

- أن ترمد عينٌ خير من أن تعمى عينان. قالها أبو أحمد والحسرة والتسليم بالقضاء والقدر يرسم ملامح الهزيمة على تجاعيد وجهه المسمر.

لم يكن أمام الطبيب حلٌّ إلا الامتثال لرأي أبي أحمد، فأشار عليه أن يتم نقل خالد بعد منتصف الليل، حيث الكل نيام، كي لا يشعر به أحد

أولاً، وكى لا يكون فى الطرىق أى أحد لربما انتقلت العدوى إله. فوافق
أبواحمد على ذلك قائلاً:

- إلى الللل ىخلق الله ما ىشاء، دعنا الآن نطمئن عن صحة خالد،
ادخل أنت علىه، ثم ارجع إلهى، فأنا بانتظارك، فلربما لم يكن مصاباً بما
نظن، ولربما كانت حرارته عارضاً لا أكثر.. والله أعلم.

بىنما كان الأمل لا ىزال ىتسرب إلى أبى أحمد، اتجه الطبىب إلى
بىت خالد ووقف أمام البىت وهو ىنظر تارة إلى أبى أحمد وتارة أخرى
إلى الباب الخشبى المغلق، ثم طرق علىه بقبضة ىده عدة مرات، لكن
أحداً لم ىفتح له الباب، فأشار إلى أبى أحمد بىده أن لا أحد ىفتح، فرد
علىه أبواحمد بإشارة أخرى أن تابع طرق الباب. فأعاد الطبىب طرق
الباب مراراً وتكراراً، ثم اتجه إلى النافذة الصغىرة وطرق علىها عدة
مرات، وصاح بنبرة مرتفعة:

- خالد.. یا خالد.. افتح الباب أنا الطبىب.

لكنه لم ىسمع أية حركة من داخل الغرفة الطىنية، فأشار بىده إلى
أبى أحمد الذى أقبل إلهه مستغرباً مما ىجرى، وقال له:

- أىمكن أن ىكون قد خرج من البىت؟

أجاب الطبىب:

- ربما.. وربما لا.. علينا أن نفتح الباب يا أبا أحمد .

اقترب أبوأحمد من الباب وبدأ يحاول فتحه، إلا أنه كان مغلقاً من الداخل بإحكام، لكن الطبيب أصر عليه بأن يتم فتح الباب للاطمئنان والحيطة، فوضع أبوأحمد كل ثقله على الباب ودفعه بقوة حتى انفتح على مصراعيه، وكانت المفاجأة أمامه، فخالد مستلق على فراشه دون حراك.

لما رأى أبوأحمد ذلك، غطى نصف وجهه بشماغه، وبقي خارج الباب منتظراً، بينما دخل الطبيب وهو يضع قطعة قماش على فمه وأنفه، واتجه نحو خالد في الزاوية اليسرى للغرفة، وأخرج مرآة من حقيبته ووضعها أمام فم خالد وأنفه، ليتأكد إذا ما كان يتنفس أم لا، غير أن الفحص كان سلبي النتيجة، ثم وضع يديه على باطن ساعد يد خالد فوق الكف مباشرة، ليقيس له نبض قلبه، ثم نظر إلى أبي أحمد الواقف على الباب، وهز إليه برأسه يمناً ويسرة.. فتمتم أبوأحمد:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. إنا لله وإنا إليه راجعون .

ثم أعطى ظهره للباب وسار مبتعداً قليلاً عن المنزل، والحيرة تنهش ذهنه، فالأمر لم يعد مجرد توقعات، أو احتمالات، بل أصبح حقيقة يجب التعايش معها وإيجاد الحلول المناسبة لضمان أقل الخسائر في أسوأ الأحوال.

سرى خبر موت خالد بسرعة في أنحاء المدينة، وبدأ الكثيرون بالحديث عن الرحيل في حال ثبت أن لا علاج اكتُشفَ بعدُ لهذا المرض المعدي، ولدى سؤالهم أبا أحمد عن هذا الشأن، قال لهم:

- لم يعثر الأطباء على علاج بعد، لكنني أوصيكم بأخذ الحيلة كي لا تصابوا أو يصاب أحد من ذويكم به، ولكم أن تختاروا ما يناسبكم.

ارتأى مع وجهاء قومه أن يتم دفن خالد مباشرة، وألا ينتظروا حتى شروق الشمس، لكن أحد الحاضرين اقترح عليهم:

- إن حملناه فربما ستصيبنا العدوى، فما الحل؟ بالنسبة لي فلن أشارك في التشييع أو الدفن.

وهمس آخر من هناك:

- وأنا لن أشارك أيضًا، هذا وباء.. وباء..

بدا أغلب الحاضرين خائفين من حمل خالد والتوجه به إلى المقبرة، حتى اتاهم رأي من الشاب أحمد الذي لم يغادر المسجد بعيد صلاة العشاء، وأصر على معرفة ما وصلت إليه الحال مع الوباء، فقال:

- إذا سمحتم لي بالحديث وبعد إذن والدي، فلدي رأي بهذا الخصوص.

ولأن الجميع يتلهفون إلى أي رأي ينقذهم أو ينتشلهم من مستتبع التفكير، فقد قالوا له بأصوات متفرقة:

- تفضل يا أحمد.. تفضل.

فقال:

- ندفنه في بيته.. وهكذا لن يتعرض أحد للعدوى.

أعجب الجميع بهذه الفكرة، وأثنى عليها الطبيب قائلاً:

- هذا هو الرأي السليم، كل من يموت يدفن في مكانه كي لا تنتقل العدوى من مكان إلى آخر.. أحسنت يا أحمد.

توجه بعض الرجال إلى غرفة خالد كي يحفروا القبر فيها، لكنهم وجدوا أن إمكانية الحفر في الغرفة مخاطرة عليهم، فقال أحدهم:

- هذا مستحيل، فالغرفة ملوثة بالبواء بكل تأكيد. دعونا نهدم الغرفة عليه.

لكن هذا الرأي جبه بالرفض من الجميع، فارتأى أحدهم أن يتم حفر القبر بجانب الغرفة مباشرة، ومن ثم يدخل أربعة إلى الغرفة، متحصنين من العدوى، فيحملونه إلى قبره الذي سيكون على مسافة أمتار فقط، وتم ذلك الأمر.

بعد هذه الحادثة، بدا الناس أكثر حذرًا من ذي قبل، وعلى الرغم من حذرهم فإن حالات كثيرة بدأت تظهر في الكويت، كان أشدها قسوة إصابة عيسى بالوباء، ذلك الشاب الذي أصر على أن يكون على رأس المستقبلين للوافدين من أهل البصرة، والإشراف على معالمتهم مع الطبيب. حيث قال وهو يحتضر للطبيب:

- أنا أموت، لكن ما يواسيني أنني أموت اليوم فداءً لأرواح الكثيرين من أهل الكويت.

لم يستطع الطبيب إمساك دموعه المنهمرة بغزارة على لحيته جراء رحيل عيسى، وظل يحدث الناس عن هذا الشاب الكويتي الشجاع الذي فدا أهل الكويت بروحه في سبيل حرصه على عدم دخول أي مصاب بالوباء إلى المدينة.

في أثناء هذه المرحلة هاجرت عدة عائلات من الكويت إلى الأحساء والمناطق المحيطة بها، بيد أن هذه الهجرات كانت تتم بشكل فردي غير منظم، فكل واحد منهم يبحث عن أحد المعارف في المدن القريبة من الكويت ليتجه إليه. لكن الهجرات لاحقاً أخذت شكلاً جماعياً منظمًا، حفاظًا على عدم نقل الإصابات إلى المناطق التي يودون الرحيل إليها.

وقد أشرف الوجهاء وولاة الأمر على تنظيم هذه الهجرات، والتي كانت أشبه بعملية الإخلاء.

شعر أبو أحمد بمجازفة البقاء في الكويت على ما فيها من هلاك منتظر يزداد اقترابه من الجميع يوماً بعد يوم، وبدأ يتجهز للرحيل عنها حفاظاً على روحه وزوجته وابنه أحمد، فلم يجدي صبره على الإقامة وأمله بزوال هذه الغمة وانزياح هذا الوباء أي نفع، إذ لم يكن من الحكمة أن يبقى في الكويت، حيث إن كثيراً من أهلها قد شدوا رحالهم بعيداً عنها وهجروها إلى البوادي الداخلية.

بعد أن كان أبو أحمد من المشرفين على عملية إخلاء المنازل والرحيل للراغبين بذلك، فقد عزم على الهجرة، وشد رحاله مع ركب المرتحلين من الكويت إلى الأحساء، وبدأ يجتر ذكرياته عن معارفه في الأحساء، حتى يحدد المنزل الذي سينزل عليه ضيفاً.

كانت هذه الهجرة نزوحاً إجبارياً له وللآلاف غيره من أهل المنطقة، بيد أن الظرف أجبرهم على اتخاذ هذه الخطوة، فتكاتف أهل الكويت للحؤول دون نقل الوباء معهم، فخرجوا في قوافل منضبطة، مع حرصهم على ألا يكون بين المسافرين في القافلة أي مصاب، كي لا ينقل العدوى إلى باقي المسافرين، فهم خرجوا هرباً من الموت، فما الفائدة من هذا الرحيل إن كان الوباء سيفتك بهم في الطريق.

وكما كان أهل الكويت يتجهون إلى الأحساء، فقد سبقهم أهل البصرة والزيبر بالهجرة إلى الأحساء أيضًا. ولما كثرت قوافل المهاجرين، خشي أهل الأحساء منها، فبدؤوا حذرين في التعامل مع الوافدين، إذ كانوا يتحذرون من انتقال العدوى إليهم، فأجمع كبارؤهم الرأي على أن يستضيفوا المهاجرين بحفاوة، بيد أنهم قرروا ضرورة التعامل مع من يحتمل إصابته بحذر، فمنعوا الاختلاط بهم في مضارب الأحساء، وأنابوا عنهم مجموعات من الشباب على أطراف المدينة لاستقبال النازحين ومساعدتهم، والتأكد من عدم إدخال أي مصاب إلى المدينة، وجعلوا معهم طبيباً يعاين المرضى، فإذا كان مرضاً غير معدٍ أدخلوه، وإذا كان داء الكوليرا ومحال علاجه نصبوا له خيمة على أطراف المدينة.

كانت المدن المعمورة في قلب البوادي أكثر حصانة ضد هذه الأوبئة والأمراض الدخيلة على المجتمعات في شبه الجزيرة العربية، حيث إن أغلب هذه الأمراض القاتلة تنتقل بوساطة العدوى، ولما كانت البوادي بعيدة عن الاختلاط بالأجانب والغرباء وما يمكن أن يحملوه معهم من بلادهم إلى الموانئ العربية، فقد كانت المناطق الداخلية في مأمن من هذه الأمراض، ولهذا أصبحت وجهة ومقصد الكثير من المهاجرين عن البصرة والزيبر والكويت إليها.

إن حرص المهاجرين إلى الأحساء على عدم اصطحاب أي مصاب بالكوليرا معهم في هذه الرحلة الشاقة، كان سبباً رئيساً في انحسار الوباء في بقع جغرافية محددة، وفي مدن وقرى لم يخرج منها.

ولعل أن عدم إمكانية معالجة هذا المرض في تلك الفترة، وتقاعس الدولة العثمانية المسيطرة آنذاك عن إيجاد الحلول السريعة للقضاء عليه، واتخاذ الإجراءات الوقائية للحد من انتشاره، قد كان سبباً في الترحم على كل من بدت عليه أعراض المرض. كما أن حذر ووعي أهل المناطق التي استقبلت المهاجرين قد حالت دون تفشي الوباء في مدنها وقراها.

نصب عدد كبير من الوافدين إلى الأحساء خيامهم على مشارف المدينة، وبخاصة أولئك الذين لم يكونوا على معرفة بأحد داخلها، ولأن أبا أحمد كان على معرفة ببعض وجهاء الأحساء وعلمائها، فقد دخل الأحساء عالماً وجهته، فحلّ ضيفاً على رجل من أكابر القوم، عرفه أبو أحمد في أثناء تجارته في الكويت والبصرة، فقد كان هذا التاجر كثير التردد على أسواقهما، ومن هناك توطدت العلاقة بينهما. وقد استضاف التاجر الأحسائيُّ أبا أحمد وعائلته، فأقاموا عنده على أمل أن تعود الكويت إلى سابق عهدها، وريثما يبذل الله العسر يسراً.

رغم أن أبا أحمد قد ابتعد بعائلته عن بؤرة الوباء في الكويت، إلا أنه كان يدرك أن إقامته في الأحساء لن تدوم طويلاً، وبخاصة أنه أتاها ضيفاً، ولم يكن يفكر بالاستقرار فيها، بل اعتبر أن الإقامة هي فترة مؤقتة، وقد أرسخ هذه الفكرة في ذهنه الخبر الذي تناقله الناس

أمامه في أحد المجالس، وكان الوباء حديث القوم في كل مجلس، حيث قال أحدهم:

- قريباً إن شاء الله سيزول الوباء، وأظن ذلك سيكون في الصيف.

فقاطعه أحدهم مستفهماً:

- لماذا في الصيف حصراً؟

فرد عليه:

- لأن حرارة الشمس المرتفعة في دول الخليج العربي تستطيع أن تقضي على هذا المرض.

استبشر بعضهم خيراً، على الرغم من أن كثيرين قد شككوا في صحة هذا الرأي، لكن قسمًا آخر تفاعل بذلك، وخصوصاً أن فصل الصيف قد اقترب، ولم يبق على حلوله إلا شهر تقريباً، فكانوا متعلقين بأية قشة أملٍ قد تسمح لهم بالعودة إلى أوطانهم مجدداً. مما جعل المقيمين في الأحساء ينتظرون في أماكن إقامتهم حتى حلول الصيف، دون أن يفكروا في الانتقال إلى غيرها للعيش فيها، أو مزاولة أعمالهم فيها.

ومنذ تلك اللحظة وأبو أحمد لا يفتأ يسأل كل قادم من الكويت عن الحال فيها، وعن واقع الوباء ومدى انتشاره، لكن الأخبار كانت تأتي

بالأسوأ يوماً بعد يوم. فباءت توقعات المهاجرين بالفشل بخصوص حرارة الصيف وقضائها على الوباء، فقد أتى الصيف وبدأت الأخبار تتواتر من البصرة والكويت والزيبر عن أعداد مخيفة من الوفيات، وصلت إلى فناء ألف نفس كل يوم، فبدل أن يكون الصيف عوناً في الخلاص من الوباء، كان سبباً في زيادة فتكه وسرعة انتشاره.

واستمر الوضع على هذه الحال إلى نهاية أيلول من العام نفسه، حين بدأت حرارة الشمس أقل حرقاً، فأنحسر الوباء، وبدأ الناس بالعودة إلى المدينة تدريجياً، لكن أبا أحمد قرر التريث بعض الوقت كي تتضح حقيقة انزياح الوباء بشكل تام، فلم يكن على استعداد للمخاطرة بحياته وحياة زوجته وابنه بهذه السرعة.

كما أن الوضع السياسي اللاحق لمرحلة الوباء لم يكن يشجع على العودة والاستقرار في الكويت القريبة من البصرة بؤرة الصراع السياسي آنذاك. وبخاصة بعد المناوشات العسكرية بين قوى المنطقة الثلاث: الفارسيون ومملكة المنتفق والدولة العثمانية.

فمملكة المنتفق تحاول أن تبسط سيطرتها على حكم البصرة وتطمح لاستقلالها عن الدولة العثمانية. والدولة الفارسية تحاول السيطرة على مدينة البصرة للاستفادة من هذا الميناء التجاري المهم المطل على

الخليج العربي، وقد استمرت الصراعات السياسية إلى عام ١٧٧٩، بعد
معركتي الفضليّة وأبي حلالنة التابعتين لمركز مدينة الناصرية القريبة من
شط العرب مصب نهري دجلة والفرات، حيث انتصر أمراء المنتفق على
الفارسيين ومنعواهم من تنفيذ مخططاتهم.

الفصل الثالث

الفصل الثالث

المُجْتَمَعُ الْجَدِيدُ «الزُّبَارَةُ»

لَمَّا أيقن أبوأحمد استحالة الرجوع إلى الكويت، خصوصاً بعد الظروف السياسية التي تمر بها مع المناطق المحيطة بها، أو تلك المقبلة عليها كما يتوقع أهل المنطقة، وأنه ليس من الحكمة أن يبقى ضيفاً في الأحساء أكثر من ذلك، بدأ التفكير جدياً في الاستقرار في بيت مستقل خاص به وبعائلته، وشاور ابنه أحمد بهذا:

-يا ولدي، هل يرضيك أن نبقى هكذا في الأحساء ضيوفاً، لا ندرى أكنا أثقلنا عليهم أم لا .

أحمد الذي لم يكن مسروراً لفكرة البقاء مقيداً في الأحساء، أجاب مباشرة:

- بالطبع لا يرضيني يا والدي.. ولو أردت رأيي فليس أمامنا إلا أن نبني بيتاً لنا ونستقر ونؤسس لنا حياة جديدة، سواء أكان في الأحساء، مع أنني لا أحبذ ذلك بحكم اعتيادنا على الموانئ التجارية، أو في أي مكان آخر قريب منها.. لكن أن نبقى معلقين ضيوفاً.. فلا وألف لا..

كان تفكير أحمد متوازياً مع تفكير أبيه، فكلاهما لم يعد يرغب البقاء ضيفاً. والذي شجع أبا أحمد على هذا التفكير هي قدرته المادية على البناء والاستقرار، وخصوصاً أنه كان رجلاً ثرياً، فضلاً عن تملكه لمهنة التجارة التي يمكن أن يستند إليها لاحقاً لتحصيل رزقه أينما حل.

لكن عقبة أساسية كانت تعترض قراره في مسألة اختيار مكان الإقامة، فبحسب مهنته التجارية التي تعتمد أساساً على اللؤلؤ، فإن الأحساء ليست سوقاً ملائماً لهذا النوع من التجارة. كما أنه بحاجة لأن يكون قريباً من الموانئ التي تصل إليها سفن الغوص، فضلاً عن السفن التجارية، فأبعد فكرة الاستقرار في الأحساء عن ذهنه، وبدأ يفكر في مكان آخر مشرف على البحر، ويصلح لأن يكون ميناءً نشطاً كالكويت أو البصرة.

شغل هذا الأمر تفكيره، بينما كان ابنه يبحث عن مكان ملائم لهما. وبينما كان الأب في طريقه إلى المسجد لأداء صلاة المغرب، لحق به أحمد كي يرافقه، وقال له:

- لقد وجدت مكاناً ملائماً لنا يا والدي.. ومن خلاله نستطيع متابعة تجارتنا هناك.

فقال له الأب بلهفة:

- أين ذلك؟ لكن لا تقل لي أن نعود إلى الكويت.

- لا لا.. ما رأيك في سواحل البحرين يا والدي، إنها قريبة من الأحساء، ومطلّة على البحر.. ومن خلالها نستطيع متابعة التجارة باللؤلؤ.. خيرًا لنا من تغيير مسار مهنتنا.

فكر الأب قليلاً، ويبدو أن الفكرة كانت قد خطرت على باله من قبل، فأجابه:

- أنا أؤيد فكرتك يا أحمد، لكن كما تعرف فإن الأمر ليس بهذه السهولة، فعلينا أولاً أن نسبر مجاهل الوضع التجاري في تلك المنطقة، فربما يستمر بنا المقام فيها طويلاً، ولهذا لابد من اختيار مناسب وموفق في البداية، وإلا فسيكون مصيرنا الانتقال مجدداً، والترحل الدائم. وكما تعلم فإننا لم نعهد تجارة نامية في تلك المنطقة، وإن كان لابد من ذلك، فسنحیی المنطقة لتكون عوضاً عن الموانئ المتضررة من الوباء.

أدرك أحمد أن والده على حق في ما يقول، فأطرق فكره باحثاً عن مخرج من هذا الأمر، وعن وسيلة تسهل لهم عملية البناء في تلك المنطقة.. لكنه لم يصل إلى شيء حتى دخلا المسجد لأداء الصلاة.

إن منطقة شواطئ البحرين آنذاك، وهي السواحل الممتدة على مساحة كبيرة من الخليج العربي، كانت غير مقسمة سيادياً بحسب العرف الحالي لتقسيم الدول، فقد كان بإمكان أي شخص يمتلك مقومات الاستقرار والقدرة على البناء أن يبني له قصرًا أو بيتًا حيثما ألقى عصا ترحاله، وفي أي الأماكن طاب هواه. لكن ذلك مشروط بالموافقة على توطنه من القبائل المسيطرة في المنطقة في تلك الفترة، فعملية السيادة

على المساحات الجغرافية كانت تخضع لمظاهر القوة والسيطرة. ولأن أبا أحمد كان صاحب وجهة في الكويت وجاراتها، وينتمي إلى قبيلة الخوالد التي كانت مهيمنة على مساحات كبيرة من الأرض آنذاك، فقد تهيأ له الأمر، ولم يكن من مانع قبلي يحول دون استقراره أينما شاء من مواطن قبيلته.

قضى أبو أحمد ليلته ومسألة الانتقال إلى الساحل للاستقرار هناك تشغل تفكيره، محاولاً الانتصاح ممن يعرفون تلك الأرض أكثر منه. وفي أثناء ذلك طرأ على باله صديقه المقرب خليفة، الذي ربطته به صداقة وطيدة منذ الفتوة، فقال في نفسه:

- ليس إله يستطيع أن يشير علي بما أفعل بهذا الشأن.

إن علاقة أبي أحمد بخليفة المعروف بأبي محمد علاقة قديمة متأصلة، تعود إلى الفترة التي كان فيها أبو محمد مقيماً في الكويت، والتي خرج منها مع الراحلين عن الكويت إبان الوباء. والذي قصد سواحل البحرين للإقامة فيها. بينما ظل أبو أحمد في الأحساء مع الأغلبية الكويتية آنذاك.

في الصباح قرر أبو أحمد زيارة صديقه في منزله، لي طرح عليه رأيه ويستشير منه عن إمكانية تنفيذ ما يخطر بباليه. فاستدعى أحمد وأخبره بما ينويه، وأوصاه بأن يبقى في الأحساء مع والدته طوال فترة سفره، ثم ركب راحلته وقصد منزل صديقه.

وفي عصر ذلك اليوم وصل أبو أحمد إلى غايته، فاستقبله أبو محمد
بحفاوة بالغة:

- أهلاً بالضيف العزيز أبو أحمد.. هذه هي الساعة المباركة التي
نراك فيها.

صافحه أبو أحمد وحضنا بعضهما وهما يتبادلان التحايا، ثم دخلا
إلى الديوان وجلسا فيه. فبادره خليفة قائلاً:

- طمّني عنك يا أبا أحمد.. كيف صحتك وكيف من تركتهم خلفك
في الأحساء.

- الحمد لله كل الحمد، بخير ونعمة بفضل الله.

ثم قال أبو محمد:

- أما من جديد في الكويت؟ سمعت أن الوباء بدأ بالانحسار عنها.

- في الحقيقة إن الأحوال أفضل، وقد بدأ بعض الناس بالرجوع
إلى منازلهم هناك.. لكن كما تعلم فحتى لو انتزح الوباء فإن الغارات
الفارسية على البصرة قد ازدادت هذه الأيام، وأخشى أن نعود إلى
الكويت ونضطر إلى الهجرة عنها مرة أخرى.

بينما أبو أحمد يسرد عليه واقع الحال، وأسباب التريث في الإقامة،
كان خليفة يستمع إليه بإصغاء وهو يهز رأسه متحسراً على الحال الذي
آلت إليه المنطقة، ومردفاً كل بضع كلمات:

- الله يفرجها علينا وعلى أمة محمد أجمعين.. الصبر وما لنا سواه.

ثم تابع قائلاً:

- سنتكلم في هذا الأمر بعد الغداء يا أبا أحمد، فأنت عزيز وغالٍ،
وعليك أن ترتاح من مشقة السفر.

- باركك الله وأبقاك، تذهب المشقة كلها في رؤيتكم.

أمر خليفة أبناءه بإحضار الطعام، وبعد الغداء، تابع أبو أحمد سرد
الأحداث التي مرت به في أثناء إقامته في الأحساء، وأنه بات قلقاً من
عدم عودة الحال كما كان من قبل.

فقال له صديقه:

- إذا كان الأمر على هذا النحو، فما رأيك أن تكون جاري هنا.

أصبح المجال مفتوحاً أمام أبي أحمد للحديث في ما جاء من أجله،
فقال له:

- لا أجد جيرة خيراً من جيرتكم.. لكن كما تعلم فأنا تاجر اعتاد
البحر منذ الصغر.. وتجارتي تقوم على اللؤلؤ، وبعض ما قد تأتي به
سفن النقل التجارية من الهند، ولهذا كنت أحبذ لو أنني أجد لي مقاماً
قريباً من الموانئ.

فالمكان الذي كان يقيم فيه خليفة لا يصلح أن يكون ميناءً تجاريًا بحسب خبرة أبي أحمد في هذا الشأن. فأطرق خليفة رأسه قليلاً، مفكراً في ذلك، ثم قال له:

- هل في بالك مكان معين تريد الإقامة فيه.

فأجاب:

- نعم.. قريباً من هذا المكان.. عند مرسى السفن المؤقت.

- لكنه ميناء شبه مهجور، وربما تتعثر تجارتك فيه.

فابتسم أبو أحمد:

- المهجور لا يبقى مهجوراً، سنعمره إن شاء الله، وحبذا لو تصبح أنت جاري هناك.

- دائماً تبهرني بأفكارك يا أبا أحمد، فإننا إن عمرناه سيكون بديلاً إجبارياً عن الموانئ في الكويت والبصرة، وفي ذلك خير كثير. توكل على الله.

- ونعم بالله، توكلنا.

انفجرت أسارير أبي أحمد لما رأى تشجيع صديقه له وتأييده لفكرته، ويبدو أن أبا محمد قد وجد في هذا الطرح فرصة ملائمة كي يكون جازاً لأبي أحمد فعلاً، فهو إلى تلك اللحظة لم يستقر في مكان معين، ورأى أن يذهب مع أبي أحمد لاختيار المكان ثم تجاورهما فيه.

عاد أبوأحمد إلى أهله في الأحساء، فاستقبله ابنه بلهفة وقلق:

- خيرًا يا والدي.. هل وصلت إلى نتيجة؟

- نعم إن شاء الله.. هيا بنا نتجهز للسفر.

فأجاب مستغربًا:

- السفر! بهذه السرعة.. ولكن كيف؟

- سنذهب إلى سواحل البحرين، حيث سنلتقي بأبي محمد خليفة،
وبصحبه سنبحث عن المكان الملائم لاستقرارنا هناك.

- على خير الله، إذن سنرحل غدًا صباحًا إن شاء الله.

- إن شاء الله.

في المساء ذهب أحمد بصحبة والده إلى التاجر صاحب البيت
الذي استضافهم كل هذه الفترة بحفاوة وكرم وأخلاق. وجلسا عنده في
الديوان، وشرح له أبوأحمد موضوع السفر، وأنه يعتذر إليه في ما إذا
بدر منه أي شيء طوال فترة الاستضافة، لكن الرجل قال:

- والله يا أبا أحمد لم أعهد أحدًا بأخلاقك وكرمك وطيبك وحسن
تربيتك لهذا الشبل الذي يجلس بجانبك. وإنه يعز عليّ أن ترحلوا عنا
وتتركونا، فقد أصبحتم جزءًا من عائلتي.

- باركك الله.. لكن الحياة تتطلب منا أن نسعى ونستقر ونكمل مسيرتنا.

في الصباح، ومع شروق الشمس، سار أبوأحمد مع زوجته وابنه قاصدين صديقه أبا محمد، الذي كان بانتظارهم في المكان المتفق عليه. وما هي إلا مسيرة ساعات حتى كانوا بين يديه، فاستقبلهم وأحسن ضيافتهم، بينما أودع أم أحمد عند نساء أحد معارفه هناك، وجلس أبوأحمد مع أبي محمد وباقي أقاربه.

وفي اليوم التالي، وبعد أن تمت الموافقة من أهل المنطقة، خرج برفقته بحثاً عن مكان ملائم يبنى أبوأحمد عليه قصره الذي سيستقر فيه. وبعد ساعات من البحث وقع الاختيار على ربوة مرتفعة من الأرض تسمى الزبارة، ليكون القصر الذي سيبنيه أبوأحمد مشرفاً على السهول من جهة وعلى البحر من الجهة المقابلة.

إن الأمر الذي شجع ابن رزق على اختيار هذه الربوة، فضلاً عن مكانها المتميز المطل على البحر، هو أن الزبارة كانت قرية معمورة يسكنها عدد من الناس البسطاء، كما أنها لم تخلو من بعض الأثرياء الذي استأثروا بخيرات البحر وشراء اللؤلؤ من سفن الغوص في تلك المنطقة. وخصوصاً أن سواحل الزبارة كانت مغاصاً ثميناً في ذلك الوقت، لكن إقامتهم فيها كانت للعمل وليس للاستقرار والتوطن.

فالزبارة آنذاك مأهولة ومعمورة نوعاً ما، بيد أنها تفتقر إلى التنظيم: السياسي والاجتماعي، والبنيتين: التحتية والثقافية، أو كما يقال تحتاج إلى كبير قوم يسد لهم أمرهم، ويعينهم على مشاق الحياة، ويسير بهم نحو الاستقرار والتحضر.

كان أحمد مسروراً بالإنجاز الذي بدأت ملامحه تظهر على أرض الواقع جليلة واضحة، وقد اعتمد عليه والده اعتماداً كاملاً في تدبير شؤون بناء القصر والإشراف على تصميمه أيضاً. وتولى مهمة تأمين كافة احتياجات العمال من مواد بناء وأخشاب وما إلى ذلك.

لما بدأ العمال بتشديد البناء المرتقي فوق ربوة الزبارة، صار أبوأحمد حديث القوم في تلك المنطقة، وخصوصاً بين سكان البيوت المتناثرة المحيطة بربوة القصر. فتفاءل الناس خيراً بالقادم الجديد إليهم، واستبشروا به عسى أن تتحسن أحوالهم على يديه، ويدي صديقه خليفة.

اقترب بعض البدو البسطاء من مكان بناء القصر، وكانت ملامح البناء تُظهر حجمه واتساع مساحته، تلك الواضحة من خلال القواعد المتينة التي أشادها البناؤون. فقال أحدهم بكل ثقة لآخر يقف بجانبه:

- أظن أن الوالي سينقل مقره إلى هذه المنطقة.

فأجابه الآخر متهكماً به، وبدا أكثر اطلاعاً وإدراكاً:

- وأين الحاشية العثمانية؟ يا صديقي الأمر ليس بهذه السهولة، فالعثمانيون لا يسيطرون سيطرتهم على هذه المنطقة أصلاً.

فرد عليه:

- لمن هو إذن؟ لنذهب لنسأل العمال هناك.

فاقتربا من موقع البناء، وسألا أحد العمال الذين ينقلون قوالب اللّبن الطينية، فقال أحدهما له:

- السلام عليكم، قواك الله.

- وعليكم السلام والرحمة، حياكم الله.

- نريد أن نستفسر عن صاحب هذا القصر، هل هو عثمانى؟!

ضحك العامل بصوت عالٍ رغم تعبهِ:

- لا لا.. إنه للتاجر الكويتي محمد ابن رزق، الملقب بأبواحمد، وذلك

الذي يمشي هناك يكون ابنه أحمد. (مشيراً بيده).

- هناك.. أين هناك؟ كلهم عمال!

أشار العامل بيده مجدداً:

- هناك.. هناك.. ذلك الذي يحمل بيده دلو الماء.

نظر الرجلان إلى بعضهما باستغراب، وكيف أن ابن تاجر ثري كابن

رزق، يعمل مع العمال ويحضر لهم الماء، ولا تستطيع عين الناظر تفريقه

عنهم. فأثرا السير إليه للسلام عليه:

- السلام عليكم يا أحمد.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، تفضلوا .. أهلاً بكم.

- وددنا السلام والتعرف عليك، فأهلاً بكم جاراً عزيزاً مكرماً.

وضع أحمد دلو الماء من يده، وغسل يديه، ثم دعاهما إلى ظل نخلة بجوار المكان، كان قد فرش بساطاً من تحتها، وأعد موقداً تتكئ على حجارته الصغيرة من حوله دلتان نحاسيتان تغليان بالقهوة. ثم جلسوا جميعاً يتبادلون الأحاديث عن أحوال البصرة والكويت، وما حل بهما.

لم يكن أبوأحمد يداوم على زيارة موقع البناء، فقد كان شغله الشاغل هو البحث عن وسيلة لتنشيط ميناء الزبارة، خصوصاً بعد حالة الركود التي أصابت الموانئ في البصرة والكويت. وإذا ما تم له هذا الأمر فإن ميناء الزبارة سيكون ميناءً مهماً يغطي احتياجات التجار والبحارة والمسافرين الذين أصبحوا يخشون دخول البصرة والكويت بسبب الوباء.

وفي كل ذلك يتشاور مع خليفة، ويطرح عليه أفكاره الجديدة بهذا الشأن، وهنا خطرت على بال أبي أحمد فكرة أراد أن يشارك صديقه بها، فقال له:

- هل تظن أن تعمير الزبارة لتصبح قرية سيسهم في إقبال البدو عليها؟

- لا بد من شيء يجذبهم إلى هذه المنطقة، فأغلبهم اعتاد حياة الرعي والبدواة، بل كل من يحيط بنا.

فكر أبوأحمد قليلاً، ثم نظر إليه:

- نجذبهم إلينا بحاجتهم إلى ما سنعمره، وما سنقدمه لهم.

- وكيف ذلك؟

- نبني مسجدًا كبيرًا، ونجعل بجانبه مكانًا واسعًا نخصصه للكتاب،
يتعلم الصبية فيه القراءة والكتابة والقرآن.

فأضاف أبو محمد:

- ونحضر آبارًا لمياه الشرب.

كانت أفكارهما متقاربة، ووجد كل منهما ضالة فكره عند الآخر،
فاتفقا على أن يتم بناء مسجد ومدرسة متجاورين، بالتزامن مع بناء
قصر ابن رزق.

فضلاً عن أن أبا أحمد لم يكن قلقاً من مسألة التجارة في تلك
المنطقة، فيحكم خبرته الواسعة في مجال اللؤلؤ، فهو متيقن أن أفضل
مغاصات اللؤلؤ على امتداد الخليج العربي تقع في الزبارة، لكن قلقه كان
متعلقاً بإمكانية تعمير هذه المنطقة سكانياً، وتحفيز التجار لنقل سفنهم
إلى ميناء الزبارة، ففي المغاصات لم يكن عدد الغواصين كافياً لازدهار
تجارة تلك المنطقة، كما كانت في جارتها البصرة والكويت.

ففكر في تميميتها، وتشجيع الغواصين الذين رحلوا من الكويت
والبصرة على العمل في سواحل منطقته. كما بدأ التفكير في جذب
أعين سكان شبه الجزيرة للتوطن في الزبارة.

إن الوسيلة التي استعملها محمد ابن رزق اعتمدت على الترغيب في العمل، فقد أرسل بعضاً من رجاله إلى الأحساء والمناطق المجاورة لها، وطلب منهم البحث عن الشبان الراغبين بالعمل في الغوص على اللؤلؤ، وخصوصاً أولئك ممن لهم خبرة في هذا المجال من قبل.

وبالفعل انطلق الرجال بحثاً عن هؤلاء، فعثروا على كثيرين منهم، الذين أبدوا رغبتهم وسرورهم بالانتقال إلى الزبارة للعمل فيها، وبخاصة أن الشخص الموكول بالأمر هو التاجر محمد ابن رزق الأسعد، الرجل الأمين الذكي، فلم يخشوا ولم يفكروا بالأمر، بل شدوا رحالهم مع عائلاتهم ولبوا النداء فور سماعهم إياه.

إن تفكيره في تعميرها لتكون أكبر مما هي عليه عندما وصلها، تطلب منه أن يساعد الوافدين إليها في حياتهم الجديدة، سواء أكان من حيث تأمين السكن لهم ولعائلاتهم، أم من حيث توفير العمل. ولهذا فقد أجزل العطاء للمحتاجين، وساعد كل من قصرت يداه عن بناء بيته. فبدأ أبوأحمد يأخذ مكانه في الزبارة رجلاً له مكانة مرموقة، وحظوة كبيرة بين الناس.

وما هي إلا أشهر معدودة، حتى بدأت مظاهر الحضارة تظهر على مجتمع الزبارة البدوي، وبدأ الناس يبنون بيوتهم في المنطقة التي اختارها ابن رزق مقراً، وحول القصر الذي أشاده ليكون سكناً له.

ساعدت الهجرة التي شهدتها الزبير والبصرة والكويت إلى الزبارة إثر الوباء، على سرعة نمو المدينة الجديدة، وزاد من وطأة هذه الهجرات

الأوضاع الأمنية المتوترة في البصرة والمناطق المحاذية لها، والمواجهات الحربية والصراعات السياسية التي شهدتها المنطقة آنذاك.

فرغم القلق الذي كان يساوره في ألا تتبوأ الزيارة المكانة الاقتصادية المرجوة منها، إلا أن الاضطرابات السياسية التي بدأت تعصف بالبصرة والمناطق المحيطة بها، ومن ثم سيطرة كريم خان الزندي على البصرة، وهرب كثير من التجار والعلماء والأدباء من البصرة إلى أماكن أكثر أماناً بعيدة عن بؤرة الصراعات السياسية. قد أبعد القلق عنه، بخاصة أن الملجأ الآمن لكل من هجر البصرة كان الزيارة.

ولأن أغلب التجار قد تركوا مواطنهم واستقروا في المناطق القريبة من الزيارة فقد بدأوا بالعودة إلى ممارسة نشاطهم التجاري في مينائها، وبخاصة أن بيئة الزيارة لا تختلف عن البيئة البحرية التي هاجروا منها، فكانت مكاناً مناسباً لنشاطهم وازدهاره مجدداً.

بل إن التجارة العامة بين شرق الجزيرة والهند قد تركزت فيها بعد أن كانت شبه محصورة في موانئ الكويت والبصرة، كما شهدت تجارة اللؤلؤ ازدهاراً ورواجاً لغنى سواحل المدينة الجديدة بها. حتى قيل:

- «خرب البصرة عمار الزيارة».

منذ نزل أبوأحمد في الزيارة، أدرك أن الفرصة مواتية له ليبني هذه القرية لتكون مدينة عظيمة تنافس كبرى المدن الساحلية في شبه الجزيرة العربية، ولأنه تحسب بأن تكون الزيارة مطمناً للغزاة بعيد

ازدهارها ونمائها، ناهيك عن خوفه من أطماع بعض القبائل المحيطة في الزبارة لاحتلالها والاستئثار بما بناه أبوأحمد وعمره، فقد عقد العزم على جعل هذه القرية محصنة في وجه كل من توسوس له نفسه بغزوها.

ظلت هذه الفكرة تسيطر على ذهنه لعدة أيام، وعقد النية على مشاورة أهل المنطقة الذين بدأت علاقات الود تتوطد معهم شيئاً فشيئاً بخاصة بعد ما رآوه من أعماله للنهوض بمنطقتهم لتكون حاضرة على أطراف البادية. فأرسل ابنه ليدعو وجهاء المنطقة المقيمين في الزبارة وفي المناطق المحاذية لها، والذي أبدوا رغبتهم من قبل في ترك البادية والانتقال للإقامة في الزبارة، وكان موعد الاجتماع للتشاور في المساء بعيد صلاة المغرب.

في المسجد، وبعد أن فرغ المصلون من صلاتهم، كان جميع من دعي للاجتماع قد لبى الدعوة وحضر، فوقف أبوأحمد فيهم قائلاً:

- السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته..

وكلهم متحملقون بنظرهم إلى أبي أحمد:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته..

بدأ أبوأحمد حديثه ممهداً لهم الأمر بتناول الأوضاع السياسية المضطربة التي تدور رحاها في البصرة والمناطق المحاذية لها، وكيف أن الغزاة لم يدخروا جهداً في سبيل السيطرة على كل ما تقع أنظارهم عليه، لاستغلاله وغزوه وتشريد أهله.

وأن الزيارة قد غدت وجهة للكثير من أبناء المناطق المضطربة، إذ وجدوا فيها ضالتهم، ثم قال بثقة:

- سيكون لهذه القرية شأن عظيم قريباً، وستكون مدينة ذات أهمية تجارية يضاهي ميناؤها كبرى الموانئ الممتدة على ساحل الخليج العربي. بدا الحضور مبتهجين متفائلين بهذا التصور المستقبلي الذي يرسم أبوأحمد ملامحه لهم، وبدأوا يقلدونه زمام الأمور ليكون كبيراً للقوم وراعياً لهم.

إذ إن الشعوب العاملة، أو الأفراد العاملة، يجدون راحتهم في الانهماك بالعمل وترك أخذ القرارات العامة التي تهم شؤون المنطقة التي يقيمون فيها، إلى أحد الأفراد المتفرغين لهذا الأمر، وكان يتم توكيل هذه المهمة إلى أحد الأثرياء في معظم الأحيان. وحيث إن أبا أحمد قد أبدى استعداداه للنهوض بالزيارة، والحفاظ على أهلها، فقد أولوه هذه المهمة ضمناً دون أن يصرحوا بذلك، لكنهم اعتادوا الأمر وبدأوا يرضخون له شيئاً فشيئاً.

لكن المجتمعين في المسجد ظلوا في حيرة حتى هذه اللحظة، فأبو أحمد لم يصرح بعد بسبب دعوتهم إلى الاجتماع، فقاطع صمتهم وحيرتهم قائلاً:

- وإنني قد طلبت منكم الحضور إلى هنا لمناقشة مسألة حماية حدود الزيارة من الغزاة، فما رأيكم؟

بدت فكرة الحماية مقبولة لديهم، واعتدل كثيرون منهم في جلستهم للاستماع إلى رأي أبي أحمد في ذلك، فقال أحدهم:

- فكرة عظيمة، لكن كيف سيكون تنفيذها؟

كانت إجابته حاضرة، فقد تدارس الأمر في الليالي السابقة مع نفسه ليصل إلى طريقة لتطبيق هذه الحماية، فقال:

- نحفر نفقاً حول البلدة من الجهتين الجنوبية والشرقية، ونصله بالبحر، فيكون لنا البحر حصناً يحمي من الهجمات المباغتة من جهة، ويكون لنا النفق فاصلاً من جهة البر كي لا يستطيع الغزاة عبوره إلينا، فيخسرون بذلك عنصر المفاجأة.

استحوذت الفكرة على اهتمامهم لكنها بدت غريبة وصعبة التنفيذ عند البعض، فبعضهم اكتفى بالصمت والنظر إلى الجالس بجواره، بينما هز أحدهم رأسهم موافقاً وعيناه تنظران إلى اللاشيء، وآخر أثر المناقشة فقال معترضاً:

- لكننا يا أبا أحمد قوم رعاة أغنام وإبل، وإذا ما تم حفر النفق فنحن أمام خيارين لا ثالث لهما، فإما أن نكون أمام النفق في الزبارة، أو خلف النفق في بر قطر.

فتقت هذه الفكرة ذهن أحدهم، فقال:

- نعم يا أبا أحمد، إن مرتكز رعيننا في بر قطر، ومراعي الزبارة لا تكفيها، وفي حال تم حفر النفق فلن يعود بإمكاننا ممارسة نشاطاتها ومهنتنا الرئيسية والتي هي مورد رزقنا.

أطرق أبو أحمد رأسه قليلاً، ثم أجاب:

- معكم حق، فهذا لا يجوز، ولن نأتي على فعل أمرٍ يقطع أرزاقكم أو يبعد أنعامكم عن مراعيها.

لم يكن لهدم فكرة النفق التي اقترحها أبو أحمد أثر سلبي على عزيمته وحرصه على حماية الزبارة من الغزاة المحتملين مستقبلاً، بل جعلته يفكر أكثر من ذي قبل للبحث عن مخرج لهذا الأمر بما أن الأمر قد صار مطروحاً، والمدعوون للتشاور حاضرون، وهم أصحاب رأي مهم في قومهم، فلمعت في ذهنه فكرة جديدة، فقال:

- لن نحفر النفق، لكن لدي فكرة أفضل من ذلك.

باشره أحد المتحمسين لفكرة الحماية منذ بداية طرحها:

- هاتها.. ما هي؟

وبثقة:

- سنبنى سوراً، نضربه حول المدينة من جهة البر، بينما لا يضير أن يبقى البحر مفتوحاً، فهو بطبيعته حصن منيع ومكان مكشوف نستطيع من خلاله مراقبة السفن القادمة.

قاطعه صاحب الرأي المعارض لفكرة حفر النفق:

- ما الفائدة إذا كنا سنضرب سوراً يفصل بيننا وبين بر قطر،
والمراعي يا أبا أحمد! ماذا بشأنها؟

- من قال بأننا سنبنّي سوراً مغلقاً من جميع الاتجاهات! بل إننا
سنجعل لهذا السور بوابة رئيسية للقادمين والمغادرين، فضلاً عن أننا
سنفتح بوابة خاصة للرعاة كي يخرجوا منها أغنامهم وإبلهم كل يوم إلى
مرعى بر قطر، ومن ثم ستغلق هذه البوابات حتى عودتهم من مراعيهم.
كانت الفكرة مذهلة للحاضرين، ووجدت في نفوسهم صدًى طيباً،
فكل منهم يتمنى أن يعيش داخل مدينة مسورة آمنة، من دون أن يكون
مقيداً بالرضوخ للمدينة، أو ترك مهنة الرعي.

إن التفكير المنطقي بطبيعة الواقع السياسي والاقتصادي، ثم التكهّن
بالأحداث المستقبلية بناءً على معطيات الواقع، يساهم في بناء المجتمعات
الواعية المحتاطة للأخطار المحتملة، ويشجع الأفراد أو الجماعات المقيمة
خارج حدود هذه المدينة إلى الانضواء تحت لوائها للحصول على الحماية
المرجوة منها، ويكون هذا العامل أول عوامل ازدهار المنطقة سكانياً، ومن
ثم توطيد المبدأ السياسي القائم على الشورى برئاسة كبير القوم، وصولاً
إلى الازدهار الاقتصادي الذي ينهض بالأمن الذي تتمتع به المنطقة،
وينهار بالتوتر الذي يمكن أن يزلزلها مستقبلاً.

أحضر أبوأحمد عمال البناء وأمرهم ببناء سور يحيط بالمناطق المعمورة من الزبارة من جهة البر، فجعله على شكل هلال، وأشاد عليه اثني عشر برجاً للمراقبة والحراسة. وفي نيته أن يوكل مهمة الحراسة إلى بعض الشباب، كما قام بتعيين بعضهم الآخر للإشراف على أبواب السور، كي يتولوا مهمة فتح الأبواب وإغلاقها والإشراف على الداخلين إلى الزبارة والخارجين منها.

كان أبوأحمد يرمي من وراء هذا السور إلى هدفين اثنين، وكلاهما تمثل في فرض الأمن وتأمين الحماية لسكان الزبارة، فالهدف الأول، هو الحفاظ على المدينة من الأوبئة المتوقعة، والتي ألجأ أحدها إلى ترك الكويت والإقامة في الزبارة، فقد تعلم درساً مهماً في أسلوب مكافحة انتشار الأوبئة. والهدف الثاني تمثل في إحلال الأمن داخل السور، الأمر الذي سيساهم في زيادة سرعة عجلة التنمية فيها، وزيادة عدد التجار القادمين لممارسة أنشطتهم التجارية مجدداً.

أسبغ السور الهلالي طابع المدينة المحصنة على هذه القرية، الأمر الذي بدأ يلفت الأنظار إليها من الأماكن المحيطة بها، وبخاصة فئتي البداء والمهاجرين من الكويت والبصرة والزيبر، حتى من بعض سكان المنطقة الذين أنفوا حياة البداوة وارتأوا الاستقرار.

وبالتوازي مع بناء السور، كان بُناة القصر على وشك الانتهاء من تجهيزاته الكمالية، إذ بدأ يأخذ شكله النهائي، شامخاً على مرتفع من الأرض ومطللاً على البحر والبيوت التي بدأت تنتشر رويداً رويداً من

حواله . وكان أبوأحمد يجد متعته في الجلوس فوق سطح البيت مساءً
قبيل غياب الشمس، رامقاً بعينه السوداوين الأفق البحري والشمس
تغيب فيه بهدوء وسكينة.

ولما حان موعد صلاة المغرب من ذلك اليوم، أثر أبوأحمد أن يقيم
صلاته من مكانه من على سطح المنزل، فنادى على ولده أحمد الذي
كان مشغولاً في الأسفل مع باقي العمال بإدخال أدوات البناء إلى إحدى
الغرف الأرضية من القصر.

- أحمد .. تعالوا يا ولدي .. لنصلي المغرب في جماعة.

- حالاً يا أبي.

غسل أحمد يديه، ثم صعد مع باقي العمال إلى السطح، بينما هرول
آخران للوضوء كي يلحقا بهم للصلاة جماعة. وبعد الصلاة، نزل العمال
ليعود كل منهم إلى منزله بعد يوم شاق من العمل. بينما ظل أحمد جالساً
مع أبيه ينظران إلى الشفق الأحمر الذي اكتحل به أفق البحر.

لما هبط الظلام، وبدأت القناديل تزين المنازل حول القصر، نزلا
وسارا باتجاه البيت الذي يقيمان فيه مؤقتاً ريثما ينتقلان إلى القصر
الجديد، فكانت أم أحمد بانتظارهما كعادتها كل يوم، وقد أعدت لهما
طعام العشاء مسبقاً.

وبعد تناولهم الطعام، أسند أبوأحمد ظهره إلى جدار الغرفة الطينية
المطلية بالجص الأبيض، بينما بدأ أحمد بحمل أواني الطعام مع والدته

إلى المطبخ المجاور للغرفة. وأحضر إبريق الشاي معه، ووضع أمام والده وسكب لكل منهما كأساً منه.. وكأساً لوالدته ريثما تكون قد انتهت من غسل الأواني ووضعها في مكانها المخصص لها.

نادى أبو أحمد على زوجته:

- أم أحمد.. يا أم أحمد.

أطلت أم أحمد برأسها من المطبخ وهي تمسح كفيها المبتلين بالماء بطرف ثوبها:

- نعم يا أبا أحمد.

- تعالي واجلسي معنا.. ستكملين عمك لاحقاً.

امتثلت الزوجة لرغبة زوجها، وجلست بالقرب منه على يمينه، بينما كان أحمد يجلس مقابلهما، وقد وضع مسنداً يتكىء عليه في أثناء جلوسه. فقال الأب:

- أحمد يا ولدي، لقد كبرت وأصبحت شاباً قويّ البنية، راجع العقل.. ولم يقسم الله لي بأخ لك يعينك على مشاق الحياة وشظفها.

- أنت والدي وأخي وصديقي. (بابتسامة لطيفة).

نظر الأب إلى زوجته مبتسماً وهو يلمز بعينه إلى أحمد:

- نريد أن نفرح به يا أم أحمد.

ابتسمت أم أحمد وانحنت قليلاً نحو أحمد المقابل لها، فمدت يدها
الحنونة وضغطت بها على يده، وبنبرة مهموسة تعلو ابتسامتها:

- اترك الموضوع عندي.. لا تشغل بالك.

أحمد الذي لم يكن يتوقع هذه المبادرة من والديه، نظر إلى أمه،
وبابتسامة:

- لست مستعجلاً، إلا إذا كنتم مصرّين على ذلك.

ضحك الأب، رغم علامات التعب التي بدت على وجهه:

- نعم نعم.. مصرّون على ذلك.. نريد أن نرى أحفادنا.

بدأ أبو أحمد يتحدث مع زوجته بهمسٍ عن ترتيبات هذه الخطوة،
ثم أسند رأسه إلى الحائط قليلاً، وكأنّ النعاس بدأ يتسرب إليه شيئاً
فشيئاً، فعاجلته زوجته:

- صلاة العشاء يا أبا أحمد، ثم نم كما تشاء.

ابتسم أبو أحمد، وربت على كتفها بحنو ورفق، وقال:

- اتكلنا على الله... يا رب.

ثم مد يده إلى أحمد الذي كان يجلس قبالة، فقام أحمد، وأمسك
بيد والده وأعانه على القيام من مكانه. لم يكن هذا عجزاً من أبي أحمد

عن القيام وحده، لكنه كان قد اعتاد على أن يقوم بهذا الأمر مع ولده، حتى يغرس فيه حب مساعدة الآخرين، ويعزز في نفسه الثقة بالقدرة على المساعدة، حتى وإن كانت لوالده.

نهض أبوأحمد وسار مع ولده إلى المسجد، وفي طريقهما، قال له أحمد:

- لقد أوشك البنّاؤون على الانتهاء من عملهم يا والدي، هي مسألة أيام فقط ونستطيع حينها الإقامة فيه.

- خيرًا إن شاء الله، ذلك بفضل توفيق الله، ثم متابعتك للعمال كل يوم.

فأردف أحمد قائلاً:

- وغداً سأكون هناك من مطلع الفجر، كي أساعدهم في تركيب الأبواب والنوافذ.

نظر إليه والده بطرف عينية، وقال مداعباً له:

- تبدو متحمساً للإقامة فيه، أظن ذلك استعجالاً لتتزوج بأقرب فرصة.

ثم ضحك الأب وهو يضع يده على كتف ابنه، وأحمد يضحك قائلاً:

- غايتي أن تقيم فيه يا والدي وتكون مرتاحاً أكثر من البيت الذي نستكره الآن.

ما كانت إلا أيام حتى بدأ أحمد بنقل الأثاث إلى المنزل الجديد، إذ جلب إليه أفخر أنواع الفرش والسجاد، كما حرص على أن يكون شكل القصر جمالياً قريباً من شكل بيتهم في الكويت، فأوصى التجار الهنود بإحضار النوافذ النحاسية من الهند، كما أوصاهم بإحضار الأخشاب الحمراء الصلبة لتفصيلها أبواباً للقصر.

كان قصر أبي أحمد متفرداً بحجمه، واتساعه، وارتفاعه عن باقي البيوت في الزبارة، فضم الدور الأرضي منه مجلساً كبيراً أعده خصيصاً لاستضافة الوافدين عليه، سواءً أكانوا من عامة الناس، أم تجاراً وعلماء وأدباء. وقد أوكل مهمة العناية بالمجلس وإعداد القهوة وتقديمها للضيوف إلى أحد الخدم عنده، ممن كانوا يقومون على خدمته في الكويت. بينما كان الدور الأول مخصصاً له ولزوجته، والدور الثاني مخصصاً لابنه أحمد.

إن الاستقرار الواضح الذي بدأ يأخذ ملامحه على طبيعة حياته لم يُنسه الكويت وبيته ومحلّه التجاري فيها. ودائماً ما تعصف بذاكرته أركان بيته ووجوه صحبه، ونسمات البحر مع الفجر، وهو يصبر نفسه ويواسيها، ويؤنسها بالعودة القريبة.

عزم أبو أحمد الرأي على أن يطمئن على أملاكه في الكويت، فدعا ابنه وقال له:

- كما تعلم فقد زال الوباء بفضل الله يا ولدي.. وصار لا بد لنا من زيارة بيتنا والاطمئنان عليه.

لم يكن هذا الأمر محل استغراب أو استهجان من أحمد، حيث إن صورة بيتهم لم تغادر ذاكرته منذ وضع قدمه على أرض الزبارة، فبادر أباه قائلاً:

- أنا جاهز للسفر متى ما شئت لي ذلك، حتى لو كان الآن.

في الحقيقة لم يكن في نية أبي أحمد أن يرسل ولده في هذه المهمة، بل أثرها لنفسه كي يطمئن ويعيش بعض أيام من الماضي الجميل في الكويت، فضلاً عن قلقه من مخاطر الطريق على ولده.

لكن هذا القلق والحرص لم يُجد نفعاً مع أحمد الذي أبدى إصراره على الذهاب، تدفعه إلى ذلك الأسباب ذاتها التي دفعت والده من قبله، فضلاً عن أنه تسلح بعذر جعل كفته ترجح على كفة والده، حيث قال له:

- دعني أذهب أنا إلى الكويت، فسوف آخذ معي العمال من هنا، لأحضر بعض الحاجيات من بيتنا القديم، كي نستعملها في زينة منزلنا الجديد، وكما تعلم فإننا قد تركنا البيت كما هو، ولم نحمل منه غداة رحيلنا إلا متاعنا الخفيف.

بدت الفكرة مقبولة من أبيه، فhez رأسه بالموافقة على ذلك، لكن قلقاً كان يرسم ملامحه على وجهه، فقاطعه ابنه:

- يا والدي، إن كنت تخشى من الطريق ومخاطره، فإنني والرجال معي قادرون على تجاوز هذه المخاطر بإذن الله، كما أن المعارك لم تصل بعد إلى الكويت، وما زالت في أطراف البصرة، ولا شيء يدعو للقلق.

وافق أبو أحمد على مضض، وقال له:

- على بركة الله، اختر من تشاء معك من الرجال، ثم اذهب في مهمتك هذه، وكن حذرًا يا ولدي.

في صباح اليوم التالي، حزم أحمد أمتعته، وسار برفقة بعض الرجال قاصدًا الكويت، وكان والده قد أوصاه على بعض الحاجيات ليحضرها معه أيضًا، كما أرسل معه نوحدة يقود السفينة التي تعود ملكيتها لأبي أحمد، ويعود بها محملة بالحاجيات من الكويت إلى الزبارة.

وصل أحمد الكويت مع غروب الشمس، فصلّى على أطراف المدينة، ثم دخلها راجلاً مع صحبه. كانت المدينة شبه خالية، قياسًا إلى الروح التي كانت تضج بها الأحياء والأسواق من قبل. فبدأ يسير في حوارها مستذكرًا ملاعب الطفولة، متأملًا جدارياتها التي نقشتها الرياح الرملية الجافة، مسلّمًا على كل من يصادفه في طريقه إلى بيته.

بدت البيوت المضاءة بالقناديل تبرز وتتضح معالمها أكثر من تلك المغموسة في الظلام، وكأن المدينة سماء ذات نجوم مكسوفة، تطل على الأرض باستحياء وخجل.

رفع أحمد بصره ونظر مطولاً إلى واجهة بيتهم الذي بدا كئيّبا، فاقترب من بابه وصافح مقبضه هامسًا له:

- أطلنا الغياب يا صاحبي.

ثم دخل البيت وبدأ بإضاءة القناديل المنتشرة في أرجائه، ثم صعد إلى السطح وأضاء القناديل الثمانية التي تزين زوايا سطح البيت. ووقف ينظر إلى الكويت متأملاً، مخمناً المقيمين فيها من المهاجرين عنها، ترشده إلى ذلك النوافذ الزجاجية ذات الأشعة الصفراء المبهجة، من الأخرى الشاحبة.

وعلى الشاطئ، لم تعد الأضواء المنتشرة تتسم بالسطوع ذاته حين كان يشاهدها من المكان نفسه قبل سنوات، فأغلب السفن التجارية حولت مسارها من ميناء الكويت إلى الموانئ الأخرى على الخليج العربي، وبخاصة إلى الزبارة، والتي بدأ والده هناك يشيد أركانها على قدم وساق.

ما إن أنار بيت أبي أحمد حتى هرع سكان الحي إلى مكان البيت وهم يحدثون بعضهم عن عودة أبي أحمد إلى الكويت، حتى إن أحدهم لفرط فرحته برؤية أضواء بيت أبي أحمد، غادر البيت وهو يوصي ابنه وزوجته:

- جهزوا العشاء فسأعود ومعي ضيف عزيز علي.

نزل أحمد من على سطح منزله ودخل ديوانية والده، وهو ينفذ الغبار عن أثاثها، ويعيد ترتيب ما يمكن ترتيبه، بينما بدأ المرحبون بمقدمه يصلون إلى باب المنزل وينادون على أبي أحمد.

أطل أحمد من الباب مرحباً بهم، ومسلماً عليهم، ودعاهم إلى الدخول رغم عدم رتابة المكان، فلم يتوانى أحد منهم عن الاستضافة، وبادروه بالسؤال عن أبيه:

- أين الشيخ أبوأحمد، نريد السلام عليه، فكلنا شوق لرؤيته.

طمأنهم أحمد أن والده بخير ويعيش بسلام في الزيارة، حيث بنى لنفسه منزلاً فيها، بخاصة بعد أن نضبت معين التجارة في الكويت، وقل متعاملوها، بينما بدأت تنشط وتزدهر في ميناء الزيارة.

إن التاجر الماهر لا يستطيع الإقامة بعيداً عن السوق النشط، وينفر من الأسواق الموات، فلا يجد راحته وسلوانه إلا في ضجة السوق وهرج المتسوقين، ولهذا كان دافع أبوأحمد لا إرادياً في الإقامة في منزله الجديد، تشده الحياة الجديدة، ويحدوه الأمل لإعمار المدينة الجديدة، ليترك بصمة في تاريخ شبه الجزيرة العربية ستخلده الأجيال في ما بعد .

بدأ بعض الشبان الحاضرين يستفسرون من أحمد عن طبيعة الحياة الجديدة هناك، وكأن نفوسهم تساورهم للانتقال إلى جوار أبي أحمد، بينما نأى بعضهم الآخر عن فكرة الرحيل، خصوصاً أولئك الذي يمتنون التجارة المحلية البسيطة، والتي تكفيهم مشاق السفر ومغامرة التجارة.

قاطع أحمد أحاديثهم الجانبية:

- بعد فترة وجيزة أتمنى منكم زيارة الزيارة، كي تروها كيف ستكون مدينة عظيمة كالكويت.

أجاب أحدهم بثقة:

- أبوأحمد كفؤ لهذا العمل.. ونشهد له بذلك، فإن أراد أن يعمرها فسيعمرها.

تابع أحمد:

- وقد بدأ العمال ببناء السور حولها، لحمايتها مستقبلاً.

- هذا هو الحرص، وهذه هي الحكمة، لله درك يا أبا أحمد. (قالها أحد أصدقاء أبي أحمد).

إن شعورهم بالشوق لرؤية أبي أحمد في الزيارة، تمازج مع حسرتهم على خسارة الكويت أحد أهم وأبرز أركانها، وخالط ذلك غبطة للأرض التي حل بها أبوأحمد سيّداً وكبير قوم.

في صباح اليوم التالي، أثر أحمد أن ينجز المهمة التي أتى من أجلها في أسرع وقت ممكن، كي يعود إلى والده في الزيارة ليساعده في أعماله هناك، سواء أكانت في التجارة أم في متابعة أعمال البناء التي تتم على أكثر من صعيد، في بناء المسجد وملحقه التعليمي، وفي الانتهاء

من أمور الانتقال إلى المسكن الجديد، وفي متابعة عمال السور وتأمين احتياجاتهم الكثيرة.

جزء من المهمة قد تم من خلال اطمئنان أحمد على بيتهم القديم، بيد أنه استيقظ في الصباح متابعاً لها، قاصداً السوق، وفي يده مفتاح المحل التجاري المغلق منذ سنوات، وهو يجتر ذكرياته أيام كان يسير مع والده إلى المحل صبيحة كل يوم.

كان الناس يحيونه كلما مروا بجانبه، إذ كان نسخة مطابقة لأبيه محمد في الشكل والهيئة، وفي الوقار والثبات في مشيته، وأحمد يرد عليهم التحية ويقف للسلام عليهم كل مرة، حتى وصل إلى المحل وفتح بابه، ودخله وهو يستشوق عبق الذكريات وشذا الماضي.

إن الحنين الذي اشتعل في قلبه في أثناء جلوسه خلف الطاولة الخشبية ذات الغطاء الأسود المغبر، حفز فيه الرغبة على البقاء في الكويت في لحظة من لحظات تفكيره.

الإنسان متعلق بمسقط رأسه لدرجة لا يمكن الانفصال عنها مهما باعدت بينه وبين الأرض التي ولد عليها السنوات وطوت بينهما الأرض. ولم يكن من المستغرب أن يراوده هذا الشعور بالاتصال الروحي بالأرض التي ولد عليها، وبالمكان الذي نشأ فيه، وبالسوق الذي تعلم فيه أصول التجارة مع والده.

أشار أحمد بيده إلى أحد الحمالين المنتشرين بالسوق، وهؤلاء الحمالون غير مستقرين في عمل ثابت لهم، بل يعتمدون في دخلهم على الأعمال المؤقتة العاجلة، كأن يحمل بضاعة من محل إلى آخر في السوق، أو أن يقوم بمساعدة أحد التجار على تحميل أو تنزيل بضاعته، أو أن يقوم بترتيب أو تنظيف المحال في حال احتاج صاحب العمل إلى ذلك، وكل هذا بأجر يتفق عليه كلاهما.

أسرع الحمال القدوم إليه ليرى المهمة التي سيكلفه بها، والذي أدخله معه إلى المحل:

- أريد تنظيف المحل من الغبار الذي لحق به، وتنظيف الأرضية أيضاً، وإذا كان ممكناً أن ننقل الأغراض إلى خارج المحل ثم نعيدها بعد التنظيف.

- حاضر سأبدأ مباشرة.

خرج أحمد من باب المحل كي يتيح للعامل القيام بمهمته، وقصد محل جارهم أبي فيصل، الذي كان قد بدأ يفتح قفل الباب:

- السلام عليكم عمي أبوفیصل.

ترك أبوفیصل القفل من يده ونظر بدهشة:

- أحمد!! نورت الكويت يا أبا محمد. (وعانقه بفرح كبير).

لا يدرك الإنسان حقيقة قيمته بين قومه وهو بينهم، بل يتجلى ذلك في أبهى صورهِ في اللقاء بعد الغياب الطويل، وهذا ما شعر به أحمد لدى توافد الناس للسلام عليه والاطمئنان على والده.

حاول أن يدعو أبا فيصل للجلوس لشرب الشاي سوياً، لكنه رفض ذلك وأصر على أن يجلس مع أحمد في محله. ثم نادى على أحد عماله ليجهز لهم الشاي، وبدأ بإخراج الطاولة وكرسييها من المحل، ولسانه مازال يلهج ترحيباً بضيفه أحمد.

شعر بالغبطة لهذا الترحيب، وخصوصاً بعد أن بدأ بعض التجار يحضرون فور رؤيتهم له جالساً مع أبي فيصل.

وما كاد العامل ينتهي من إعداد الشاي لهما، إلا وكانت الجلسة قد ضمت خمسة تجار آخرين اقتربوا للسلام والاستفسار عن الأخبار في الزبارة، والشكوى من الأوضاع الاقتصادية غير المستقرة في سوق الكويت، تمتزج مع كل حرف تلفظه ألسنتهم.

شعر أحمد بحالهم المأساوية، وبخاصة أنه كان معاصراً لأيام الرخاء والازدهار قبل الوباء، فكان مشهد السوق الكئيب يصيبه بالأسى، ويبعث في نفسه شيئاً من الحسرة على ما كان وما آلت إليه الأمور، وحاول أن يخفف العناء عن التجار الحزاني:

- لماذا لا تأتون لممارسة التجارة في الزبارة، فعندما أعود إن شاء الله سأقترح على والدي إنشاء سوق يشابه سوق الكويت، وسنبداً بتنفيذه مباشرة.. فما رأيكم؟

كانت فكرة مغادرة الكويت صعبة على البعض، حيث إنهم اعتادوا العيش فيها، ولا يجدون في السفر والترحال والإقامة في مكان آخر غيرها أي نفع لهم، حيث إن دخلهم التجاري محدود في جميع الحالات، وليسوا من ذوي الأموال الطائلة والتجارات الممتدة إلى خارج شبه الجزيرة العربية، حتى يغامروا بشيء على حساب شيء آخر. وهذا ما دفع أحدهم لتبرير بقائهم في سوق الكويت:

- ما ظل من العمر بقدر ما مضى.. (وهز رأسه متحسراً).

بعضهم لم يجب على تساؤل أحمد، وبعضهم الآخر أسند رأسه إلى كرسيه مفكراً في الأمر، إلا أبو فيصل الذي بادر قائلاً:

- إن الأمر ليس بالسوء الذي تتخيله يا أحمد، وليس بالكآبة التي تراها على وجوه هؤلاء التجار. فكثير من سفن النقل التجارية لا زالت ترسو في ميناء الكويت لتعقد مزاد بعض بضاعتها مع التجار.. فالبضاعة إذن متوفرة، لكن المشكلة الرئيسية في تصريف هذه البضاعة.. ولهذا فإن السفن التي لا تبيع بضاعتها تتجه بها إلى شواطئ عُمان، حيث تفرغ حمولتها هناك.

(كان التجار يثقون برأي أبي فيصل، ويسمعون كلامه، ويتحملون نقده إياهم، لمعرفةهم بأن نقده نابع من محبته لهم وخوفه على مصالحهم).

- نعم نعم، هذا ما يحصل معنا بالضبط.. أبو فيصل، أبو فيصل نسيت أن تخبره بالسفينة التي غرقت قبل أيام قبالة ميناء الكويت. (قالها أحد التجار المعروفين بجمع الأخبار وحب الاطلاع على كل شيء).

نظر أبو فيصل إلى التاجر المثرثر، وبنبرة حادة:

- ما أفطنك.. هذا ليس موضوعنا، غرقت لأنها قديمة، ولم يمت أحد في تلك الحادثة..

كان أحمد يستمع لما يدور أمامه من حوار، وذهنه مشغول بما قاله أبو فيصل حول تحول خط التجارة من ميناء الكويت إلى موانئ عُمان، فاعتدل قليلاً في جلسته، ووجه كلامه إلى أبي فيصل:

- وهل يحصل هذا الأمر أيضاً مع ميناء البصرة؟

- نعم بالتأكيد..

- عندي لكم اقتراح سينشط حركة التجارة في كل من الكويت والبصرة مجدداً، وفي المقابل ستنشط به تجارة الزيارة.

(إن أي اقتراح قد يساهم في حل مشكلة الكساد التجاري هو مقبول ومحل رضا من جميع التجار، فهذا هو المكسب الذي يسعون إليه).

وضع أحدهم كأس الشاي من يده، ونظر بتمعن إلى أحمد وكان قبلاً غير مكترث بما يدور من حوار:

- أنا موافق عليه.. قبل أن تقوله.

ابتسم أحمد لحماسته، وأكمل:

- بما أن التجارة هنا تعاني من كساد تصريف البضاعة، وأسباب ذلك لا تخفى عليكم، فأغلب التجار الكبار غادروا حذرًا من الأوضاع السياسية، وهربًا من الوباء لا أعاده الله علينا..

- اللهم آمين (قالوها وهم مصرخوا أسماعهم لحديثه).

- ولذلك فأنا أقترح أن تقوموا بأخذ حاجاتكم من السفن القادمة، كما تفعلون في كل مرة، لكن على أن توصوا نواخذة سفن النقل بتغيير خط رحلتهم إلى ميناء الزيارة بدلاً من ميناء عُمان، فأكون أنا في استقبالهم هناك، وأتولى مهمة تصريف هذه البضائع في السوق الجديد، وعن طريق سكان البوادي، وأهل الأحساء وما جاورها.

- ونحن أين ستكون فائدتنا في ذلك (قال التاجر الثرثار).

- اصبر اصبر على رزقك.. (رد عليه أبو فيصل بحدة).

أجاب أحمد:

- الفائدة أنكم تستطيعون شراء ما تريدون من البضاعة القادمة على هذه السفن، وأنا أتولى مهمة تسويقها لكم في ميناء الزيارة، فأنتم تدفعون رأس المال وأنا أعيد لكم رأس مالكم مع ربحه. فتصبح تجارتكم تجارتان، أولى في سوق الكويت وأنتم مشرفون عليها، وأخرى في سوق الزيارة وأنا وكيلكم فيها.. ووكيلنا جميعاً المولى سبحانه وتعالى.

قَبِلَ التجار اقتراحه برحابة صدر وبهجة، ووجدوا في ذلك فرصة لهم لتعويض ما فاتهم في السنوات الماضية، مما يساهم أيضاً في نماء رأس مالهم خيراً من جموده على ما هو عليه دون بيع أو شراء.

إن تفكير أحمد بهذه الخطوة كان عارضاً وليس عن سبق نية أو ترصد له قبل مجيئه الكويت، لكن الظرف هو الذي كان سيد الموقف، وتطلب من أحمد الحكمة في ضرورة الاستفادة والإفادة مما يحصل في بلده، يدفعه إلى ذلك حرصه على نماء تجارة الكويت مجدداً أكثر من حرصه على تحريك سوق الزبارة وازدهاره.

- هل تعلمون بأن اليوم هو موعد وصول سفينة النقل التجارية القادمة من الهند والتي ربانها «راجو» الهندي. (قال ذلك التاجر الثرثار، ثم نظر بقلق إلى أبي فيصل منتظراً تأنيبه إياه على كلامه).

نظر إليه أبوفصيل بالنظرة ذاتها التي يرمقه به كل مرة، فأردف التاجر الثرثار قائلاً وهو يضع يده على فمه:

- سأصمت سأصمت.. لكن لا تغضب.

ضحك أبوفصيل، وضحك معه أحمد وباقي التجار، وأجابه:

- هذه المرة الأولى التي تقول فيها شيئاً نافعاً هذا اليوم.. في أي وقت تصل السفينة؟

ابتهج التاجر وأجاب بسرعة:

- هذا موعد وصولها..

نظر أبوفصيل إلى أحمد:

- ما رأيك أن نذهب لرؤيتها، لتكون هذه أول سفينة تغادر إلى ميناء الزبارة من ميناء الكويت، وبهذا تكون أنت مشرفاً على العملية.

- بالطبع.. لنتحرك الآن.

سار التجار برفقة أحمد باتجاه المرسى، من دون أن يحدث أحدهم الآخر، فكل منهم مشغول بالتفكير في ما سيحصل لاحقاً، وفي الأرباح التي سيجنونها، وأحمد مشغول بالتفكير بطريقة تنفيذ هذه المهمة بشكل سليم، وخصوصاً أنها المرة الأولى له في هذا الشأن.

كانت السفينة قد رست في مكانها المخصص لها على الشاطئ، وقد نزل منها نواخذتها وبعض مساعديه ليستريحوا على البر من عناء السفر، بينما بدأ بعض العمال بإنزال قسم من بضاعة السفينة لعرضها على التجار المتجمعين هناك.

تقدم كان التاجر الثرثار جماعته في السير، إذ عين نفسه مرشداً لهم بعد إطراء أبي فيصل له، وما إن لمح نواخذة السفينة حتى التفت إلى أحمد وهو يشير بيده إلى الأمام نحو النواخذة:

- هذا هو النواخذة، تعالوا نذهب إليه.

استقبلهم النواخذة بحفاوة لمعرفته بعضاً منهم، ولأن هيئة التجار تبدو على القسم الآخر الذي يجهله، فقام مرحباً ودعاهم إلى الجلوس معه، فلم يتوانوا عن ذلك وشاركوه الجلسة.

- في الحقيقة إن قدومنا... (قال التاجر الثرثار).

لكن أبا فيصل رمقه بنظرة غضب وحزم، وقال:

- تفضل يا أحمد، هذا هو نوحدة السفينة، فاطرح عليه ما اتفقنا عليه.

ثم التفت أبو فيصل إلى النوحدة مقدماً أحمد له:

- هذا أحمد بن محمد بن رزق، التاجر المعروف بأبي أحمد..

اعتدل النوحدة، وبدأت الابتسامة ترسم على محياه:

- أبو أحمد.. والله إنا مشتاقون له، أين هو؟ ما هي أخباره؟

بدا من حديث التاجر أنه كان على علاقة وثيقة بأبي أحمد، وقد أوضح ذلك عندما استرسل بعد برهة متحدثاً عن أيامه معه:

- ذات مرة اشترى مني حمولة كبيرة من الأخشاب، وباعها في البصرة، وقبلها كنت أحضر له كل ما يوصيني عليه من الهند، من أخشاب ومن شباييك نحاسية وغير ذلك.

بدا التاجر مسروراً لدى سماعه أخبار صديقه القديم، وبدا فخوراً بأحمد الشاب التاجر، وتابع قائلاً:

- كيف هي الأوضاع الآن في الزيارة، أما زال أبو أحمد يعمل في التجارة؟

- بالتأكيد.. وفي الزيارة سيكون ميناءً تجاري عظيم، وسوق لتصريف البضاعة من أفضل الأسواق.. فحبذا لو مررت بالزيارة بعد خروجك من هنا، كي نقوم بواجب ضيافتكم بحضور الوالد، وكي نعود لسابق عهدنا في التبادل التجاري بيننا.

فرح النوخدة بهذه الدعوة، ووافق على تليبيتها فور مغادرته ميناء الكويت.

في هذه الأثناء كان أبو أحمد يشرف على بناء السور، وقد أتم نقل أغراضه إلى القصر الجديد، وذلك رغبة منه في أن يقيم فيه بأسرع وقت ممكن قبل مقدم ابنه أحمد من الكويت، حيث إنه قد وعده بتزويجه حال وصوله.

في مساء ذلك اليوم، عاد أحمد إلى سوق الكويت متفقداً إنجاز العامل الذي أوكل إليه مهمة ترتيب المحل وتنظيفه، فوجده قد أتم عمله ووقف منتظراً قدومه إليه، ترتسم على وجهه ابتسامة النصر رغم غبار التعب الذي لبد خصلة شعره المنسدلة على جبينه من تحت غترته، فشكره أحمد على مجهوده، ثم أعطاه أجره وأجزل عليه في العطاء.

لم تكن عملية تنظيف المحل وترتيبه اعتباطية أو لمجرد الحفاظ على المحل من التلف، لكنه كان يفكر في إكراء هذا المحل لأحد التجار في السوق، ورغبته تنحصر في جاره أبي فيصل، فذهب إليه وعرض عليه الأمر، بأن يتابع تجارته من المحليين، فوافق أبو فيصل على ذلك من دون تردد.

والمهمة الأخرى التي أراد أحمد إنجازها قبيل عودته إلى الزبارة تعلقت ببيتهم المهجور، إذ إنه لم يرغب بترك هذا البيت على حاله، بل أثر أن يكون تحت رعاية أحد ما، ولا تتحقق الرعاية بمجرد العناية من بعيد، بل لا بد له من أسرة تقيم في الدور الأول من البيت وتعتني بالبيت كاملاً.

وهذا ما تم له عندما عرض على أبي فيصل أن يعتني بالبيت في فترة غيابهم، وأنه تحت تصرفه، وأوكل إليه البحث عن عائلة تقيم فيه دون أن يأخذ منهم أي مقابل مادي لقاء ذلك. فكانت الفكرة مناسبة لأبي فيصل، الذي عاجله قائلًا:

- سيكون البيت في أيدي أمينة يا أبا محمد، ولي اقتراح عساك توافق عليه.

- تفضل يا عم.

- ما رأيك لو سمحت لابني فيصل بالإقامة في البيت، حيث إنني أرغب بتزويجه في بداية الربيع، وبذلك تكون قد فرجت عنه كربيه، كما أنه سيحافظ عليه جيدًا.

- لك ذلك، ومن أفضل من فيصل لأتضمنه على بيتنا.. فتوكل على الله.

بعد أن ضمن أحمد أن المحل والبيت أصبحا في أيدي أمينة، استأذن أصدقاءه وأصدقاء والده، والذين أصبحوا أيضًا مقربين منه على الرغم من فارق السن بينهم وإياه. وبالفعل شد أحمد رحاله مغادرًا إلى الزيارة في صباح اليوم التالي، وسار برفقته النوخدة (راجو)، الذي كان متجهًا أيضًا إلى الزيارة.

في ذلك الصباح خرج أبوأحمد مع بعض وجهاء البلد إلى أطراف الزيارة حيث يقوم العمال ببناء السور الهلالي، ووقف غير بعيد عن

السور الذي بدأت ملامحه تظهر على الأرض، ممسكاً بعضاً في يده،
فدنا من الأرض وبدأ يرسم لهم ملامح السور كما سيصبح عليه لاحقاً،
محددًا عليه البوابة الرئيسية والبيوابات الفرعية والبيوابات الخاصة
بالأنعام، ومحددًا الأبراج التي ستعلو السور.

فقاطعه أحد الحاضرين:

- أليس من الأنسب أن يكون للسور بوابتان كبيرتان بدلاً من بوابة
واحدة، أظن ذلك أفضل وأسهل للناس للدخول والخرج إلى الزبارة.

- تجاه البادية بوابة، وتجاه البحر بوابة وهي الميناء.. فلو كان
لك دكان له ثلاثة أبواب كبيرة ما عدا الأبواب الفرعية، فهل تستطيع
السيطرة على كل من يدخل إليه أو يخرج منه في كل وقت؟

شعر الرجل بالحرج إزاء جواب أبي أحمد، وعلم في قرارة نفسه أن
كلام أبي أحمد عين الصواب، فالغاية الأولى من بناء السور هي فرض
الحماية من الغزو المتوقع مستقبلاً.

إن الثقة التي أولاها الناس لأبي أحمد لم تكن عبثية ولا نتاج ثروته
الواسعة قياساً إلى ثرواتهم، بل كانت بسبب حنكته وحسن تصرفه في
تدبير شؤون البلد، ودراسته المستقبلية لكيفية الحفاظ عليها والنهوض
بها لتصبح مدينة ذات ثقل استراتيجي بين المدن المنتشرة على الساحل.

في صباح اليوم التالي جاء البشير إلى أبي أحمد:

- يا عم.. يا عم.. وصل أحمد من الكويت..

- أين هو الآن؟ (أجاب بلهفة).

- ما زال في الميناء، وبرفقتة سفينة أخرى.. يبدو أن معه ضيوف.

احتار أبوأحمد في أمر السفينة المرافقة لابنه أحمد، لكنه آثر الانتظار في مجلسه بانتظار وصوله. وبعد وقت ليست بالطويل وصل أحمد إلى قصر والده، ودخل المجلس عليه وبرفقتة النوخدة (راجو)، فقام أبوأحمد من مكانه مرحباً بهما، وفاجأه حضور النوخدة الذي افتقده منذ سنوات، فتقدم إليه معانقاً ومسلماً.

بعد عدة أحاديث جانبية دارت بينهما، كان معظمها متعلقاً بالسنوات التي غاب كل منهما عن الآخر فيها، أشار أبوأحمد إلى ولده ليتبعه إلى الخارج، بينما ظل بعض القوم جالسين مع النوخدة.

أشار أبوأحمد إلى ولده بأن يأمر بتجهيز غداء يليق بضيفه، ثم همَّ بالعودة إلى الداخل، لكن أحمد استوقفه قائلاً:

- والدي.. هناك أمر يجب أن تعلمه مني، وهو وراء دعوتي للتاجر راجو لزيارة الزيارة، فناهيك عن رغبته في السلام عليك والحلول في ضيافتك، فإن زيارته هذه زيارة عمل أيضاً.

- هل يريد بيع البضاعة في ميناء الزيارة.

- إن أمكن ذلك..

- بالتأكيد يمكن ذلك، فهذا سيفتح الطريق أمام غيره من التجار للحلول في ميناء الزبارة بدلاً من الموانئ الأخرى.

شرح له أحمد تفاصيل الحادثة واتفقه مع تاجر الكويت على طريقة بيع البضاعة، وأن المدينة الجديدة تحتاج سوقاً يلبي متطلبات التجارة الجديدة، الأمر الذي راق لأبي أحمد، وأثنى على أحمد لقيامه بهذه الخطوة.

إن فكرة إنشاء سوق جديد في الزبارة ستعش المنطقة بشكل ملحوظ، وسيكون السوق مكاناً ملائماً لتصريف البضاعة الصادرة من الميناء، فضلاً عن كونه سيكون مصدراً أولاً في بيع الواردات من البادية إلى التجار القادمين إلى الميناء. فطبيعة التجارة في تلك المنطقة تفرض هذا النوع من التبادل التجاري بين البادية والحاضرة، وبين العرب والهند وشرق آسيا.

كما أن كثيراً من التجار سيكونون فرحين بهذه الخطوة المهمة، إذ إن كثيراً منهم تركوا الأسواق التي كانوا فيها في الكويت والبصرة والزيبر وغادروها إلى الزبارة بحثاً عن الأمان، لكن هذا لا يمنع حاجتهم إلى ممارسة نشاطهم ومهنتهم التي هي مصدر رزقهم.

على الرغم من أن أحمد كان صاحب فكرة إنشاء السوق، إلا أنه أثر أن يتخلى عن الأسبقية لوالده، ليكون هو صاحب القرار في هذا الشأن، فأبلغه بذلك، كي يقوم بالإجراءات المناسبة للبدء بتعمير السوق. واقترح عليه أن يكون مشابهاً لسوق الكويت، أو لسوق البصرة، وذلك

حتى لا يشعر التجار بالغربة في تجارتهم، بل كي يشعروا بأنهم يمارسون نشاطهم في الأسواق التي ربيوا ونشأوا فيها .

(إن النزول في مكان جديد، بعيداً عن مسقط الرأس، يعزز الشعور بالغربة في نفس المهاجر، ويدفعه ذلك إلى صعوبة التأقلم مع البيئة الجديدة على الرغم من أنها قد تكون مشابهة للبيئة التي جاء منها، سواء أكان في العوامل البيئية أم في طبيعة العادات والتقاليد . لكن عملية ترميم الذاكرة لإنشاء مكان أشبه بالمكان الذي اعتادوه في بلادهم يشد من أزرهم ويقوي ثقتهم بأنفسهم، وهو ما ينعكس إيجاباً على أسلوب حياتهم، واعتيادهم عليها، وبالتالي زيادة إنتاجهم وإخلاصهم في العمل كما كانوا من قبل).

اتفق أبو أحمد مع النوخذة راجو على شراء جميع بضاعته، وأوصاه بأن يجعل ميناء الزيارة مكان تنزيل حمولته في المرات القادمة، على أن يوصي جميع أصدقائه النواخذة بهذا الأمر، وفي حينها سيكون السوق جاهزاً لكي يعودوا إلى ديارهم محملين بالبضائع كما كان عهدهم في سوق الكويت من قبل .

وكعادة أبي أحمد في المشاورة مع وجهاء القوم، فقد وجد في اجتماع القوم عنده في وقت الغداء الذي أعده تكريماً للنوخذة ولقدوم ابنه أحمد سالماً من رحلته، فرصة مناسبة لمشاورتهم في شأن تعمير السوق، فقال لهم بعد أن فرغوا من طعامهم:

- كما تعلمون أيها الإخوة فإن متطلبات الاستقرار هنا، وكذلك دوام التجارة والسعي إلى ازدهارها، تتطلب منا إنشاء سوق يستطيع أن يحتوي البضاعة الصادرة إلينا، وفي المقابل أن يكون قادرًا على تلبية حاجيات التجار الأجانب من البضاعة التي يرغبون في شرائها، الصوف والأجبان والألبان والتمر والسدو وما إلى ذلك. فما رأيكم؟

كان الترحيب بالفكرة أكبر مما كان يتخيله أبوأحمد، فقد وافق الجميع على هذا الطرح وأبدوا استعدادهم لإقامة هذا السوق والنهوض به. فتابع أبوأحمد قائلاً:

- إن صاحب فكرة إنشاء هذا السوق هو ولدي أحمد، وعليه فإنني وكلته أمامكم مهمة متابعة تعمير السوق ولوازمه، وأي شيء تريدونه أو تقترحونه بهذا الخصوص فراجعوه في ذلك.

بدأوا يطرحون الأسئلة على أحمد الجالس بجانب أبيه، بينما ما زال أحمد متأملاً في حجم المسؤولية التي ألقاها والده على عاتقه، ولم يكن تفكيره خوفاً من عدم قدرته على إدارة هذا الأمر كما يجب، بل في اعتزازه بثقة والده فيه.

لكن أبا أحمد قاطعهم مجدداً:

- ويسرني أن تلبوا الدعوة لحضور حفل زفاف ولدي أحمد في منتصف هذا الشهر، حين يكون البدر مكتملاً، عساها تكتمل أيامكم بالأفراح والمسررات.

بدأ الجميع بالمباركة لأحمد بهذا الخبر المفرح، وأحمد يرد التهاني بوجه مبتهج، فلم يكن هذا الأمر غائباً عن ذهنه، لكنه لم يتوقع أن يتم بهذه السرعة، وفي يوم وصوله مباشرة، وذلك لم ينقص من فرحته شيئاً، بل زادها وأتم فرحة مقدمه إلى الزبارة بهذا الخبر السعيد.

في صباح اليوم التالي، انطلق أحمد ليختار مكان السوق في الزبارة، وسار برفقته بعض وجهاء القوم، وكل منهم يشير إليه بمكان معين، بينما كان يجول بعينه في المكان بأكمله، ثم يسير مجيئةً وذهاباً في طول المكان وعرضه، باحثاً عن نقطة تكون قريبة من الساحل والسكن على السواء.

وقع اختيار أحمد على مكانٍ محاذٍ للمسجد الذي بناه والده، وفي ذلك ليبعد المشقة عن تجار السوق الذين يصلون معظم فروض صلاتهم في المسجد، وهنا استفاد أحمد من حادثة بناء مسجد السوق في الكويت أيام ما وصلها والده شاباً.

وبالفعل فقد أحضر العمال المتخصصين وحدد لهم الطريقة التي يريدونها في امتداد السوق، وبين لهم مخرجه ومداخله، وعدد المحلات التجارية فيه، وجعل سوقاً صغيراً للأسماك بجانب السوق الرئيسي، وذلك لتجسيد رغبته في أن يجمع كل أصحاب المهن التجارية المتشابهة في مكان مخصص لهم ضمن السوق.

زادت مكانة أحمد بين قومه من بعد حادثة الإشراف على السوق، وتقلد زمام التجارة بدلاً من والده، إذ أصبحت مهمة والده في هذه

الفترة لا تتعدى الإشراف على بعض أمور التجارة من بعيد، واكتفى بالجلوس في مجلسه أغلب الأحيان، تاركاً زمام الأمر لأحمد.

بدأت الأحوال في الزيارة تتجه نحو الازدهار بشكل ملحوظ، وخاصة بعد ما بدأ الناس المقيمون حولها يشاهدون العمل الجاد الذي يقوم أبوأحمد وابنه في سبيل النهوض بهذه القرية لتكون مدينة مزدهرة. هذا الأمر شجع الكثيرين على القدوم للإقامة في الزيارة، وكان ذلك يتطلب منهم الذهاب إلى مجلس أبي أحمد لعرض طلبهم عليه بالإقامة، والذي لم يكن يرد أحداً من على بابه، بل يوصي مباشرة لابنه أحمد بأن يتابع له أموره ويختار له مكاناً يبني فيه، وأن يقدم له المساعدة اللازمة، فإن كان تاجراً أوصى بأن يخصص له أحمد محلاً تجارياً في السوق.

وكان موعد الزفاف الميمون الذي انتظره أحمد بفارغ الصبر، فشارك فيه المئات من أبناء الزيارة وما حولها، وانهار المهنتون على قصر أبي أحمد طوال فترة الشهر الذي تزوج فيه ولده، بينما كان أبوأحمد يعقد في مجلسه وليمة عشاء للضيوف والمهنتين بشكل يومي، ثم بعد ذلك يشاركونهم الحديث عن الأحوال السياسية والتجارية والصحية في المنطقة.

إن حرص أحمد على متابعة الأعمال الكثيرة التي أوكلت إليه، وتلبية متطلبات العمال المنتشرين في أكثر من مكان، فمنهم من يعمل في السور ومنهم من يعمل في السوق ومنهم من يبني ملحقات المسجد التي

أحدثها أحمد لتوسعة المسجد ليتسع للمصلين الكثر من تجار السوق ورواده لاحقاً. حرصه هذا دفعه لأن يباشر عمله بعد يومين من زواجه، ولأنه يقيم في الدور الثاني من بيت والده، فقد نزل الدرج كعادته في الصباح ليلقي التحية على والديه ويطلب الرضا منهما، لكنه هذه المرة لم يجلس مطولاً معهما، بل استأذن والده للذهاب إلى السوق:

- بالإذن يا والدي.. سأذهب لأرى أحوال السوق، وكذلك السوق، فبالتأكيد يحتاجون بعض المواد، فهذا اليوم الثالث الذي لا أراهم فيه.

نظر إليه والده بحدة، ثم بادره قائلاً:

- ألا تراني قادراً على إدارة الأمور؟ مازلت شاباً..

- حاشا لله يا والدي، لكنني أردت فقط أن أخفف عنك جهد متابعة الأمر...

قاطعته والده بإشارة بيده:

- اصعد إلى غرفتك واجلس مع زوجتك، وستتابع لاحقاً، وأنا من سيهتم بهذه الأمور في هذه الفترة.

أحس أحمد أن كلام والده يأخذ طابع الجدية في الحديث، فلبى رغبته وهو يردد:

- لم أقصد ذلك، فأنت خير الشباب يا والدي.

ابتسم أبو أحمد ونظر إلى زوجته التي بدت ضاحكة من الموقف الذي حصل أمامها، ورددت قائلة:

- زينة الشباب يا أبوأحمد..

إن الأجواء العائلية الهادئة والمليئة بالحب والحنان، تفرض الوقار والاحترام بين أهل البيت الواحد، وتثبت أركان الأسرة التي هي أصغر تنظيم مجتمعي، وأقدم مجتمع في التاريخ، ولو كانت كل الأسر محافظة على هذا الوفاق والوثام في ما بينهما، فسينتج عن ذلك بالضرورة مجتمع كامل يحمل في طياته المحبة والتوافق.

سعى أحمد في الفترة اللاحقة لزوجاه، وبعد أن بدأ يعتاد مجدداً على الحياة الأسرية الجديدة، إلى متابعة أعماله بحرص وجد وتفانٍ، تدفعه إلى ذلك الثقة التي أولاها والده له، ورغبة منه في أن يكون على قدر المسؤولية التي أوكلت إليه. وطوال الفترة التي تقلد فيها زمام الأمور التجارية شهدت الزبارة تقدماً ملحوظاً، وزيادة وافرة في عدد السكان، ولم يتقدم أي أحدٍ بشكوى إلى أبيه عنه.

كان من عادة أحمد، بعد أن ينهي أعماله، أن يعود إلى منزله قبيل الغياب، فيجلس قليلاً مطمئناً على والديه وزوجته، ثم يتجه إلى المسجد لأداء صلاة المغرب، وبعد الفراغ منها، يعود مع بعض المصلين إلى مجلس والده بين فترتي المغرب والعشاء. ثم يغلق المجلس بعد صلاة العشاء، ويصعد إلى غرفته فينزل إلى الصالة المخصصة لوالده في الدور الأول، ويرفقه زوجته، ليطمئن على حال والديه قبل خلوده إلى النوم.

ذات صباح دافئ، بعد أن صلى أحمد الفجر في المسجد ثم عرج على المرسى وتجول في السوق قليلاً للاطلاع على سير الأمور هناك، عاد إلى المنزل ليتناول الإفطار مع والديه وزوجته كعادته.

لدى دخوله المنزل لاحظ أن البشاشة والابتسامة ترسم ملامحها على وجه والدته، فنظر إلى زوجته التي بدت أيضاً مبتسمة، وكأن أمراً قد حيك بينهما، فعاجلهما قائلاً:

- خيراً خيراً.. اللهم أدم هذه الابتسامة.

- أبشر يا أحمد.. أبشر بالخير.. (قالت الأم بفرحة).

- بشركم الله بالجنة، خيراً.. ما الذي حصل؟

ربتت والدته على كتف زوجته التي تقف بجوارها:

- حفيدي قادم إن شاء الله.

- حامل!... (أجاب أحمد بلهفة).

لم تتكلم زوجته بل اكتفت بالنظر إليه ثم إلى أم أحمد، والتي تولت مهمة الإجابة:

- نعم إنها حامل.. وإن شاء الله سيكون ولداً.

- إن شاء الله.. كل ما يأتي من الله فهو خير.. المهم هو أن تقوم بالسلامة.. هل أخبرتم والدي؟

- طبعاً أخبرناه قبلك. (قالت الأم بثقة وفرح).

- وأين هو لا أراه الآن.

- ذهب ليحضر بعض الحلويات لهذه المناسبة.

لم يتمالك أحمد نفسه من فرحته بهذا الخبر، وبدأ يسرح بتفكيره حول المستقبل الذي يرسم له كونه سيصبح أباً، محاولاً معرفة سرّ تعلق الأب بأبنائه، ذلك الشعور الذي لم يجربه بعد، مستذكراً الأقوال بأن مكانة الابن في قلب والده لا تضاهيها مكانة أخرى.. لكنه قاطع تفكيره قائلاً:

- أبداً.. والدي هو في المرتبة الأولى.. أهم من ابني.

ثم ابتسم بينه وبين نفسه على تصرفه هذا، وكيف أنه يستبق الأمور قبل أن تحدث.

بعدها بأيام، كان أبوأحمد يجلس بجوار زوجته، ويسأل ابنه عن بعض الأمور المتعلقة بالتجارة والسفن التي تحط في الميناء، وأن الانتهاء من السوق يجب أن يتم في أسرع وقت ممكن، حيث إن التجارة قد بدأت تتسع، وصار لابد أن يتم الاسغناء على تجارة الأرصفة التي يقوم بها بعض التجار على ساحل الميناء ريثما يتم تجهيز محلاتهم ليمارسوا التجارة من خلالها.

وأحمد ينصت إليه ويجيبه على تساؤلاته التي يطرحها عليه، وتطرقا بعد ذلك إلى أحاديثهم العائلية، حيث بدأ أبوأحمد يحرض أحمد مازحاً:

- تتوون لي أن أكون جدًّا إذن.. اتقوا الله فأنا مازلت شابًّا.

ضحك أحمد ثم قال:

- الجد الشاب، وماذا في ذلك..

- لا شيء أبداً.. أبداً (أجاب أبوأحمد وهو يضحك مماًزحاً).

بدا أبوأحمد متعباً ومرهقاً على غير عادته، وقد لاحظت أم أحمد ذلك عليه، وكذلك أحمد، فسألاه عن حاله، لكنه علل ذلك قائلاً:

- يبدو لأنني لم أنم اليوم بعد العصر.

فأسند رأسه إلى كتف زوجته التي تجلس بجواره، بينما أثار أحمد أن يصعد إلى غرفته ليترك المجال لأبيه كي يرتاح وينام.

تحركت الأم من مكانها برفق كي تقوم بتجهيز فراش أبي أحمد الذي بدا تعباً ونعساً.. وما إن أزاحت كتفها، حتى هوى رأس أبي أحمد عن كتفها، واستلقى جسده مكان جلوسها.

هرع أحمد إلى أبيه وأمسك بكتفيه محاولاً رفعه مجدداً، بينما الأم ما زالت جاثية على ركبتيها وراحة يدها تغطي فمها، وعيناها مشدوهتان إلى أبي أحمد.

- أبي.. يا أبي.. (قالها أحمد بنبرة راجفة خائفة).

- أبوك يا أحمد.. محمد.. أبوأحمد.. يا ويلَ قلبي عليك. (أم أحمد بكلمات متقطعة).

لم تُجدِ محاولات أحمد شيئاً مع والده، لكنه استمر في محاولاته لإيقاظه مما هو به، والأم تضع رأس زوجها في حجرها، ودموعها تنهال على وجهه الصامت.

إن حالة الذعر التي دبت في المنزل، لفتت انتباه زوجة أحمد الجالسة في غرفتها، فهرعت إلى الدور الأول خائفة، فوقفت في منتصف الدرج وهي تنظر إلى أحمد ووالدته وهما يحاولان إيقاظ أبي أحمد، فجلست في مكانها واضعة يدها على فمها.

خرج أحمد من الباب مسرعاً بحثاً عن أحد الأطباء، ودموعه تنهمر على وجهه وتتبعثر من سرعة جريه، وقد علم في نفسه أن رَجُلَ البيت قد صار في جوار ربه.. لكنه لم يكن ليصدق هذا الأمر بسهولة، بل بقي متعلقاً بالأمل، فساقته قدماه إلى بيت خليفة، صديق والده، فطرق الباب عدة مرات متتالية، حتى خرج أبو محمد فزعاً:

- أحمد! خيراً يا ولدي.. لماذا تبكي؟

- تعال معي يا عم، والدي.. والدي...

- الله أكبر... أبو أحمد.. ماذا حصل؟

لم يستطع أحمد إجابته على سؤاله، بل أسرع عائداً إلى بيته، وأبو محمد يجري خلفه حتى وصلا. دخل أبو محمد من الباب والعبرة تخنق كلماته، ثم اقترب من صاحبه، ووضع طرفي إصبعيه على عنقه، ثم فتح له عينيه، ونظر إلى وجهه للحظات، ثم سحب الشماع من تحت رأس أبي أحمد، ووضع على وجهه برفق.

لم يكن أحمد يتصور أن يكون الأمر بهذه السرعة، وأن تكون الحياة قصيرة بهذا الشكل، وأن يكون الفراق أليماً إلى هذه الدرجة، وبحرقة:

- ليتني أنا مكانك يا والدي.

ثم انفجرت عيناه بالدمع..

مشى أبو محمد إلى خارج الغرفة، وهو يكفكف دموعه بطرف شماغه، ووقف خارج الباب متحسراً على أيام صديقه، بينما بدأ بعض الجيران بالتوافد إلى بيت أبي أحمد، بعد أن رأوا أحمد راكضاً ذهاباً وإياباً.

سرى الخبر المؤلم بين الناس سريان النار في الهشيم، وبدأوا بالتجمع أمام بيت أبي أحمد، وخيم الحزن بسواده تخييم تلك الليلة المظلمة على الزيارة. قطع خليفة هرج الناس وهلعهم بصوت جهور:

- حان وقت الصلاة أيها القوم..

بدأ الناس بالتحرك نحو المسجد القريب من مكان تجمعهم، بينما دخل أبو محمد ليصطحب أحمد إلى المسجد، مما أفسح المجال لبعض النساء لمواساة أم أحمد في مصابها.

في المسجد، وبعد الصلاة، اقترب خليفة من أحمد، قائلاً:

- أحمد يا ولدي، لقد كان المرحوم عزيزاً علينا جميعاً، وعليك بالصبر، فالصبر عند المصيبة الأولى، وإنني أحسبك من الرجال الصابرين.

وأحمد صامت إلا من ترديده المستمر:

- إنا لله وإنا إليه راجعون.

متابعاً بألم وحزن:

- وكما تعلم فإن إكرام الميت دفنه، وما زال الليل في أوله، فماذا تقول في ذلك؟

- أقول ما يرضي ربي، حسبنا الله ونعم الوكيل.. وافعل ما تراه مناسباً.

- لقد أرسلت بعض الشبان لمباشرة حفر القبر قبل قليل، وخلال ساعة سينتهون من ذلك. وأنا أرى أن نذهب سويّاً لتغسيل المرحوم، ثم نسير به إلى أول منزل من منازل الآخرة.

- اللهم اجعله روضة من رياض الجنة. (قال أحمد بخشوع).

خرجوا من المسجد باتجاه بيت أبي أحمد، يتقدمهم أحمد وأبو محمد، حتى وصلا إلى مدخله، فدخل أحمد بحذر، واقترب من والدته مواسياً:

- أسأل الله أن يجعلك من الصابرات يا أماه، هذا قضاء الله وقدره، اسمحي لي الآن، حيث سيدخل الرجال لتغسيل الوالد. أرجو منك الصعود إلى الدور الثاني.. واصبري فإن الله مع الصابرين.. (ثم أشار إلى زوجته بعينه لكي تقوم بأخذ والدته إلى غرفته).

أم أحمد ذات نشأة دينية قوية، حافظت واستمرت عليها في كنف زوجها، فتخلقت بأخلاقه الفاضلة، فكانت صابرة محتسبة، مؤمنة بالقضاء والقدر.

دخل أبو محمد، ومعه إمام المسجد، وبدأوا بغسل أبي أحمد، ثم حملوه مشيعين إلى المقبرة، والقناديل المحمولة تضيء لهم دربهم القصير إليها.

مات أبو أحمد، وحضر في قلب ابنه أخدوداً من الحزن، يحتاج إلى أطنان من السعادة لتردم هوته. فقد كان الأب والمعلم والأخ والصديق. وأحمد لا يفتأ يتذكر مرابع الطفولة التي قضاها في كنف أبيه، ثم الدروس التي تعلمها منه، جميعها مرّت أمامه شريط ذكريات سيكون من الصعب عليه نسيانها، وستكون أنيسه في ما بعد.

موته، وضع على عاتق ابنه حملاً ثقيلاً من المسؤوليات إزاء عائلته ومستقبل الحلم بمدينة الزبارة. وانتقل به من أجواء الفرح التي كانت تغمره إلى كآبة وحزن وشعور بالوحدة والفقد.

كان خبر وفاة والده كالعاصفة التي جاءت على كل ابتسامة تهلل بها وجه أحمد يوماً، فلم يستطع النوم لعدة ليالٍ بعد حادثة الوفاة، وفي كل ليلة، بينما القوم نيام، كان يخرج من بيته متسللاً ليزور قبر والده، فيجلس بجواره عدة ساعات، يدعو له بالرحمة والمغفرة.

لم يكتف بالدعاء في زيارته الليلة، لكنه جلس بجوار القبر واضعاً راحة يده على أحد أحجاره، وبدأ يخاطبه:

- لم أخبرك من قبل بأنني أحبك أكثر من نفسي يا والدي، لو كان الموت يفتدي لفديتك بنفسي.

لم يستطع رد دموعه المناسبة على لحيته، ولم يرغب في تكفيف هذا الدمع، بل وجد فيه مخلصاً له من حالة الحزن التي تعصر قلبه ألماً، وتفطر كبده معاناة وأسفاً على الفراق.

(لكل روح بشرية طاقة استيعابية في الصدر، الذي هو مستودع الأحزان أو الأفراح على السواء، وإن امتلاءه بأحد هذين الشعورين، نتيجة صدمة أليمة أو مفرحة، يخلق تكديساً عاطفياً يصل إلى درجة التضاحم وعدم القدرة على الاستيعاب أكثر. وإن ضغطها بعضها بعضاً يثير في النفس رغبة في إخراج هذه العصارة على هيئة دمع تفيض به العينان، لذلك يشعر الإنسان بالراحة نوعاً ما بُعيد بكائه حزناً، ويشعر بمتسع في صدره، وراحة في تفكيره، وكذلك بُعيد بكائه فرحاً).

- لم أخبرك بأمر الكتاب الذي ضاع من مكتبتك ولم تجده، فقد استعترته كي أقرأه لكنه ضاع مني، وخشيت أن أبوح لك بذلك.

(في كل مرة يبوح بها المرء بشيء من أسرارهِ التي طالما احتفظ بها، وإن كانت بسيطة وغير ذات قيمة كبيرة، إلا أن البوح بها يساعده على الاستقرار النفسي، ولذلك كانت الشكوى لله سبحانه وتعالى والتضرع إليه، والبوح له بالذنوب والاستتابة منها، من أجل الأعمال وأكثرها تقريباً. ناهيك عما تحمله هذه النقطة من معاني دينية عقائدية، فإنها تؤثر نفسياً على التائب أو الناطق بمكنون سره، إذ تزيح عن كاهل قلبه همماً كان لازمه سابقاً).

ولأن مكانة أحمد كانت كبيرة في قومه، فلم تتوقف الأعمال التي كان قد بدءها مع والده في إعمار الزبارة، إذ تابع العمل والإشراف بعض أصدقائه والخائفين على مصالح المدينة الراغبين في تسريع عجلة نموها، وبخاصة في ما يتعلق بالسوق التجاري.

إن الطريقة التي اتبعها أحمد في إعمار السوق أتت بنتائج إيجابية في أثناء الإنشاء، حيث إنه أوكل مهمة بناء المحال التجارية لأصحابها، بحث أنه اختار المكان، وتولى مهمة بناء الملاحق الرئيسية للسوق على نفقته الخاصة، من تمهيد الطرق، إلى تجهيز ساحة المزاد، إلى توسعة المسجد، وما إلى ذلك.

فكل تاجر يرغب في امتلاك محل تجاري في السوق الجديد عليه أن يشرف على بنائه بنفسه، ويتحمل تكاليف هذا البناء، هذا يتعلق بالتجار ذوي القدرة على البناء، أما أولئك التجار الذين جاءت الهجرة على أملاكهم وأموالهم، فقد تولى أحمد مهمة دفع تكاليف بناء محلاتهم، على أن يقوموا هم بالإشراف على ذلك.

جعل أحمد لنفسه محلات تجارية كبيرة داخل السوق، كان أكبرها وأهمها المحل الذي سيشرف من خلاله على تجارة اللؤلؤ، بينما جعل المحلات الأخرى مختصة بالبضاعة القابلة للتصدير إلى الهند والمناطق البعيدة. كما أن طبيعة التبادل التجاري في ذلك الوقت تفرض على التاجر أن يمتن أكثر من مهنة تجارية، فكثيراً من النواخذة يأتونه لبيع لآلئهم مقابل الحصول على بعض البضائع الأخرى منه، فليس شرطاً أن يكون المال هو المقابل لهذه اللآلئ.

بعد الرحلة الشاقة التي يقضيها النواخذة والغواصون والطواشون في البحر بحثاً عن اللآلئ، التي تعتبر مصدر رزقهم الوحيد، فإن عودتهم إلى أهاليهم تتطلب منهم إحضار مؤن البيت معهم بعد رحلة قد تمتد لأيام طويلة، ولذلك كانت فكرة بناء السوق قريباً من المرسى فكرة صائبة من أحمد، وذات فائدة للبحارة، الذين يجدون في شراء المؤن مقابل بضع حبات من اللؤلؤ أفضل من دفع ثمن البضاعة مائلاً بعد بيع الآلئ.

ولأن أحمد كان الأقدر بين التجار مادياً، فقد كان المصدر الأساسي لأولئك النواخذة المقبلين على السفر، حيث إن من متطلبات النواخذة

تجاه أفراد طاقمه، أن يؤمن لهم مؤونة السفر، من تمر وخبز، ولحم مقدد، ومياه عذبة، وما إلى ذلك. لكن النواخذة لم يمتلكوا القدرة على الدفع مقدماً مقابل هذه البضاعة، فكانوا يذهبون إلى أحمد، الذي يرحب بهم بحفاوة، ويعطيهم كل احتياجاتهم لرحلتهم، وفي المقابل فإنهم لدى عودتهم من هذه الرحلة، يسددون له قيمة ما أخذوه مما وجدوه من لآلئ، ثم يبيعون له اللآلئ الأخرى التي حصلوا عليها.

إن هذه الطريقة جعلت تجارة اللؤلؤ في خليج الزبارة محصورة في التاجر أحمد بن رزق، وذلك بسبب حصافته وحكمته، وقدرته على كسب قلوب النواخذة أولاً، وكسب ثقتهم أيضاً، إذ كان دوماً المعين لهم في ما يواجهون من عقبات أو مصاعب.

لم يكن يستغل هذا الموقف لصالحه الشخصي أبداً، فبإمكانه مثلاً أن يعطي النواخذة أسعاراً زهيدة مقابل لآلئهم، وذلك لأنه صاحب فضل عليهم من قبل، لكنه كان يدفع لهم سعراً أفضل من سعر السوق آنذاك، مما شجع النواخذة الآخرين على تصدير كامل بضاعتهم إليه، ويأتونه من مغاصات مختلفة.

أدرك أحمد أن سُنَّة الحياة لا بد أن تسير على والده كما سارت على الذين من قبله، لكن تلك الغصة في قلبه من هول المصيبة وعظم الفراق طالت كثيراً حتى سكنت، وأثار هذا الأمر أحد أصدقائه، المعروفين بعلمهم وتدينهم، حيث قال:

- عليك بالصبر يا أحمد، وعد إلى ما كان والدك عليه، وكنت أنت عليه.

إن مجرد ذكر اسم والده أمامه كان يصيبه بالقشعريرة، ويوقظ الحنين في فؤاده بعد أن حاول إسكانه مرارًا بزيارة قبره، لكن صديقه لم يتوقف عن ذلك، بل أراد له الخروج من هذه الأزمة العاطفية التي يعيشها، فتابع قائلاً:

- والذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا

- حسبنا الله ونعم الوكيل. (ردد أحمد بخشوع).

(إن المؤانسة والتصبير اللذين يواسي بهما الأصدقاء صاحب المصيبة، يساهمان في حفزه على الاستمرار في الحياة والعودة إلى حضنها، وإن كان الأمر أكثر مشقة عليه من ذي قبل، لكنه بالتأكيد يعتمد على روح الدفع التي يبثها أولئك فيه محاولين بعثه مجددًا).

وهذا ما حصل مع أحمد، فإن المتطلبات الكثيرة في الزيارة، والأعمال الشاقة الملقاة على عاتقه بما أنه وريث أبيه صاحب الوجاهة في المنطقة، فرضتا عليه العودة إلى حضن الحياة مرة أخرى، ولكن بعزيمة وإصرار منقطعي النظير، يدفعه إليهما حرصه في السير على خطا والده، محاولاً انتهاج نهجه في الإصلاح والتقدم إلى الازدهار، وحرصه كذلك على دوام برّه بمتابعة ما كان يقدمه للناس، ليديم بذلك يد والده البيضاء.

ذات يوم، وبعد أن بدأ أحمد يعود إلى الحياة الطبيعية التي عاشها من قبل، كان لابد له من الذهاب إلى مرسى السفن لاستقبال التجار من الهند، وذلك حرصاً منه على توطيد علاقاته معه، وتزامن ذلك الصباح بقدم نواخذة الغوص من مغاصاتهم، فما كان لأحمد إلا أن قضى معظم يومه بين السوق والمرسى، ولما عاد إلى البيت مساءً كانت والدته تنتظره بخبر أثلج صدره وأزاح عنه كل التعب.

فالحزن ليس إلا عبوراً إلى فرح جديد، فلكل فرح نهاية يبدأ معها حزن جديد، ولكل حزنٍ نهاية يبدأ معها فرح جديد، ولهذا كانت البشرية السارة التي زفتها إليه والدته لدى وصوله إلى البيت أن قالت له:

- مبارك يا ولدي.. مبارك.. مولودك ذكر.

- الحمد والشكر لله، الحمد له على منته وفضله، وزوجتي كيف هي الآن؟

- اطمئن فهي بخير وبأحسن حال.

لم يشأ أحمد أن يبعثر فرحتيهما، فعلى الرغم من أنه كان فرحاً بكونه سيرزق بمولود، إلا أنه تذكر والده ولهفته عند سماع خبر حمل زوجة ابنه، والذي خرج مسرعاً ليحضر الحلويات لأهل بيته من السوق.

لم يكن هو الوحيد الذي أخفى بعض الحزن في قلبه إزاء هذا الخبر، فوالدته أيضاً، استأذنتهما لتصعد إلى غرفتها لجلب بعض الحاجيات، وفي حقيقة الأمر فقد صعدت إلى الغرفة ويدها لا تفتآن تكفكفان

دموعها المناسبة على خديها، متمنية لو كان أبوأحمد حاضراً ليبارك هذا المولود الجديد، والذي طالما انتظره على أحر من الجمر.

- لاحقاً سيكون لك أولاد .. وستصبح أباً ..

- سأسميه محمد يا والدي.

- على اسمي!! نعم إذا كنت متعجلاً على وفاتي ..

- لا يا والدي حاشا لله .. أمد الله في عمرك .. سأسميه يوسف إذن.

(في شبه الجزيرة العربية آنذاك، كان الشبان يبتعدون عن تسمية مواليدهم بأسماء آبائهم طالما هم أحياء، لأن ذلك يجلب لهم الفأل الشؤم كما يظنون، على عكس الذي درج في ما بعد، حيث أصبح من التقدير والتبجيل للوالد، تسمية الابن الأول على اسمه).

تذكر أحمد كلام والده له أيام كانا في الكويت، فابتسم قائلاً بصوت خفيض:

- هو بإذن الله محمد ..

أبو محمد، لقب أطلق على أحمد منذ كان فتى في بداية حياته، وكانت هذه عادة محببة لدى عامة الناس في التكنية والتلقب بأبي فلان، وفي الأغلب كانت التكنية تتبع اسم الأب، إلا إذا كانت من الكنايات المشتهرة في التاريخ والمتداولة على ألسنة الناس، كأن يقال لمعظم من اسمه خالد أبووليد، تكنياً بالصحابي الجليل خالد بن الوليد.

إن خبر المولود الجديد حثَّ أحمد ليعود إلى سابق عهده، فبدأ في صباح اليوم التالي جولة ميدانية بمثابة مشرفاً على عمال السور، ذلك السور الذي كان حلم والده، واستتهض همهم كي يسرعوا في تنفيذه، وقدم لهم كل ما يلزمهم من مواد، ودعاهم جميعاً إلى وليمة عشاء في مجلسه في القصر.

ثم اتجه إلى السوق وتجول فيه، وقد بدأ التجار بملئ محلاتهم بالبضاعة، وبدأت ملامح السوق النشط تظهر جلية في المكان، من باعة ومتجولين وتجار ووافدين إلى الزبارة. واستمر في ذلك حتى صلاة الظهر، فدخل المسجد وصلى مع الناس فيه، ثم قام فيهم خاطباً:

- أيها الإخوة، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

انتبه جميع من في المسجد وردوا السلام، ثم أنصتوا ليستمعوا لما سيقوله فتابع:

- أتشرف بدعوتكم اليوم إلى مأدبة عشاء في مجلس الوالد رحمه الله، وأرجو منكم الحضور.

أراد أحمد أن يضع كل شيء في مكانه الصحيح، وأن يضع النقاط على الحروف كما يقال، وبأن ينتبه لشؤون المدينة التي بدأت تتسع عمراناً وسكاناً، لدرجة أن أحمد، على الرغم من أنه قدم الزيارة مبكراً، ويعرف كل ساكنيها فرداً فرداً، إلا أنه فوجئ بكثيرين جدد في المسجد،

الأمر الذي دعاه لتوجيه الدعوة إلى جميع من كانوا فيه، كي يملي عليهم إرشاداته ويستمتع إلى أحوالهم وأحوال استقرار الوضع من خلالهم.

في المساء جلس أحمد في المجلس، وبدأ المدعوون بالوصول تلبية لدعوته، فلم يتخلف منهم أحد، بل إن التجار والنواخذة المقيمين في الزبارة للاستراحة من عناء سفرهم بين الموانئ، قد لبوا الدعوة وحضروا أيضاً، فرحب بهم أشد ترحيب، واستقبلهم بحفاوة بالغة.

بعد تناولهم طعام العشاء، بدأ المدعوون بالمسامرة وانشغل كل منهم بالحديث مع من بجواره للاطمئنان عليه والاستفسار عن أحوال عمله أو تجارته، وهم ينتظرون ما سيقوله لهم أحمد بن رزق، الذي وقف فيهم قائلاً:

- شرفتم منزلنا فمرحباً بكم أهلاً وإخواناً أعزاء.

رد الجميع التحية بالشكر على هذه الوليمة بأصوات متفاوتة من أرجاء المجلس، ثم ساد صمت وترقب في انتظاره ليكمل حديثه، فتابع:

- حقيقة كلي فخر ودهشة بما رأيته في هذه الأيام من التقدم في الأعمال التي كان الوالد قد أوعز بإنشائها على نفقته الخاصة. وأوجه شكري واعتزازي للعمال القائمين على بناء السور أولاً.

كان العمال يجلسون إلى جوار بعضهم في المجلس، وكأنهم كتلة واحدة، إذ لم ينفرد أحد منهم عن المجموعة ليجلس بعيداً عنها، وهذا هو طبع البسطاء، إذ لا يجدون الراحة إلا بجوار من يساوونهم في

بساطتهم. حتى أنهم جلسوا إلى مائدة واحدة، فهم معتادون على تناول الطعام معاً، وبهذا لن يجدوا حرجاً في الأكل بطريقتهم المعتادة التي لا تتقيد بالاتيكييت أو الأساليب المخملية.

نظر الجميع إلى العمال الذين بدوا فخورين بمدح أحمد لهم، وشعروا بأن المدعويين الآخرين قد غبطوهم على تقديمهم على من سواهم في الشكر والتكريم.. الأمر الذي حداهم لشكره على ذلك وعلى الوليمة التي دعاهم إليها. فتداخلت أصواتهم الشاكرة له، حتى قاطع فوضوية حديثهم صوت رجل منهم، بدا أنه كبير العمال، وبأنهم يأتَمرون بأمره، يحترمونه أو يخافون سطوته عليهم، فقال:

- إننا نشكرك يا سيدي على هذه الوليمة، ونقدر لك دعوتك لنا.

وجد أحمد أن الفرصة مناسبة ليستفسر منه عن السور الذي يتم بناؤه، والمدة المطلوبة للانتهاء منه، رغم أنه كان على علم وتقدير لذلك، فهو يعتبر المشرف العام على الأمر منذ البداية، لكنه آثر أن يسمع بقية القوم، فقال:

- قَوَّاكم الله.. كيف العمل في السور هذه الأيام؟

- أوشكنا على الانتهاء، وفي الأسبوع القادم سنحضر النجارين لعمل البوابات التي أمرتم بإعدادها.

- خيراً إن شاء الله.. جزاكم الله كل خير.. هل لكم طلبات معينة؟

- نعم..

- تفضل .. قلها .. (قال أبو محمد).

- كثيرون بدأوا يبنون بيوتهم بالقرب من السور، وذلك بعدما سمحتم لكل وافد جديد إلى المدينة بالبناء داخل السور..

لم يرق هذا الأمر لأحد الوجهاء الجالسين، فقاطع أحمد والعامل قائلًا:

- لاحظت ذلك.. وأنا ضد أن تكون المنازل ملاصقة للسور، لماذا لم يبن بيته إلى الداخل قليلاً.

نظر أحمد إلى العامل على أمل الإجابة، وبالفعل فقد كانت إجابته حاضرة لذلك السؤال، وذلك بسبب طبيعة تواصل هذا العامل مع الوافدين الجدد الذين يبنون بجوار السور، فقد وقف على أسباب ذلك. فقال:

- الحق معهم.. في الداخل لا يوجد مكان، فقط بالقرب من السور. دهش أحمد لهذا:

- لا يوجد مكان!! كيف لا يوجد مكان؟ يوجد أراضٍ خالية كثيرة تصلح للبناء في الداخل..

بينما هم كذلك، صاح أحد العمال البسطاء، مشيرًا بيده إلى أحد المدعوين الجالسين في الجانب الآخر من المجلس:

- هذا واحد منهم.. أنا رأيته يبن بيته بجوار السور مباشرة.

نظر أحمد إليه، فعاجله الرجل مجيباً:

- نعم صحيح.. لكن في الداخل كلما ذهبت لأبني على أرض قالوا هي محجوزة لفلان، وهذه محجوزة لفلان، ولم أجد مكاناً إلا بالقرب من السور.

بدأت الأمور تتضح أمام أحمد، وشعر بأن بعض التجار الكبار في الزيارة قد رأوا أن يضعوا يدهم على المناطق التي لم تعمّر بعد، راغبين في أن تكون ملكاً لهم لتعمّر لأبنائهم لاحقاً، أو يستفيدوا منها كمستودعات.. أو أولئك الرعاة أصحاب المنطقة، الذين سكنوا داخل السور، فسيطروا على أراضٍ بجوار منازلهم كي يضعوا أنعامهم فيها من إبل وأغنام.. ثم يرسلونها في الصباح إلى المرعى.

لم يشأ أحمد أن يفرض على الرعاة أو التجار التخلي عن الأراضي التي سيطروا عليها، لكنه فكر في إعادة تقسيم هذه الأراضي وتوزيعها بما يتناسب مع حاجة كل فرد منهم إليها.. فكل راع يأخذ قطعة أرضٍ مجاورة لبيته، ثم يسوّر هذه القطعة بما يراه مناسباً، ويضع فيها أغنامه وإبله، أما ما فاض من الأرض عن حاجته فهو ليس من حقه، ولا بد أن يكون من حق المحتاجين إليها.

وافق الرعاة على هذا الرأي، حيث إنه لم يكن يتضمن أي إساءة لهم، ولا أي إجحاف في حقهم، بل إنه كان عادلاً ومنصفاً.

أما التجار فقد خيروهم أحمد بين خيارين، فإما أن يتخلوا عن الأراضي التي وضعوا يدهم عليها، والتي هي فائض عن حاجتهم الحالية،

أو أن يقوموا باستثمار هذه الأراضي خلال فترة لا تتجاوز السنة، فليس من المعقول أن تكتظ البيوت الملاصقة للصور في حين أن قلب المدينة لازال أشبه بالبادية دون تعمير..

أما من يرفض ذلك، فعليه السماح لمن أراد البناء في تلك الأرض بالبناء عليها، دون أن يعترض طريقه، أو يقصيه عنها، على أن يلتزم القادم الجديد بقواعد البناء التي تضمن لجاره حرته الشخصية، بأن يدع مسافة بين البيت والآخر..

وافق بعض التجار على اقتراح أحمد المتعلق باستثمار الأرض خلال فترة سنة، بينما أبدى البعض رغبته في التخلي عن الأرض لغيره المحتاج إليها، يدفع بعضهم إلى ذلك الحرص على إعمار الزبارة ومساندة ابن رزق في إنشائها، بينما تدفع آخرون المسامحة وحب العطاء وعدم الرغبة بالاستثمار بشيء خاص، وآخرون محتاجون إليها أكثر من حاجتهم.

إن التسامح الذي بدا من خلال التعامل بين أحمد والتجار والعمال والرعاة، هو الذي أرسى قواعد الأمن والطمأنينة في الزبارة، وكان الركن الأساس للازدهار والتطور والتقدم.

هذا التعايش بين هذه الفئات المختلفة، وحرص كل منهم على نشر العدالة والإخوة بين جميع أطراف المجتمع، قد دعت الكثيرين للقدوم إلى الزبارة للإقامة فيها، وشجعت التجار لممارسة نشاطهم في سوق الزبارة المنتعش قياساً إلى أسواق المدن الساحلية الأخرى في الخليج العربي.

وشاءت الأقدار أن يرزق الله أحمد بابن آخر بعد خمسة سنوات من ولادة ابنه محمد، فأسماه يوسف، ذلك الاسم الذي ادخره من قبل ليسمي فيه ابنه الأول لما كان والده على قيد الحياة، ثم أسمى ابنه الثالث عبد المحسن.

وأصبح ابنه محمد ذي الخمسة أعوام يلزمه في المجلس كل يوم، وقد نَمى فيه والده هذه الخصلة في تعليم صغار السن بعبادات وتقاليد الكبار منذ حداثة سنهم، فقد كان أحمد من قبل يجلس مع والده في مجلسه في الكويت، فكانت هذه الجلسات سر حصافته وحسن تعامله مع الناس بحكمة ووقار.

لم يخلُ مجلسه من الأدباء والعلماء، فكان له مجموعة من الندماء والمستشارين، بعضهم تعرف بهم بعد إقامته في الزبارة، وبعضهم الآخر كان على معرفة به قبل وصوله الزبارة، أيام الكويت والبصرة، وآخرون كانوا أصدقاء لوالده قبل وفاته، وملازمين له، يأخذ برأيهم في كل صغيرة وكبيرة، ويستشيرهم في الأمور التي تهم المدينة الجديدة.

وكان أحمد إذا أراد الخروج صباحاً للاطمئنان على حال السوق التجارية، وحركة الميناء والاطلاع على سير الأمور فيه، يصطحب معه بعضاً من هؤلاء الندماء، وذلك حسب ما يقتضيه الحال في وقته. وفي أحد الأيام، بينما كان أحمد يسير مع ندمائه، وإذا بجماعة يمشون في

السوق، وقد بدت على أحدهم علامات الفقر، في ثيابه الرثة، ووجهه الكئيب، فنظر أحمد إليه، ثم قال لصاحبه:

- يؤسفني حال هذا الرجل، ما نعطيه برأيك؟

فأجاب صاحبه بثقة:

- نعطيه درهمين، وسيكون شاكراً لهذا، وسيفرح جداً بهما.

لكن أحمد أجابه:

- إن كان هذا العطاء يليق به، فهو لا يليق بنا..

ثم أخرج كيساً فيه مائة درهم ودفعها إليه وقال له:

- هذا حقك من المال.. وسامحنا وادعونا لنا.

لهج لسان المسكين بالدعاء لأحمد وهو يمسك بكيس النقود وكأنه كان قد دعا الله ليلاً كي يرزقه فساق الله له الرزق على يدي الشيخ أحمد، كما كانوا يسمونه في الزبارة.

(إن الدرس الذي علمه أحمد لصديقه الذي يسير معه، هو في السخاء والكرم، وأن الناس تعطي على قدر نفسها وليس على قدر المعطى إليه، وذلك يفتح أمامنا باب العطاء المتكلف من الأدنى إلى الأعلى، والذي يعتبر مذموماً من الطرفين، فالأولى أن يكون المعطي على

قدر استطاعته، ولما كانت استطاعة أحمد أن يبذل له مائة درهم، بينما كان الدرهمان سيفرحان الرجل المسكين وسيكفيانه قوت يومه، إلا أنه أثر أن يعطيه بحيث يسد له حاجته لأسابيع على أقل تقدير).

لم تقتصر مهمة بعض ندمائه على الأخذ برأيهم واستشارتهم في بعض الأمور، بل إن أحمد بن رزق قد فعلَ مبدأ العمل التكافلي الذي يضمن للجميع المشاركة في إنجازهِ.

ومن أبرز النقاط التي تشير إلى ذلك، تكليفه أحد أصدقائه بمهمة القيام على تنفيذ الأعمال الخيرية، والتي يأمر بإنشائها أحمد، كالمدارس والمساجد وحفر الآبار وما إلى ذلك.

كما أنه كان يرسل المعسرّين إلى الحج على نفقته الخاصة في كل عام، فيقبل الناس إليه ليسجلوا أسماءهم للسفر، وقد أوكل مهمة متابعة هذا الأمر إلى رجل آخر من أصدقائه، فكانت مهمته أيضاً إجراء الإحصائيات اللازمة بأعداد الحجاج، وقيمة مصاريفهم، وتأمين سكنهم، وحماية قافلتهم ذهاباً وإياباً. حتى أنه أمر بحفر بئر في طريق الحجاج، كي يسهل عليهم السفر كل هذه المسافة.

وكان يواظب على الجلوس في محله التجاري لإدارة تجارته من خلاله، فاختار محله في وسط السوق، وجعله على مساحة واسعة، بحيث إنه كان متجرّاً في قسم منه، ومجلساً مصغراً في القسم الآخر، يستقبل التجار فيه.

تعلق أحمد بتجارة اللؤلؤ وكان مولعاً بها، وامتناز بخبرة فريدة في هذا المجال، فأصبح ملجأً لباقي التجار الذين يفدون إليه لعرض بضائعهم عليه، كي يفيدهم بقيمتها الحقيقية، وفي النهاية يخرجون من عنده وثمان اللآلئ بحوزتهم.

فكان يشتري كل ما يُجمع من لآلئ في قطر والبحرين وغيرهما من المدن الساحلية، بل إن العرف صار بين التجار والنواخذة على السواء هو أن تذهب اللآلئ إلى أحمد، فهو أفضل من يعطي ثمنًا مناسبًا لبضاعتهم، بالإضافة إلى أنه كان يعطيهم ثمن هذه البضاعة فور تسلمه لها، فضلاً عن ثقتهم العالية به، وبتقديره للجيد من الرديء دون أن يبخسهم حقهم في ذلك.

هذا الأمر جعل لأحمد أعداءً من التجار سواء أكانوا محليين أم أجانب عن الخليج العربي، أولئك الذين يقتتصون الفرصة لرؤية هذا الصرح الذي بناه أحمد على القواعد التي أرساها والده من قبله. بيد أن أحمد كان يقظاً إزاء ما يحيط به من مؤامرات ومخططات تسعى للنيل منه.

لم تكن تجارة الشيخ مرتكزة على اللؤلؤ فحسب، بل إن تجارة اللؤلؤ كانت التجارة المفضلة لديه. ولأن اللؤلؤ من أنفس المجوهرات التي عرفتها البشرية، ولأن صياغة المجوهرات هي حرفة بعض أبناء السلاطين في الدولة العثمانية، فقد تميز أصحاب هذه المهنة بالصبر والأناة والحلم، إذ إن العمل في هذه المهنة يحتاج إلى تروٍّ وصبر.

فمن أهم الأعمال التي قام بها الشيخ إزاء تجارته، مساهمته في النقل البحري عبر السفن الخشبية الكبيرة، لنقل البضائع من الهند والدول المجاورة لها إلى موانئ الخليج العربي بعامة، وميناء الزبارة بخاصة.

في إحدى الرحلات التجارية التي أرسلها إلى الهند، والتي حمل السفينة فيها كثيرًا من البضائع من سوق الزبارة، ليتم بيعها في مدينة بومبي في الهند، على أن يتولى مهمة تسويقها هناك تجار هنود لهم سابقة في التجارة مع دول الخليج العربي، وإذ بالخبر يصل بعد أسبوع من انطلاق السفينة من الميناء، بأن السفينة غرقت في البحر مع البضاعة.

وصل الخبر إلى أحمد مساءً، فاستاء منه، خصوصًا أن حمولة بضائع السفينة تقارب الثمانين طنًا. لكنه لم يستطع إظهار حزنه وأسفه على الخسارة، كي لا يدع للحساد المتربصين به فرصة الشماتة.

انتشر الخبر بين تجار السوق، فصار حديثهم في ذلك اليوم، وذهب عدد من التجار المحبين لأحمد لمواساته في مصيبتة، بينما جاء آخرون بقصد الشماتة، وجلُّ غايتهم أن يروا علامات البؤس على محياه.

ولأنه كان يعرف عدوه من صديقه، استقبلهم بابتسامته المعهودة مرحبًا بهم ليدخلوا إلى المجلس، فاستغرب أولئك الحاسدون، فقال أحدهم مستفسرًا، بلهجة المواسي:

- لابد أنك لم تسمع بالسفينة يا شيخ..

- تقصد السفينة التي غرقت في البحر.. سمعت بها والله سيعوضنا خيراً منها بقدرته وكرمه.

ثم عكف أحمد عن موضوع السفينة متحدثاً عن موضوع آخر لا علاقة له بذلك، مما زاد في حيرة هؤلاء الشامتين، والذين لم يطيّلوا الجلوس بل استأذنوا للعودة إلى منازلهم على أن يلتقوا مع الشيخ في محله التجاري في صباح اليوم التالي.

في الصباح لم يذهب أحمد إلى محله التجاري، بل جلس في المنزل محاولاً إحصاء ما تم خسارته في غرق السفينة، حيث إن البضاعة لم تكن له وحده، بل شارك معه فيها مجموعة من التجار، لكنه كان صاحب الحصة الأكبر، فضلاً عن أنه مالك السفينة.

لما تأخر أحمد عن مجلسه في السوق، قال أحد التجار المبغضين له لآخر يضحك ساخراً بجواره:

- ليلة أمس لم يكن يدرك حجم المصيبة، واليوم فقط بدأت أعراضها تظهر عليه.

لم ينتهي أحمد من مراجعاته إلا قبيل العصر، فجلس لتناول غدائه، ثم خرج إلى محله في السوق، فاستقبله بعض هؤلاء التجار:

- خيراً يا أبا محمد قلقنا عليك.. (وبسمة خبيثة لم يستطع إخفاءها في أثناء حديثه).

- أبدأ.. لكن كنت أجهز للزفاف.. (قالها أبو أحمد وهو مبتسم).
- زفاف.. زفاف مَنْ؟ (أجاب التاجر بدهشة).
- زفافي طبعاً..
- والسفينة والخسارة والبضاعة.. (التاجر مصدوماً).
- التجارة شيء والزواج شيء آخر.. (وضحك أحمد بعدها ضحكة كادت تطيح بعقول الشامتين به).
- لما عاد أحمد إلى المنزل، لم يكن أمامه إلا مصارحة زوجته أم محمد بحقيقة ما جرى، فنادها أولاً، ثم قال لها بصوت حنون:
- تعلمين يا أم محمد ما حصل معي البارحة، وكيف قضيت ليلتي متهرباً من شماتة أعدائي.
- والله كنت قلقة عليك يا أبا محمد، حتى أنا لم أستطع النوم.. ونتركهم لله سبحانه ليحاسبهم على حسدهم وضيق عينهم.
- يحاول أحمد أن يفتح موضوع الزواج لكنه محرج بعض الشيء منه، حيث إنه لم يكن في الحسبان هذا الأمر. فتابع قائلاً:
- لابد أن أظهر لهم أنني بخير، وأنني لم أتأثر بهذا، وعليه يجب أن نقيم فرحاً في منزلنا، ندعو إليه جميع أهل الزبارة.
- وأنا معك بهذا.. لكن فرح ماذا.. أي ما المناسبة؟

- زواج.. (وعيناه تتظران بطرف إليها).

- أبداً أبداً.. محمد صغير ولن أرضى بتزويجه الآن.

- لكن أبو محمد كبير ويصلح للزواج.. (رافق كلماته ابتسامة راجفة تروح وتأتي على شفثيه).

إن فكرة الزواج بامرأة ثانية، عند النساء بخاصة، تشير في نفسها الذعر من المستقبل، وتزرع في نفسها الريبة من الماضي المفترض أنه كان جميلاً، فليست امرأة تقبل بهذا الأمر مباشرة، على الرغم من يقينها بأنه حق مشروع للزوج، شرعه الله سبحانه له في كتابه العظيم.

بعد محاولات استمرت لأيام بين أحمد وزوجته، رضخت الزوجة لرغبة أحمد بعد أن أقنعها بأن هذا الأمر شكلي صوري لا أكثر ولا أقل، فقط كي يكيد أعداءه بذلك، ويثبت لهم أنه يعيش حياته بفرح واطمئنان وسعادة ولم يتأثر بفرق السفينة.

وعلى الرغم من محاولات زوجته الحثيثة للبحث عن وسيلة أخرى لإقامة حفل الفرح دون اللجوء إلى زواج، إلا أنها لم تستطع إقناع أحمد بذلك، فتمت موافقتها على ما أراد، بعد أن أمطرها بوعود بأنها ستبقى الأولى ذات المكانة العزيزة.. لكن موافقتها كانت لعلمها بعدل أحمد وحكمته.

بعد أن تيقن أحمد من الموافقة، أخبر والدته بأنه ينوي الزواج في القريب العاجل، وأنه يطلب موافقتها له على ذلك. لم تكن الأم لتقف

حاجزًا أمام رغبة ابنها، لكنها كانت متسائلة عن السبب الذي يدعوه إلى ذلك، والسؤال الأول والوحيد الذي همسته في أذنه على الرغم من أنهما يجلسان وحيدتين في الغرفة:

- هل هناك مشكلة مع زوجتك أم محمد؟

- أبدًا يا والدتي.. لكن هذه سنة الله في خلقه.. فقول لي مبروك.

- ألف مبروك يا ولدي.. وأتمنى لك حياة سعيدة وأوصيك بالعدل بينهما.

حدد أحمد ليلة منتصف الشهر لتكون ليلة زواجه. وتم الفرح في أوانه وعمّت أجواء السعادة المكان وصدور المقربين منه، بينما عم الغم والغيظ صدور الحاقدين عليه.

إن ازدهار التجارة في الزبارة لم يكن عارضًا في ذلك الوقت، ولم يكن السبب الوحيد الذي أنماها يعود إلى الوباء الذي ضرب الكويت والبصرة والزبير، ونقل تجارة هذه المناطق إلى الزبارة، بل إنه من الأجدر أن نسلم الأمر بأن التجارة العالمية قد شهدت ازدهارًا ملحوظًا بين الغرب والشرق، وبخاصة بين شرق آسيا والخليج العربي، حيث إن الخليج العربي كان سوقًا رائجًا للبضاعة القادمة من الهند.

حتى وإن كان للوباء تأثيره آنذاك على التجارة في الخليج العربي، فهو لم يسبب إلا قلقًا في السفن التجارية المسافرة من

وإلى الموانئ الخليجية، وهذا القلق كان في بحث هؤلاء التجار عن عقدة تجارية جديدة يفرغون فيها حمولتهم التي ستنتقل بعد ذلك على الدواب إلى البوادي الداخلية لشبه الجزيرة العربية، ثم إلى الأسواق في بلاد الشام.

فجاء ميناء الزبارة تعويضاً مناسباً لهؤلاء التجار، وبخاصة أن الضرائب المفروضة عليها كانت زهيدة لدرجة لا تذكر، مقارنة مع ما كانوا يدفعونه في الموانئ الأخرى التي ينزلون فيها قبل الوصول إلى الزبارة.

كانت السفن التجارية الهندية في تلك الفترة، بالإضافة إلى سفن الحماية البريطانية التي تفرض حمايتها على الخليج العربي والتي ساهمت لاحقاً في العملية التجارية في النقل بين الغرب والخليج، هي المتحكم الوحيد في هذا النوع من التجارة، موازية لتجارة اللؤلؤ التي لقيت رواجاً في الأسواق الأجنبية.

هذا الأمر دعا أحمد بن رزق إلى التفكير في المشاركة في هذه التجارة، وعدم الاكتفاء بتجارة اللؤلؤ، وذلك لتوسيع مصادر الدخل، وخصوصاً ألا مانع من مساهمته في ذلك. فأوعز إلى بناء السفن في الزبارة للقيام بمهمة بناء سفن تجارية كبيرة الحجم بحيث تستطيع حمل ما يقارب المائة طن من البضاعة.

بل إنه أراد لهذه السفن أن تكون بضعف حجم سفن النقل المعروفة آنذاك، وبهذا سيكون له السبق في إدخال السفن ذات الحجم الكبير إلى

البحر، مما يوفر عليها عدد العمالة، ويوفر عليه الوقت في شحن كميات البضائع الواردة أو الصادرة، فضلاً عن تنشيط التسويق الداخلي في سوق الزبارة، إذ يتحرر بذلك من قيود التجار الأجانب.

وكلما مرت الأيام، تزداد الزبارة ازدهاراً وعمراً، وازداد محبوب أحمد بن رزق، واتسعت التجارة، وأصبحت الزبارة تضاهي ميناء الكويت الذي كان عقدة النقل البحري ثم البري في الفترة السابقة، فأصبحت الزبارة حلقة وصل تجاري بين شرق الجزيرة العربية والهند، وكان لإنخفاض الضرائب التي كانت تحصلها الزبارة آنذاك أثره في انتعاشها التجاري والعمراني.

إن هذا الانتعاش الاقتصادي في الزبارة، دفع كثيرين من التجار وأصحاب الوجهة إلى بناء قصور لهم داخل السور، وازدادت نسبة السكان في المدينة حتى بدأ الوافدون الجدد بالبناء خارج السور، بعد أن سمح لهم أحمد بذلك، وأعطاهم جميع حقوقهم المدنية وكأنهم مقيمون داخله.

لكن هذا الحال لم يرض بعض المقيمين خارج السور، فبدأ بعضهم يدفعون مبالغ طائلة للتجار في الداخل لشراء قطعة أرض قريبة من السوق، أو في الأحياء السكنية المنتظمة. وإن نجح بعضهم بذلك فقد عجز كثيرون عن هذا الأمر، وبقوا خارجه.

كان البناء في بداية الأمر عشوائياً في الخارج، لكن مع ازدياد أعداد الراغبين في الالتحاق بالزبارة، بدأ البناء يأخذ صفة التنظيم ضمن

أحياء متقاربة، الأمر الذي دفع أحمد بن زرق إلى تشجيع هذا الأمر، وألزم كل قادم جديد بأن يختار مكاناً قريباً من المنازل المعمورة، وتفكيره كان يتجه إلى توسعة السور ليضم هذه الأبنية لتكون ضمن الزبارة وتحت حمايتها.

كان هذا التفكير تنبؤاً مستقبلياً وخطّة يرسمها أحمد باكراً إذا ما اضطر الأمر إلى هذه التوسعة، لكن الأمر أخذ طابعاً جدياً عندما تعرضت قطر للغزو من بعض القبائل في شبه الجزيرة العربية، تلك القبائل الطامعة في السيطرة على موارد الماء والكلاً بعد أن بدأ القحط ييسط وجهه الكئيب على أصقاع البوادي.

بدأ الهلع يدب في قلوب أهل الزبارة جراء خوفهم من أن تمتد الهجمات الغازية إلى أراضيهم، وكان أكثرهم هلعاً المقيمون خارج السور، مما دعاهم إلى الدخول على أحمد في مجلسه آملين منه أن يؤمن لهم الحماية ويجد لهم حلاً من هذه المشكلة.

- يا أبا محمد ألسنا من أهل الزبارة؟ (قال أحد الوافدين عليه).

- بالطبع.. ومن خيرة أهلها.

- وكيف العمل إذا هاجمنا الغزو، إذ سنكون أول المتضررين من ذلك، فلا سور يحمينا ولا برج يلوذ عنا.

وجد أحمد أن مسألة توسعة السور أصبحت ضرورة ولا يمكن تأجيلها أكثر من ذلك. فقال:

- نجتمع اليوم إن شاء الله في هذا المجلس بعد صلاة العشاء،
فأبلغوا كل من تجدوه ليحضر معنا.

ما كادت شمس ذلك اليوم تغيب حتى كان مدخل قصر أحمد يكتظ
بالقادمين إليه لحضور الاجتماع الموعد، فبدأ صغار القوم يفسحون
المجال لكباره للدخول إلى المجلس، بينما جلس الشبان بالقرب من باب
المجلس ليكونوا على مرمى السمع مما سيحدث.

بدأ أبو أحمد كلامه بالصلاة والسلام على النبي المصطفى، ثم توجه
إليهم مخاطباً:

- إنني جمعتكم هذه الليلة للمشاركة في أمر مهم.

كلهم مصفون إليه دون أن يقاطعه أحد، فتابع:

- كما تعلمون، فإن قطر قد تعرضت لغزو من بعض القبائل الطامعة
فيها، وهذا يجعلنا نقلق في إمكانية أن يمتد هذا الغزو إلى أراضينا،
وخصوصاً أن مقومات وأسباب غزوها متوفرة لدينا بفضل الله ثم بفضل
سواعدكم وأمانتكم وحرصكم على نماء الزبارة.

نظر أحمد في المجلس حتى يرى إن كان لأحد تعقيب على هذا
الكلام، لكن الجميع مكتفٍ بالإنصات، فأكمل:

- أرى أنه من المناسب أن نبنى سوراً آخر يوازي السور الأول، بحيث يضم كل البيوت التي بنيت خارج السور، فتصبح جميع البيوت داخل سور الزبارة.. هذا من جهة.

بدت الوجوه مبتهجة بعد هذا الخبر المفرح، حتى أن بعض الصبية المتواجدين على باب المجلس هرعوا راكضين إلى منازلهم لتبشير أمهاتهم بأن بيوتهم ستصبح داخل السور. والطريف أن أحد الأطفال استوقف آخر له مستفسراً:

- كيف سينقلون بيوتنا إلى داخل السور؟

فتلبك الثاني لكنه أجاب:

- لا أدري.. هي مهمة الشيخ أبو محمد.

في المجلس تابع أحمد حديثه قائلاً:

- ومن جهة أخرى.. فإن ذلك يؤمن الحماية لنا من القبائل الغازية.. بخاصة أنها قبائل غير منظمة، وليست جيشاً وبالإمكان جبهها وردعها بعد بناء السور. ويتطلب منا هذا أن نحرص على متانة وحصانة السور الجديد، فسنزيد عدد الأبراج فيه، كما أننا سنجعله أعلى من السور الأول، ليكون هو السور الرئيس للمدينة.

لم يكن من معترض على اقتراح أحمد بهذا الشأن، على العكس فقد كان الجميع مبتهجين بهذا الطرح، وأبدوا استعدادهم للإسهام في بناء

السور بالسرعة الممكنة، إذ كل منهم يرغب في فرض الحماية قبل أن تقع مصيبة الغزو المحتملة.

بالفعل لم تكن إلا أشهر حتى بدت ملامح السور الجديد واضحة، حيث إن أحمد سخر كثيرًا من العمال، بل أغلب البنائين في المنطقة للعمل على إنجاز السور في زمن قياسي، ولهذا كان العمل يتم في أكثر من جهة، فكل منهم تولى مهمة بناء قسم محدد بالأمتار، وبهذا كانت فرصة الانتهاء منه محتملة في أقل من عام.

بعد أن اطمأن أحمد إلى استقرار الأمور في بر قطر، وألا خطر يهدد الزبارة في القريب على أقل تقدير، بدأ التفكير في زيارة الكويت والبصرة.. فزيارته الكويت للاطمئنان على الأوضاع فيها، والاطمئنان على البيت والمحل اللذان تركهما وديعة عند أبي فيصل..

أما زيارته البصرة فقد كانت للاتفاق مع بعض التجار في سوقها على التعاون مع سوق الزبارة، فضلاً عن رغبته في زيارة الوالي العثماني فيها، وتذكيره بنفسه، وبأنه ابن التاجر محمد ابن رزق الذي باعهم الأخشاب الصالحة لبناء السفن إبان توسعة الأسطول العثماني.

لكن قيام مناوشات على أطراف الزبارة بين عدد من رعاة الأغنام مع بعض قطاع الطرق، ثم تهديدهم للرعاة بحزم وعنف قائلين:

- سنأتيكم إلى الزبارة وستكونون عبيدًا لنا.

لما قصَّ الرعاة هذا الخبر على أحمد، ثنى عن فكرة السفر إلى الكويت والبصرة، لكنه كان قد جهز لذلك كثيرًا من الهدايا التي كان ينوي تقديمها للوالي العثماني..

ثم ارتأى أن يرسل هذه الهدايا إلى الوالي مرفقًا معها رسالة إليه، يهديه السلام ويذكره بنفسه، وبوالده، ثم يأمل منه أن يقبل هذه الهدية كعربون صداقة بين الزيارة والبصرة.. وكانت غايته في ذلك تجارية في جانب، ونظرة مستقبلية في جانب آخر.

فأما من الناحية التجارية، فلأن سوق البصرة بدأ بالانتعاش مجددًا على غرار ما كان عليه بُعيد الوباء، فإنه من المناسب أن يكون بين السوقين علاقات تعاون تجارية، بأن يسهل الأسطول العثماني حركة السفن القادمة إلى الزيارة بموجب هذه الاتفاقية.

وأما النظرة المستقبلية فتجلت في رؤية أحمد للأخطار المحدقة بالزيارة، وعيون الحاقدين المشدوهة إلى الازدهار الذي حققه في فترة وجيزة قياسًا إلى باقي المدن.. الأمر الذي يجعل الزيارة تحت خطر الاحتلال في أية لحظة، وهذا يدفعه إلى التفكير في مكان آخر يقصده لممارسة حياته الاجتماعية كما يعيشها الآن.. فضلًا عن تثبيت قدمه في البصرة وسوقها إلى أن يحين ذلك الوقت.

أرسل أحمد الهدايا الثمينة إلى الوالي، وضمنها نفائس القطع واللآلئ والمجوهرات، فضلًا عن كميات كبيرة من السجاد المزركش، وأحمالٍ من الأقمشة التي كانت تأتي بها سفنه من الغرب ومن شرق

آسيا، غير متغافل أن يوشي كل ذلك بالتحف الفنية النادرة في جمالها وحسن إتقانها والتي كان يتوقع عليها ويشتريها من النواخذة.. حتى أن بعضهم أصبح يدور في الأسواق الغربية بحثاً عن القطع الجميلة كي يحضرها إلى الزبارة لبيعها لأحمد بن رزق.

إلا أن الأوضاع السياسية المتردية في المنطقة التي تحيط بالزبارة، وبخاصة بعد المعارك التي وقعت في الأحساء والقطيف، ألجأت أحمد إلى التفكير جدياً في الابتعاد عن الزبارة الآمنة حتى تلك اللحظة، ولم يكن ذلك جبناً منه أو رغبة في عدم المواجهة.. لكن الزبارة مدينة تجارية في الدرجة الأولى، وملأز للهاريين من المعتك السيساسي في شبه الجزيرة العربية في الدرجة الثانية، أي أنها تخلو من أي مظهر عسكري يمكن أن يجبه جيشاً أو قواتٍ برية كثيرة العدد والعتاد.

كعاداته في هذه القرارات المصيرية، فقد دعا القوم إلى اجتماع عاجل في المسجد هذه المرة، كي يكون الحضور أكثر، وكي لا تكون الدعوة محصورة في فئة دون غيرها.. فعرض عليهم الأمر، وأنذرهم بأن الخطر بدأ يهدد الزبارة بشكل جدي، فما هي إلا مسألة أيام، كما يتوقع، إلا ويكون خطر المعارك على أبواب المدينة.

- فما رأيكم.. أنحاربهم، أم نغادر المدينة إلى أن تهدأ الأمور؟
والأمر يعود إليكم.

ساد الإرباك على آراء معظم الحاضرين، فمنهم من أصر على الرحيل حتى تستقر الأوضاع، ومنهم من أثر البقاء في بيته وتجارته، ومنهم من التزم الصمت، بينما قال آخرون:

- ما رأيك أنت يا شيخ.. فنحن نسير حيثما تسير أنت.

- أنا سأغادر الزيارة إلى بلدة جَو، ريثما يأتي الله بفرج من عنده.. وأنا أنصحكم بالرحيل، حيث إننا لا نضمن الأمان لاحقاً إذا ما بقينا هنا.

إن اختياره لهذا المكان لم يكن عبثاً، بل بسبب عاملين: الأول عدم رغبته بالابتعاد عن الزيارة، ووجد في قرية جو أكثر مكان آمن يمكن اللجوء إليه كما يتمتع بالقرب منها. فضلاً عن خصوبة هذه المنطقة ووفرة المراعي فيها، حيث إنها ملتقى لثلاثة وديان. والأمر الثاني هو أن الطريق إلى البصرة كانت محفوفة بالمخاطر، ولأن حمولته كبيرة فلم يشأ المغامرة بها، وخوفاً على نفسه وعائلته وأبناء قومه في المقام الأول.

وجَو: تطلق على الأرض المنخفضة كثيرة العشب والخضرة، تعني ما اتسع من الأودية، وهي كذلك فعلاً، فهي ملتقى ثلاثة أودية كبيرة: الوادي الغزير من الشمال، ووادي عين الشيوخ من الجنوب، ووادي بركة بن نيم من الوسط.

و«جَو» اسم عربي خالص يستخدمه رجال البادية كثيراً لما أحبوه في الجواء من مرعى خصب لإبلهم، وسقاء ومورد يردون منه الماء، وفي

شبه الجزيرة العربية مناطق كثيرة تسمى بهذا الاسم، آخذين مسمائها من معناها الدال على الخصب.

انصاع كثيرون لرأي أحمد، وقرروا الرحيل معه إلى بلدة جو القرية من الزيارة من جهة، ومن بر قطر من جهة ثانية.. بينما آثر آخرون البقاء في المدينة، مرددين في ما بينهم:

- إذا نحن لم نعرضهم فلن يتعرضوا لنا بسوء.. ثم إننا أناس بسطاء، فلم سيقتلونا؟ أما الشيخ أحمد فإنه رجل ثري وصاحب وجاهة، فبالتأكيد سيقتلونه لو دخلوا المدينة، إذ هم يخشون من الرجال الأذكىاء الحكماء.

إن هجرة أحمد مع أبناء قومه عن الزيارة كانت ضرورية بالنسبة إليه وإليهم، فقد رأى أن بقاءه في الزيارة سيدعو كثيرين من الناس إلى البقاء معه، والقتال معه، والدفاع عنه وعن أنفسهم. فلم يكن أمامه سبيل إلا النجاة بهم وليس بنفسه، فاتخذ قراره يدفعه إلى ذلك حرصه على حقن الدماء قدر الإمكان.

وما هي إلا أيام، كان أحمد قد رحل مع أهله ومجموعة كبيرة من قومه إلى بلدة جَو واستقر بها، وأخذ معه في هذه الرحلة ممتلكاته وممتلكات كل من رغب في الذهاب معه، إذ إن سفن النقل الكبيرة التي يملكها، استطاعت أن تتسع لذلك، وهذا الأمر كان مساعداً له ليستطيع الإقامة في هذه المنطقة.

كان كالغيث، إن أصاب أرضاً اهتزت وربت، وأينعت وعمها الخير والازدهار والعمران، هذه هي طبيعة أحمد، فلما وصل بلدة جَو، كانت خالية إلا من بعض خيم البداوة وبضعة بيوت طينية قديمة، الأمر الذي لم يعجبه ليطرأ على هذه الحال.. فأمر بعد وصوله بأن يبدأ البناؤون بإنشاء المسجد، وكان هذا عهده دائماً في كل مكان يحط فيه، وقد ورث هذه الخصلة الحميدة عن والده الذي عمّر مسجد السوق في الكويت أول ما وصلها.

ثم أمر العمال الذين رافقوه في هجرته بأن يباشروا حفر البرك لتجميع المياه فيها، وخصوصاً وأن المنطقة التي نزلوا فيها تشكل ملتقى لعدد من الأودية، مما يجعل مسألة تخزين مياه الأمطار أمراً ميسراً وبعيداً عن مشقة الاتكال على الآبار فقط.

إن طبيعة الأرض الخصبة، وثم بدء العمل لإعداد البرك تهيؤاً لفصل الشتاء، وتخزينها للصيف الذي يليه لاحقاً، شجعت أحمد بن رزق على التفكير في الزراعة في تلك الأرض.

وهذا شغل الراحلين معه عن التفكير في صعوبة الحياة في المنطقة الجديدة بعد أن استقر بهم الحال في الزبارة، وبطبيعة الحال فقد كان معظمهم من أصحاب المهن، الزراعية والتجارية، ووجدوا في الزراعة مصدراً للرزق والعمل اليومي يغنيهم عن مشقة المصاعب التي قد يتعرضون لها في أثناء سفرهم ورحلاتهم التجارية.

وفي إزاء حفر البرك فقد أوعز أحمد بن رزق إلى العمال بحفر الآبار بحثاً عن المياه العذبة الصالحة للشرب، واختار مكاناً لهذه الآبار كان قريباً من بئر مردومة، قال أهل المنطقة بأنها كانت صالحة للشرب قديماً.

كما أنه أشار إلى قومه بأن يبدأوا بإعمار بيوتهم، ثم أوعز ببناء بيت له في تلك المنطقة، ولم يرغب في أن يجعله مرتفعاً وشاهقاً كالذي كان في الزيارة، أو في الكويت من قبل، وذلك كي لا تكون هذه المنطقة مطمعاً أيضاً لمن ظلوا متربصين بالزيارة إلى أن دخلوها واستوطنوها وجعلوها مدينتهم وتحت نفوذهم.

كان أحمد يترقب حال الزيارة عن كثب، فلا يفتأ يرسل إليها بعض معاونيه للاطمئنان عن الوضع فيها، فطوال الوقت كانت له عين ثالثة تسبر أحوال المدينة، باحثاً عن فرصة سانحة للعودة إلى المدينة التي عمَّرها، والسوق الذي بدأ نشاطه في الازدهار على مستوى ساحل الخليج العربي بالكامل.

إلا أن القبضة الأمنية التي فرضها المقيمون الجدد في الزيارة كانت شديدة وقوية، وساعدهم على ذلك السور المنيع الذي ضرب حولها مطوقاً لها قبل قدومهم إليها، فشجعهم ذلك على البقاء فيها لتكون مركزاً يمارسون من خلاله نشاطهم التوسعي في المناطق المحيطة.

بدأ بعض التجار الذين أقاموا في بلدة جَوَ بالتسلل إلى مدينة الزيارة دون أن يلاحظهم الحراس الجدد، وذلك لأنهم أهل المنطقة وأدرى بطبيعة

أرضها، وبالأوقات الملائمة للدخول عبر البوابات، وكان الأمر يستحق منهم هذه المجازفة على خطورتها، حيث إنهم أرادوا الاطمئنان على منازلهم ومحالهم التجارية، حتى وإن كانوا قد أخذوا محتوياتها معهم قبيل رحيلهم عنها، إلا أن تشوقهم لها دفعهم إلى هذه الخطوة.

كل ذلك كان يعلم أحمد وبتشجيعه ورسم الخطط لهم لتجاوز حراس السور، حيث إنهم لما استشاروه في هذا الأمر أجابهم:

- عليكم بالدخول من بوابة رعاة الماشية، حيث إن التخفي سهل من هذه البوابة.

ولما رغب عدد من التجار يقدرون بعشرة رجال في السفر، لم يكن من المناسب أن يدخلوا جميعاً من بوابة الرعاة، فالأمر حينها سيصبح مشكوكاً فيه، فانقسموا إلى قسمين، الأول يدخل من البوابة الرئيسية كتجار قادمين إلى الزيارة لشراء بعض الحاجيات، والثاني يدخل من المكان الذي اتفقوا عليه بالتسلل مع الرعاة.

أبدى أحمد رغبته بالذهاب معهم إلى الزيارة، لكنه جوبه بشدة من أبناء قومه الذين أصروا عليه بعدم الذهاب وتعريض حياته لخطر الأوضاع الأمنية فيها، الأمر الذي جعله يعكف عن رأيه بالذهاب، وأثر البقاء في المنطقة الجديدة لتعميرها كي تكون صالحة للإقامة له ولأبناء قومه.

سار خمسة من التجار إلى الزيارة صباح اليوم التالي، كي يدخلوها مع الوافدين إليها، حتى لا يشك بأمرهم، بينما انتظر الخمسة الآخرون

حتى فترة العصر لدخولها مع الرعاة القافلين إليها من مراعيهم في
بر قطر.

بدا التجار حريصين في دخولهم من البوابة الرئيسية، حتى أنهم
تركوا أوجههم مكشوفة كعادة التجار وكبار القوم، لكن ما حصل لم يكن
بالحسبان، ففي أثناء عبورهم كانت مهمة اثنين من الحراس على البوابة
هي مراقبة أوجه الداخلين منها. وهنا أطل أحد الحراس النظر في
وجه التاجر أبي سعيد الزبيري، بل استوقفه قائلاً:

- أنت.. قف هنا. (وأشار بيده إلى جانب الطريق، حيث يقف ثلاثة
أشخاص غيره).

دب الرعب في قلوب زملائه الأربعة، إذ إنهم خشوا من أن يتعرف
عليهم هذا الحارس أو ذاك، لكنهم لم يظهروا ذلك أمامهما، بل ساروا
دون أن يلفتوا الانتباه بمعرفتهم بالتاجر أبي سعيد، ودخلوا البوابة دون
أن يتعرض لهم أحد.

إن ما حصل مع أبي سعيد يشير إلى أن المقيمين الجدد في الزبارة
كانوا على معرفة ودراية بجميع الوجهاء والأعيان والتجار في الزبارة،
ويؤكد أنهم كانوا يجمعون المعلومات قبل دخولهم المدينة بفترة، ولعل هذا
الأمر يعتبر من أبرز القواعد العسكرية في الحروب والغزوات، حيث
تكون مهمة السابر، أو الجاسوس، تزويد قاداته بمعلومات عن البلد التي
ينوون الإقامة فيها، متحيناً الفرصة لإبلاغهم بالساعة المناسبة للهجوم.

كان أبوسعيد قلقاً بعض الشيء مما قد يحصل له، لكن تأكده من براءته من أي ذنب إزاء معتقله قد خفف من وطأة هذا القلق، فهو إلى الآن لا يعرف سبب اعتقالهم له، وظن أن الأمر لا يتعدى أن يكون تشابهاً بالأشكال بينه وبين أحد المسلحين الهاربين في أرجاء شبه الجزيرة العربية، إذ يخشى الحراس من هؤلاء أشد خشية، خوفاً من دخولهم لافتعال الفتنة أو الاغتيالات وما إلى ذلك، يدفعهم الانتقام والرغبة في استعادة الحق الذي يرونه مشروعا لهم.

بادره أحد الحراس قائلاً:

- ما اسمك؟!

- أبوسعيد الزبيري، أنا تاجر وأقوم ببيع...

- القماش.. القماش.. (قاطعه أحد الحراس).

ثم تابع الحارس أسئلته بحدة:

- وكيف أحوال أحمد ابن رزق.

أدرك أبوسعيد في هذه اللحظة أن سبب اعتقاله هو علاقته الوطيدة مع أحمد، وأنهم يبحثون عن كل من يعرف أحمد، سواء أكانوا أقاربه أم أصدقاء ومعارفه.

ففي مثل هذه المواقف يجدر بالشخص المعتقل التزام الهدوء والصمت وعدم الحديث بما قد يثير حفيظة السائل أو يحرض عدوانيته

عليه. وهذا ما حصل مع أبي سعيد، فالتزم الصمت ولم يجبه على سؤاله، خوفاً على نفسه. لكن الحارس تابع متهمكاً:

- تصمت طبعاً، فأنت من معاونيه ضدنا.

ثم أشار بيده إلى أحد الجنود الواقفين بجانب البوابة:

- خذوهم إلى السجن، حتى نرى كم سنجمع منهم في نهاية اليوم.

سار الجندي بهم إلى السجن، فمروا من منتصف المدينة وصولاً إليه، وهنا شاهده زملاؤه الذين دخلوا معه، فأومأ أبوسعيد لأحدهم برأسه بأن يبلغ أهله في بلدة جو بما حصل له، فأجابه الآخر بإشارة تفيد بتنفيذ ما طلبه منه.

تساور التجار الأربعة في ما بينهم لضرورة إبلاغ أحمد ابن رزق بالمستجدات التي حصلت، حفاظاً على حياة أبي سعيد، كما نبههم آخر إلى أمر ضروري أيضاً بقوله:

- يجب أن ننبه التجار الخمسة الآخرين كي لا يدخلوا الزبارة، فاتفقنا أن يدخلوها بعيد العصر، وربما كان الحراس يعرفون أحداً منهم، خصوصاً وأن الحراسة على بوابة الرعاة كانت أكثر شدة من تلك التي على البوابة الرئيسية.

وافقه التجار على الرأي، وبادرهم أحدهم قائلاً:

- إذن هيا بنا إلى السوق، نشترى بعض الحاجيات، فمن غير المعقول أن نخرج وأيدينا فارغة، فهذا سيضعنا موضع الشك.

لكن آخر أدلى بدلوه:

- برأىي أن يذهب اثنان منا، واحد إلى أحمد بن رزق، والآخر إلى التجار الخمسة لينذرهم. بينما يبقى اثنان منا هنا للاطمئنان على وضع صديقنا أبي سعيد، لعل وعسى يفرجون عنه.

سار التجار إلى السوق واشتروا بعض الأغراض الخفيفة لحملها معهم، ثم توجهوا إلى البوابة وخرجوا منها مع باقي التجار المغادرين.

كان أحمد في ذلك الوقت مشغولاً بتدبير أمور تجارته وسفنه الراسية، يقف عند الشاطئ يحضر سفينة صغيرة ليرسل بها أحد معاونيه لاستقبال سفينته التجارية التي اقترب موعد وصولها من الهند، كي ينبهاها إلى عدم الذهاب إلى ميناء الزيارة، وليأت بها معاونه إلى الشاطئ القريب من المكان الذي يسكنونه.

وصل تاجر منهما إلى البلدة واتجه مباشرة للقاء أحمد، وعاجله بقوله:

- السلام عليكم يا شيخ أبا محمد .

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، خيرًا! ألم تذهبوا إلى الزيارة كما اتفقنا في الأمس؟!

- ذهبنا وحصلت معنا مشكلة كبيرة.

- اللهم اجعله خيرًا.. ماذا حصل؟.

قام أحمد من مكانه الذي يجلس فيه، ووقف بجانب الرجل كي يعرف تفاصيل المشكلة التي حصلت معهم في رحلتهم. فقال التاجر:

- لقد أمسك الحراس بأبي سعيد، وقد عرفه أحد الحراس بينما نحن نحاول الدخول من البوابة..

- ولماذا أخذوه؟ ماذا فعل؟

- سمعتُ أنهم سألوه عنك، ولعلمهم ألقوا القبض عليه لأنه من رجالك المقربين.

شعر أحمد أنه سبب المأزق الذي وقع فيه أبوسعيد، وأنه لابد له من البحث عن طريقة للإفراج عنه، فرفع عباة تحت يده وسار قائلاً:

- خيرًا خيرًا.. ستفرج إن شاء الله.

عاد أحمد إلى البيت الذي يقيم فيه مع أسرته، وجلس في مجلسه، محاولاً البحث عن حل لإطلاق سراح صديقه أبي سعيد. وبعد فترة قصيرة وإذا بالمنادي على باب الدار، وهو سعيد ابن التاجر المعتقل، فاستقبله أحمد وأذن له بالدخول.

- اعتقلوا والدي في الزيارة يا عم.

- سمعت بذلك يا سعيد، وأنا أتابع الموضوع، وإن شاء الله سنراه بيننا في القريب العاجل.

- كيف ذلك؟ ما أظنهم يفرجون عنه.

- لا عليك، سأفاوضهم على الأمر، وسيقبلون بالعروض التي سنقدمها فدية لأبيك، فهم بحاجة للمال أكثر من حاجتهم لاعتقال أعدائهم في هذه الفترة.

كانت فكرة الفدية هي الفكرة المسيطرة على ذهن أحمد في تلك اللحظات، بيد أن عقبة كيفية التواصل معهم كانت هي المشكلة التي واجهته، فهو لا يستطيع أن يرسل فدية باسمه إليهم، ولا بأحد من رجاله، حيث إنهم لن يقبلوا عرضه، بل سيعتقلون الرسول إليهم، كي يطمعوا بفديته أيضاً.

في عصر ذلك اليوم، جمع أحمد الرأي على أن يرسل الفدية مع سعيد، إذ وجد فيه الحل الأمثل لهذه المهمة، فإذا ما قدم إليهم ودفع الفدية، فإن أحداً لن يشك بأن مرسله هو ابن رزق، بل إنهم سيصدقون بأنه بريء من الفدية، فالمتقدم بها هو ابن الشخص المسجون لديهم.

عرض الأمر على سعيد، الذي لم يتردد في الموافقة على ذلك، بل إنه شكره أعظم الشكر وأثنى عليه ثناءً بالغاً لمساعدتهم في محنتهم هذه، وأحمد يجيبه بأن هذا هو أقل الواجب تجاه الأصدقاء والأقارب.

في صباح اليوم التالي سار سعيد وهو يحمل الفدية المقدرة بألف ربية، وأعطاه أحمد ألفاً أخرى أوصاه أن يدفنها في طريقه قبل وصوله إلى الزبارة، فإذا لم يوافقوا على الفدية، عاد وأخذها وأكمل لهم المبلغ

الذي يريدونه. وأوصاه بأن يوزع المبلغ الذي معه على أماكن مختلفة من جسده، وألا يجعله في مكان واحد.

لما وصل إلى أسوار المدينة، واقترب من الباب، قام الحراس بتفتيش الأكياس التي يجلبها الوافدون معهم على دوابهم. فشاهد أحد الداخلين يمد يده ويعطي أحد الحراس قطعاً نقدية في يده، ثم بادره الحارس بابتسامة وسمح له بالدخول دون أن يفتش أغراضه.

لمعت في ذهن سعيد فكرة أن يتجرأ ليطلب من الحارس مساعدته في تخليص والده من السجن، لكن هذه الخطوة تتطلب على كثير من المخاطر، فاقترب من الحارس مسلماً عليه، ثم قال له بكل وضوح:

- جئت إلى هنا لإخراج والدي من السجن، وقد تم القبض عليه صباح البارحة.. وأنا جاهز لأي شيء تريده من الرية إلى المئة رية.

إن مبلغ مئة رية بالنسبة للحارس الذي لا يتقاضى هذا المبلغ شهرياً لقاء عمله في حراسة البوابة، يعتبر مبلغاً مغرياً وجديراً بالتفكير في العرض المقدم إليه، فأجابه بحذر:

- ومن أين أنت؟

- أنا من الزبير ووالدي رجل مسكين تم الإمساك به عن طريق الخطأ، إذ إنه لأجل الصدفة دخل البوابة مع أحد المعادين لكم، وهذا كل ما في الأمر.. وإنني لما رأيتك قلت لا مخلص لي بعد الله إلا أنت.

اطمئن الحارس بأن كلام سعيد صحيح، وبدأ ذلك من حرقه كلماته وهو يتحدث عن والده، فقال له:

- ما اسمه؟

- محمد الزبيري، ويقولون له أبوسعيد .

- حسناً .. انتظرني وقت صلاة العصر بجانب تلك الدكان، لكن ضع في هذا الكيس مئة ربية أولاً .

فتح الحارس كيساً كان بجواره يحتوي على التمر، فألقى أحمد المئة ربية في الكيس، ثم دخل من البوابة منتظراً إلى أن يحين موعد صلاة العصر كي ينتظر الحارس في المكان المتفق عليه .

لم يكن سعيد متأكداً من أن الحارس سيقوم بإخراج والده، لكنها كانت محاولة منه بذلك، عل وعسى أن يتم إطلاق سراحه دون أن يتعرض للأسئلة عن مكان إقامته وسبب تهمة والده وما إلى ذلك مما لم يرغب في الحديث فيه .

بعد أذان العصر، كان سعيد متسماً بجانب الدكان وعينه لا تفارقان الطريق الرئيسي ذهاباً وإياباً، وإذا بالحارس يقبل ويسير أمامه أبوسعيد من دون قيود أو أصفاد . أشار الحارس إلى سعيد بألا يقترب منهما، كي لا يفتضح أمره، كما أنه كان أوصى أبا سعيد بذلك أيضاً .

سارا إلى البوابة وسار سعيد وراءهما، حتى اطمأن أن والده أصبح خارج البوابة، فخرج وسار خلفه لعشرات الأمتار كي لا يلاحظ أحد من

الحراس ذلك، ولما اختلطا بقافلة كانت قادمة إلى الزبارة، ركض سعيد إلى والده واحتضنه وقبّل يديه ورأسه وهو يحمد الله على خروجه سالماً. ثم ترافقاً سوياً إلى بلدة جو، حيث أحمد ابن رزق ينتظر على أحر من الجمر.

في الطريق، عرّج سعيد على المكان الذي كان قد دفن فيه الألف ربية، فأخرجها وأعطاه لوالده، فضلاً عن أنه أعطاه ما تبقى من الألف التي كانت في حوزته، فتعجب الوالد من هذا المبلغ الذي يحمله ابنه، لكن سعيد عاجله بقوله:

- إنها من الشيخ أحمد، أعطاني إياها كي أدفع فدية لهم كي يطلقوا سراحك، لكنني استطعت أن أدفع للحارس أقل من عشر هذا المبلغ، ويحمد الله تيسر الأمر وخرجت لنا سالماً.

عظم موقف أحمد في نفس أبي سعيد، وقال لولده:

- هذه هي الصداقة الحقيقية يا ولدي، وهكذا أريدك أن تكون مع أصدقائك، وهذا معروف للشيخ أحمد لن أنساه ما حييت.

وصلا بلدة جو، وقبل أن يتوجه أبوسعيد إلى بيته للسلام على أهله، سار متجهاً إلى بيت الشيخ أحمد، فاستقبله من باحة المنزل، واحتضنه ورحب به بحفاوة، وهنأه بسلامته، ثم دعاه للدخول إلى المجلس كي يطمئن عليه ويعرف منه تفاصيل الواقعة. فقصّ أبوسعيد

ما حصل معه على أحمد، ثم استأذنه بالانصراف إلى أهله، على أن يعود إليه في المساء.

وصل أبوسعيد بيته وجلس فيه لحظات سلم فيها على أهله، ثم خرج منه عائداً إلى أحمد، فدخل عليه ثم أخرج من جيبه ألفي ربية ودفعتها إليه، قائلاً:

- جزاك الله خيراً يا شيخنا، ثم قص عليه حادثة ابنه سعيد مع الحارس الذي قبل بمئة ربية.

إلا أن أحمد رفض أن يأخذ المال منه، وأصر على أن يكون المبلغ هدية له بمناسبة عودته سالماً، على الرغم من جهود أبي سعيد المضنية في محاولة رد المبلغ إليه، لكنه فشل في ذلك.

في خضم حالة التوتر التي تعيشها معظم مناطق شبه الجزيرة العربية آنذاك، كانت المواجهات الحربية تدور على أشدها بين العثمانيين وبعض القبائل العربية، وبين القبائل العربية بعضها بعضاً. مما شكل عبءاً مادياً على الأطراف المشتركة في الصراع جميعها، وأدخل الدولة العثمانية وبخاصة والي بغداد في مأزق لعدم قدرة الدولة العثمانية على إيصال المساعدات إليه في مواعييدها المرجوة.

وبينما كان أحمد في مجلسه قبيل غياب الشمس، ومعه أبنائه الخمسة، وإذا بالخادم يستأذنه بدخول رسول وفد إليه من بغداد،

فأذن له بالدخول، وإذا به يدفع إليه رسالة حملها من الوالي العثماني في بغداد .

لم تكن مقدمة الرسالة موجهة للشيخ أحمد بن رزق، بل كتبت باسم آخر غير اسمه، وهذا ما أثار حفيظته، فسأل الرسول:

- أمتأكد أنها مرسلة لي؟

- نعم يا شيخ، أوصاني الوالي بأن أسلمها لك شخصياً .

هنا أدرك أحمد أن الوالي العثماني تعمد ألا يكتب حرفياً أن الرسالة موجهة إليه، خوفاً على الرسول من مخاطر الطريق، وحرصاً على بلدة جو وشيخها من خطر القبائل التي كانت تحارب الدولة العثمانية .

قرأ أحمد الرسالة بتمعن، ثم أمر أحد النواخذة القائمين على بعض سفنه أن يتهيئ للسفر إلى البصرة، ثم إلى بغداد . وبدأ يهيئ المعونة التي سيرسلها إلى الوالي العثماني، فجهز أحمالاً كثيرة من الأغذية والألبسة وما إلى ذلك، فضلاً عن مبلغ نقدي كبير مساعدة للوالي لتسيير أمور ولايته بعد النقص الحاد في النقد لديه .

أثر هذا الموقف تأثيراً حسناً في علاقة أحمد مع الدولة العثمانية التي كانت تفرض سلطتها على تلك المنطقة، وبخاصة في البصرة، وهي المكان الذي كان لأحمد فيه ذكريات كثيرة أيام طفولته ثم شبابه . ولعل أن هذه المساعدة كانت مدروسة من عدة جوانب بالنسبة إليه، حيث إنه كان متأكداً من أن ماله في النهاية إلى حيث مسقط رأسه في الكويت،

وأن تجارته الحقيقية ستكون في البصرة القريبة منها، وهذا يستدعي منه التعاون مع الولاة آنذاك.

وبعد أن بدأت مظاهر الاستقرار تظهر على بلدة جو، في بنيانها وعمارتها وآبارها وبركها، وازدياد عدد الوافدين إليها، ومن الملاحظ في تلك الفترة أن أحمد أشرك بعض وجهاء المنطقة ممن يسكنون جو معه في تسيير أمورها، فلم يكن بينهم إلا واحداً منهم، لكن مقامه كان محفوظاً وجانبه كان مهيباً.

بيد أن بعض هؤلاء الوجهاء تجاوزوا حدود الحلم والعقلانية، وبدأوا بافتعال المشكلات مع التجار العُمانيين، وبخاصة بعد تحول مسار التجارة عن موانئ عُمان إلى ميناء جو، إذ نشط وازهردت تجارته، وأصبح انتعاشه سبباً في كساد عمل بعض الموانئ الأخرى على الخليج العربي.

فبعد أن أصبحت جو ميناءً تجاريًا ضخمًا في الخليج، كسدت الحركة التجارية في بعض الموانئ الأخرى، فأطلق المثل «عمار جو خراب الزور»، والزور ميناء قديم جنوب مدينة الكويت بخمسين ميلاً تقريباً.

هذا الأمر أثار حفيظة التجار العُمانيين آنذاك، فرفعوا شكواهم إلى حاكمهم كي يتخذ التدابير اللازمة كي لا تتضاءل تجارتهم مع الأيام.

إن غزوات القبائل لبعضها بعضاً، واحتلال الأرض ومصادرة أملاك ساكنيها، كان سائداً في تلك الفترة، وبسبب الاضطراب

السياسي والمواجهات الحربية المتواصلة في شبه الجزيرة العربية، حيث كان الأمر غير مستهجن في بلاد يحكمها الأقوى، ويستولي على أملاكها متى ما أراد .

من هنا رأى حاكم مسقط ضرورة شن حملة عسكرية على بلدة جو لفرض الحماية على الموانئ القريبة منها، واحتكار التجارة لموانئ سلطنته كما كانت من قبل، وبدأت الإنذارات تنهال على مسامع أحمد بشأن هذا الغزو الموشك على الحدوث.

إن طبيعة حياة ابن رزق القائمة على التجارة في المقام الأول، أبعدت عنه صفة عسكرية المكان الذي يقيم فيه، على الرغم من قدرته آنذاك مادياً على إعداد جيش جرار، بيد أنه آثر الابتعاد عن السياسة والمواجهات الحربية كي لا يعرض أهالي المناطق التي ينزلها إلى خطر المداهمات والمواجهات المستمرة.

لهذا لم يكن له في بلدة جو جيش يستطيع ردع الهجوم المدرب على الحروب والمعارك، خلا بعض جنود الحراسة والتسليح لأفراد البلدة تحسباً من هجمات قطاع الطرق والغازين ذوي الاحتياجات الضئيلة، الذين يغيرون على القوافل التجارية بين الحين والآخر لكسب رزق يومهم، أو هكذا يظنون.

سيّر حاكم مسقط مجموعة من جنده باتجاه جو، فوصل خبرهم إلى أحمد الذي بادر بجمع الأعيان والوجهاء من قومه لمشاورتهم في الأمر، فتركوا الرأي له، وأجمعوا على أن يسيروا على ما سيقدره في شأنهم، حيث إنهم أصحاب تجارب معه من قبل، وأصبحت مسألة الثقة بقراراته أمراً محتوماً ومفروضاً منه.

قرر أحمد التريث حتى يصل رسول الوالي إلى البلدة، وكانت هذه هي العادة في ذلك الوقت، إذ يرسل معظم قواد الحملات المهاجمة بشكل رسمي أحد رسلهم إلى البلدة المراد مهاجمتها، فيعرضون على أهلها التسليم دون قتال، وفي ذلك حفظ للأرواح وللأرض. فكان البعض يقبل بهذه العروض السلمية، ويصر بعضهم الآخر على القتال وصد الهجمات، خصوصاً وإن كان البلد المتعرض للهجوم ذا قوة عسكرية تستطيع الدفاع عن الأرض المراد الاعتداء عليها.

لما وصل رسول حاكم مسقط إلى بلدة جو، توجه مباشرة إلى أحمد، فاستقبله أحمد وسمع منه العرض الذي كان يتوقعه مسبقاً، وكان قد اتخذ قراره بشأنه، فالعرض الذي قدمه الرسول هو أن يقوم أهالي بلدة جو بتسليم بلدتهم دون قتال، وأن يكون الميناء تحت تصرف الحاكم، فضلاً عن تعيين مسؤول من قبله على البلدة يدير شؤونها، أما وجهاء البلدة الأصليون، فيكونون ضمن عامة الشعب تحت إمرة هذا المسؤول الجديد.

وافق أحمد على هذا العرض حفاظاً على أرواح بني قومه، لكنه لم يرغب في الإقامة تحت إمرة أحد، فحمل عصا الترحال مرغماً مجدداً على السفر إلى بقعة أخرى غير البلدة التي أراد الاستقرار فيها، وكانت وجهته هذه المرة نحو مسقط رأسه الأساسي، إلى مدينة الكويت التي احتضنته صغيراً وربته شاباً إلى أن فارقها بصحبة والده في أثناء الطاعون الذي حل بها.

الفصل الرابع

الفصل الرابع

العودة إلى الوطن

بعد أن تم الاتفاق مع حاكم مسقط على تسليم بلدة جَو دون قتال
آثر معظم سكان البلدة البقاء فيها على السفر مجدداً منها، باستثناء
قلة رغبوا في الهجرة معه إلى الكويت، وهم الذين ينتمون إلى الكويت
مسقطاً للرأس حالهم في ذلك حال ابن رزق.

قبيل السفر أوصى أحمد نواخذة سُفنه الراسين في ميناء جو
بالانطلاق إلى ميناء البصرة، وأن ينتظروه فيه إلى أن يوافيهم إليه بعد
أن يصل الكويت، بيد أن بعضهم استغرب منه هذا القرار، بحكم علمهم
بنيته الرحيل إلى الكويت، فكان الأجدر به إرسال سفنه إلى ميناء الكويت،
المكان الذي سيقم فيه، لا ميناء البصرة، فسأله واحد منهم:

- لمَ لا نذهب إلى ميناء الكويت يا شيخنا؟ فأنت ستقيم في الكويت
أليس كذلك!

- افعلوا ما أقوله لكم، وعندما أصل إلى الكويت يخلق الله ما يشاء.

لم يكن هذا القرار عبثاً بالنسبة لأحمد، فإن ثروته الواسعة،
وتجارته الكبيرة، وسفنه الضخمة، أصبحت مطمئناً لكثير من الشخصيات

الانتهازية التي استغلت الأوضاع السياسية المضطربة في شبه الجزيرة العربية، وبذلك لم يكن من المناسب له الإقامة في الأماكن التي يحتمل تعرضها للغزو أو النهب.

فاختار ميناء البصرة لأنه يخضع للحماية العثمانية على عكس الموانئ الأخرى على الخليج العربي. وفي هذه الحالة سيكون مطمئنًا على تجارته وسفنه، فضلاً عن السوق التجاري المزدهر الذي تتحلّى به مدينة البصرة، إذ أصبح موثلاً للتجار من الأنحاء كافة، ومنه تخرج البضائع إلى الدول المجاورة، وإليه يأتي معظم التجار الآسيويين.

حمل أحمد عصا ترحاله من بلدة جو بعد أن رست سفن حاكم مسقط في مينائها، وودع أهلها على أمل لقائهم لاحقاً إذا قدر الله له العمر لرؤيتهم مجدداً. وكان طوال الطريق يروي لأولاده عن شوقه للكويت وأهلها، ويسترسل للحديث عن أصدقائه فيها، وعن مكانة جدهم محمد ابن رزق آنذاك، وأن الناس مازالوا يتذكرون فضله وكرمه، خصوصاً من خلال الآثار الجليلة التي تركها وراءه كمسجد السوق وآبار المياه العذبة.

إن حديثه عن الذكريات أوقد في صدره شعلة من الشوق للوصول إلى الكويت، فكانت هذه الهجرة هي الوحيدة التي لم يشعر بها أحمد بالاغتراب، فعلى الرغم من منازلته التي تركها وراءه في كل بلد هاجر منها، إلا أن بهجة العودة إلى مسقط رأسه أنسته مصيبة خسارة المجد المادي الذي بناه في الزبارة ومن ثم في جو، لكن مجد جوده وكرمه وذكره ظل باقياً محفوظاً على مدى الأيام.

وصل أحمد إلى ميناء الكويت وكانت الشمس قد استوت عمودية في منتصف السماء، وبدأت حركة الناس قليلة في الميناء، خلا بعض العمال الذين كانوا ينظفون أرضية المزاد تجهيزاً لسوق اليوم التالي.

فالسوق الساحلي، يبدأ مبكراً قبيل طلوع الشمس، ويستمر زخمه إلى فترة الضحى، يسيطر عليه صيادوا السمك بشكل رئيسي، فضلاً عن مزادات البضائع التي يجلبها التجار على السفن القادمة من بلاد شرق آسيا، وبعد فترة الضحى يبدأ التجار بالعودة إلى محالهم التجارية للممارسة نشاطاتهم من خلال البضاعة التي اشتروها أو التي باعوها في السوق الساحلي.

كان أحمد قد أرسل رسولاً إلى صديقه فيصل الذي يقيم في منزلهم في الكويت، أخبره فيه بنيته العودة إلى الكويت خلال أيام، كما فعل ذلك مع عدد من معارفه والتجار الذين كان يتعامل معهم في ميناء جو، حرصاً منه على الصدق في التعامل الذي اعتادوا رؤيته منه، فقد خشى أن يأتيه التجار إلى بلدة جو من دون أن يجدوه، ولهذا أرسل إليهم بأن يكون لقاءه بهم في الكويت، وأنه سيتابع أعماله من هناك.

كان فيصل قد خرج من بيت ابن رزق بعد فترة من وفاة والده، وذلك لحاجته إلى الإقامة مع إخوته حيث يشرف على رعايتهم، إلا أنه لم يهمل البيت الذي كان في عهده، ولم يتركه دون رعاية، فكان يذهب إليه في

نهاية كل أسبوع ليشرف على تنظيفه وترميم ما يحتاج إلى الترميم منه،
إذ كان حريصاً على صون الأمانة التي تركها أبوأحمد عند والده أيام
مغادرته الكويت إلى الزبارة.

نزل أحمد من السفينة بينما انكب عمال الميناء عليه لتهنئته
بالسلامة، على الرغم من عدم معرفتهم به، لكنهم كانوا يفعلون ذلك مع
كل قادم إلى الميناء ليحظوا منه بفرضة مساعدته على تنزيل البضائع
من على ظهر السفينة، وبالتالي الحصول على أجرهم لقاء هذا العمل.

كان الأمر كما توقعوا، فقد أشار إليهم أحمد بأن يتفقا مع النوخة
على تنزيل البضائع ومن ثم حملها إلى بيته، وهنا سأله أحد العمال:

- ولكن أين بيتك يا عم؟

- اسأل عن بيت أحمد بن رزق، وسيرشدونك إليه.

بينما تقدم ابنه محمد مختصراً عليهما الحوار:

- أنا سأبقى معهم يا والدي، وسأرشدكم إلى البيت.

لم يشأ أحمد الجدل في هذا الشأن، فضربات قلبه التي تزداد
خفقاناً تحرضه على السير بسرعة إلى البيت الذي تربى فيه، فhez
رأسه بالموافقة وسار برفقة زوجته وباقي أبنائه متجاوزين العمال
باتجاه قلب المدينة.

وما هي إلا بضعة خطوات إلا والتقاوا بفيصل الذي كان بانتظارهم
هو وأولاده، وكان من قبل قد أوصى فيصل العمال المتواجدين في مرسى

السفن بشكل شبه دائم بأن يأتوا إليه ويخبروه فور وصول السفينة القادمة من جو، فلما جاءه العامل ليبشره بوصوله جهاز عربتين بخيلهما وأخذ أولاده معه واتجه مسرعاً إلى المرسى.

إن صداقة قديمة تربط بين أحمد وفيصل، الأمر الذي واضحاً من خلال اللقاء الحميم بينهما في المرسى، فأمر فيصل أولاده بأن يظلوا مع محمد لمساعدته على نقل البضائع من السفينة إلى البيت، بينما ركب مع أحمد في إحدى العربتين وركبت النسوة في العربة الثانية، واتجهوا إلى البيت متجاوزين السوق الداخلي وهما يتجاذبان أطراف الحديث الذي يتخلله الضحك وتذكر الأيام الماضية كلما مرت بهما العربة بجوار ركن من الحواري التي كانوا يلعبون فيها.

كان وضع البيت أفضل مما توقعه أحمد قبل وصوله إليه، فقد حرص فيصل على تجهيزه بكل ما يلزم قبل وصوله، فلما نزلوا جميعاً من العربتين أصر أحمد على فيصل للدخول معه إلى المجلس، إلا أنه رفض ذلك ليترك المجال لهم ليرتاحوا من عناء السفر، وأبلغ أحمد أنه قد أولم له بعد صلاة المغرب ترحيباً به، فوافقه أحمد على ذلك، ثم غادر فيصل ودخل أحمد وأسرته إلى البيت متجولين في أرجائه.

في المساء خرج أحمد من بيته برفقة أفراد أسرته تلبية لدعوة فيصل الذي أقام مأدبة لهم. وقد دعا إليها وجهاء الكويت وتجارها تقديراً لضييفه. ومنذ هذه الجلسة ثبت أحمد أركان ابنه محمد في

الكويت بين وجهائها وتجارها، حيث قام بتعريفه إليهم، موحياً لهم بأنه سيكون القائم بأعماله التجارية في الكويت، وذلك ردّاً على سؤال أحد التجار له:

- يا شيخنا أود سؤالك عن سوق اللؤلؤ في هذه الأيام، حيث إنني التقيت منذ أيام بتاجر من بومبي وبدأ أنه مولع بشراء اللآلئ، وقال إنه سيشترى اللآلئ بأسعار باهضة لم يعتد عليه السوق في الكويت ولا في الزبارة.

ابتسم أحمد وأجاب:

- يمكن لابني محمد أن يفيدك في هذا الشأن فهو من سيكون الموكل بأعماله التجارية في الكويت، ناهيك عن أنه صاحب خبرة واطلاع واسع بالآلئ وأسعارها وأصنافها.

نظر التاجر إلى محمد، وكذلك الحاضرون في المجلس، فبادرهم قائلاً، موجهاً حديثه إلى التاجر الذي استفسر عن أسعار اللؤلؤ:

- هذا التاجر الذي تتحدث عنه سيبيعها لي بعد أن يشتريها منك.

في إشارة منه إلى أن السعر الذي يدفعه محمد مقابل اللآلئ أعلى من السعر الذي يدفعه التاجر الهندي لهم، فبدأ التجار ينظرون إلى بعضهم بعضاً وهم يغبطون الشيخ أحمد على ابنه، وعلى ما سيتركه بين يديه من خير وفير.

ولأن أحمد كان حديث الوصول إلى الكويت، فقد أثر فيصل أن يعجل في الوليمة لتكون بعد أذان المغرب بفترة وجيزة، بحيث يستطيع أحمد الذهاب إلى صلاة العشاء في مسجد السوق الذي كان والده قد بناه بعيد وصوله إلى الكويت بفترة وجيزة، ويكون معه فسحة من الليل ليرتاح من سفره.

ولما خرج المصلون من المسجد، عاد أحمد برفقة أولاده إلى منزله، فجلسوا غير طويل من الوقت ثم خرج مع ابنه محمد قاصداً شاطئ البحر، والصمت يخيم عليه بينما عيناه السوداوان تتأملان المنازل والتفاصيل الدقيقة لآثار المنازل القديمة، إلى أن وصلا إلى الصخرة المشرفة على البحر والتي كان يجلس عليها مع والده عليها قبل فترة طويلة.

- هنا يا ولدي، كنا نجلس أنا وجدك -رحمه الله- قبل أن تولد أنت.. وهنا تعلمت منه الجلد والقدرة على مواجهة مشاق الحياة ومصاعبها.. وهنا بدأت صداقتي به فضلاً عن كونه أباً لي.

- رحمه الله، كم كنت أتمنى لو أنني أدركته وعرفته عن قرب.

- وهنا ستكون أنت صديقاً لي يا محمد، فالعمر قد بدأ يمضي بي مسرعاً، وصار لابد أن تعينني في التجارة، ففي نهاية المطاف فإن كل ما أملك سيؤول إليكم، أنت وإخوتك.

- أطل الله في عمرك يا ولدي، سأكون عند حسن ظنك إن شاء الله.

استرسل يروي لابنه بعض القصص التي حصلت معه في بداية مسيرته التجارية، رغبة منه في أن تكون دروسًا يستفيد منها لاحقًا في تجارته، مؤكدًا أن كسب محبة الناس وثقتهم هو سبيل النجاح، وأن التمسك بالدين ومعرفة الحلال من الحرام هو قوام التجارة وأساسها. ثم قال له:

- يا ولدي، كما تعلم فإن مجمل علاقاتي التجارية قد كونتها في الزيارة، ناهيك عن العلاقة الطيبة التي أصبحنا عليها مع الوالي العثماني في بغداد. لكن هجرتنا إلى جو، ثم منها إلى الكويت، وكذلك هجرة كثير من التجار عنهما، أدت إلى انخفاض عائداتنا التجارية لفقد الأمن والأمان. وهذا الأمر يتطلب مني الذهاب إلى البصرة ومتابعة التجارة من مينائها.

- وماذا عن ميناء الكويت.

- لا يمكننا الاستغناء عن تجارتنا هنا، فهي تجارة مزدهرة أيضًا، ولهذا فقد قررت أن تكون أنت القائم بالأعمال التجارية في الكويت، بينما سأذهب أنا مع إخوتك إلى البصرة.

شعر محمد بالسعادة لهذه الثقة التي أولاهها أبوه له، وبدأ يستمع لنصائحه إزاء ما سيكلف به من أعمال للحفاظ على سير تجارتهم والسعي بها نحو الازدهار والنماء، والأمر الذي شجعه على الإقامة في

الكويت هو عزم والده على تزويجه وإعطائه البيت الكبير ليقيم فيه مع زوجته، وبهذا سيكون منخرطاً في المجتمع الكويتي كفرد منهم، وفي السوق الكويتي كتاجر منهم أيضاً.

في فجر اليوم التالي، بعد أن صلى أحمد صلاة الفجر في المسجد مع أبنائه، أمرهم بالعودة إلى البيت إلا ابنه محمد:

- أنت يا محمد، رافقني إلى السوق الساحلي، وأنتم عودوا إلى البيت.

لم يكن اختيار محمد من بين إخوته لمرافقته إلى السوق الساحلي يعود إلى تفضيله عليهم، لكن محمد كان أكبر إخوته، وهو الذي سيبقى منهم في الكويت لممارسة التجارة فيها، بينما إخوته الآخرون فسيرحلون مع أبيهم إلى البصرة قريباً.

أراد أحمد أن يطلع ابنه على طبيعة الحياة التجارية في ميناء الكويت، والتي لم تختلف كثيراً عما كانت عليه لما كان أحمد شاباً تاجراً مع والده. فهذه هي المهمة الجليلة للأب في التوجيه والإرشاد، إذ يحاول جاهداً أن يجمع حصيلة ما تعلمه من تجارب في مسيرة حياته، ليعطي خلاصتها لفلذة كبده كي يسير على طريقه بالنجاح والمثابرة والتحلي بالأخلاق الحميدة مع الناس.

وبينما كان يشير أحمد بيده إلى بعض أنواع اللؤلئ المرغوبة في الأسواق الأوروبية والهندية، قائلاً لولده:

- هذه الوردية اللون أثنى من البيضاء الناصعة، وهي مرغوبة لدى التجار في بومبي، أما تلك المفلطحة فهي أقل ثمنًا وأقل جودة.

وإذ بأحدهم يقاطع حديثهما:

- الشيخ أحمد!

التفت أحمد إليه، وبدهشة:

- إسماعيل آغا.

ثم حضنه مسلمًا عليه بحفاوة بالغة. إن معرفة أحمد بالآغا إسماعيل العثماني تعود إلى أيام الزيارة، حيث إنه كان المراسل الخاص بوالي بغداد، وإليه أوكل الوالي مهمة إيصال الرسالة إلى الشيخ أحمد ابن رزق، والتي قدم أحمد بموجبها مساعدة مجزية على شكل هدية للوالي آنذاك.

- لقد سمعت بما حصل في الزيارة، وكان الوالي مهتمًا جدًا بأخباركم للاطمئنان عليكم، حيث إنه لم ينسى موقفك معه من قبل، فضلاً عن أعمالكم التجارية الجلييلة مع الدولة العثمانية منذ صفقة الأخشاب التي جلبها والدكم رحمه الله لعامل الدولة العثمانية في البصرة حينها. (قال ذلك إسماعيل آغا وهو متلهف لسماع أخبار الشيخ أحمد، الذي بادره قائلاً):

- كل المودة لكم على هذا الاهتمام غير المستغرب عن معاليكم،
وإنني لم أفعل إلا الواجب إزاء كرم الوالي وحسن أخلاقه مع التجار،
والحماية التي وفرها للسواحل التي تتبع لسلطانه.

- وهل تنوي الإقامة هنا في الكويت؟

- حالياً نعم.. إلى أن أوطد أركان تجارة ابني محمد. (ثم ربت على
كتفه وعرفّفه على الآغا).

كان أحمد يحرص على تقديم ابنه محمد لمعارفه ذوي النفوذ في
الدولة أو في السوق أو في المجالس الاجتماعية. هذا الأمر جعل الناس
يبدون تقديرهم وثقتهم بمحمد بناءً على ثقتهم بوالده أحمد، إلى أن
يستطيع محمد إثبات نفسه في المكانة التي وضعه أبوه فيها.

- إذن تفكر بمغادرة الكويت بعد أن تهتم بتدبير شؤون تجارتك هنا
وتضعها بين يدي ابنك محمد.

- نعم بالتأكيد، حيث إنني أرسلت سفني مسبقاً إلى ميناء البصرة،
وأظنّها الآن راسية فيه، وكما تعلم فإن سوق البصرة أنشط وأكثر أماناً
حيث إنه تحت الحماية. ولهذا فإنني سأغادر إلى البصرة في حدود شهر
من الآن.

- سيكون لنا لقاءات أخرى إن شاء الله حينها، إذ سأكون كثير
التردد على البصرة في الفترة المقبلة، فالوالي أوكل إلي مهمة متابعة
السفن التجارية في الموانئ.

- وسأزوركم أيضاً في بغداد للسلام على الوالي حفظه الله،
وسأراكم حينها إن شاء الله.

لما عاد إسماعيل آغا إلى بغداد، وبعد أن رفع تقريره التجاري للوالي
العثماني، بادره بقوله:

- أتذكر التاجر أحمد بن رزق يا مولاي.

- نعم بالطبع.. عساه أن يكون بخير بعد ما حصل له في الزيارة.

- لقد التقيته في الكويت، وهو يهديك السلام، وقد أبلغني بأنه
سيزور بغداد خلال شهر من الآن، حيث إنه سيقوم في البصرة لممارسة
أعماله التجارية منها.

- هذا أفضل خبر سمعته لهذا اليوم، فلهذا الرجل فضل علينا، ولم
يتخل عننا في محنتنا والضائقة المالية التي حلت بنا، وواجب علينا أن
نرد له المعروف أضعافاً.

إن المكانة التي استطاع أحمد أن يصل إليها في قلوب الولاة والوجهاء
والعلماء على السواء جاءت بفضل حنكته السياسية والتجارية في المقام
الأول، وبفضل صدق معاملته مع الآخرين في المقام الثاني.

ثم تابع الوالي العثماني كلامه لإسماعيل آغا:

- أرسل رسولاً إلى عاملنا على البصرة تبلغه فيه أن يستقبل التاجر
أحمد ابن رزق استقبالاً يليق بمقامه، وأن يكون استقبالاً يليق بالملك

لا بالتجار، وبأنه في ضيافتنا، وليشرف شخصياً على ترتيب زيارته من البصرة إلى بغداد للسلام علينا .

بعد مرور ثلاثة أسابيع على لقاء إسماعيل آغا بأحمد، وصل الكويت مجموعة من رجال الدولة العثمانية كان عامل الوالي على البصرة قد أرسلهم للسير مع الشيخ إلى البصرة، ومن ثم إلى بغداد، وذلك حرصاً من العامل على تنفيذ أوامر الوالي حرفياً .

في بداية الأمر استغرب أحمد عرضهم عليه لمرافقته إلى البصرة، وأوضحوا له أن الوالي هو من أمر بذلك، وهنا لم يكن من بد عن السفر، ولا مجال لتأخيرهم، فأوصى ابنه بأن يحافظ على المحل التجاري في السوق، وترك معه مبلغاً كبيراً من المال يستطيع به أن يكون من كبار التجار في الكويت. ثم أعد نفسه ورحل عن الكويت باتجاه البصرة.

كان الاستقبال الذي حظي به لدى وصوله البصرة حاشداً ومبهجاً وبيعت الغبطة في نفوس كثير من وجهاء المدينة، بل الحسد عند بعضهم الآخر الناقمين على كل تاجر ناجح في حياته، وبخاصة إن كان مقرباً من الدولة العثمانية.

كان له بيت في مدينة البصرة، لكنه لم يكن بيتاً كبيراً أو فخماً يليق بمكانته، لكنه كان متاح في ذلك الوقت، إذ إنه ورث هذا البيت من والده، إذ اشترى هذا البيت ليقيم فيه وأسرته إقامة مؤقتة عندما كان يزور البصرة لقضاء بعض الحاجيات التجارية، ولهذا لم يكن اهتمامه

به مثل اهتمامه بمنزله في الكويت، والذي كان أشبه بمنارة بين البيوت الطينية المنتشرة حوله.

ولما أراد أحمد أن يعرج على البيت ليضع أهله فيه قبل انطلاقه للسلام على العامل العثماني، اعترض عليه الرجال العثمانيون المرافقون له:

- لقد أصر الباشا علينا أن تأتية إلى القصر أنت وجميع من جاء معك من أهلك.

كان الوالي قد أعد وليمة كبيرة لمناسبة زيارة الشيخ أحمد، ودعا إليها أبرز وجهاء المدينة وأشهر تجارها، فدخل أحمد مع أبنائه للسلام على الوالي، بينما دخلت النسوة إلى القسم المخصص للنسوة من القصر، حيث كانت ضيافتهن لا تقل عن ضيافة الرجال في ديوانهم.

لبث في البصرة أسبوعاً واحداً قبل توجهه إلى بغداد لزيارة الوالي العثماني، حاول جاهداً في هذه الفترة البسيطة ترميم ما يمكن من البيت القديم، وفي نيته أن يبني قصراً يليق به فور عودته من بغداد.

كان الاحتفاء بوصول التاجر ابن رزق إلى بغداد لا يقل حفاوةً عن تلك التي حظي بها لدى وصوله إلى البصرة، فقد كان الوالي في استقباله على باب قصره الشامخ وسط المدينة العريقة، وأعد له مأدبة تليق بالملوك والأمراء، وأصر عليه أن يظل في ضيافته ثلاثة أيام.

خلال هذه الأيام كان الوالي حريصاً على حضور الشيخ أحمد لمجلسه المسائي كل يوم، يتخلل أحاديث المجلس الأخبار التي كان يرويها الشيخ للوالي، عن الوضع التجاري العام في منطقة شبه الجزيرة العربية، وخصوصاً تجارة اللؤلؤ.

أراد الوالي مكافأة الشيخ على مواقفه الجليلة مع الدولة العثمانية، فما كان منه إلا أن عرض عليه قطعة أرض يختار مكانها حيثما شاء، كي يبني فيها قصره ويقيم فيها هو وأسرته. ولم يكن منه أن يرفض هدية الوالي، فاختار مكاناً ساحلياً قريباً من البصرة، وحدده للوالي، فأذن له بالبناء فيه وبارك له الإقامة فيه، وأرسل خبراً إلى عامله على البصرة يخبره بذلك، وبأي منطقة يختارها أيضاً دون أن يعترضه أحد.

بعد عودته إلى البصرة، اتجه إلى قصر والي المدينة لشكره على ما قدمه له من مساعدة للوصول إلى قصر الوالي في بغداد.

لكن الأحداث السياسية الخطرة التي واكبت حياة ابن رزق لم تشأ التخلي عنه حتى بعد وصوله إلى البصرة، فما كاد يضع عصا ترحاله في قصر الوالي إلا وجاء النذير بأن سفناً حربية تقدر بخمسة عشر سفينة تقريباً تقترب من ميناء البصرة، فاستنفر الوالي جنده ليتأهب للتصدي لهذه القوة العسكرية، بيد أن السفن قد رست على مسافة من الساحل، حيث أرسلوا رسولاً في قارب صغير إلى المدينة ليلتقي بالحاكم العثماني فيها.

وصل الرسول إلى قصر الوالي وأبلغه بأنه مرسل من قبل حاكم مسقط، وأنه أرفق معه رسالة مكتوبة، فأخذ الوالي الرسالة وإذ بها تهديد مبطن من حاكم مسقط، وقد خيّر الوالي بين أمرين اثنين:

- كما تعلمون فإن شبه الجزيرة العربية تشهد اضطرابات عنيفة يحاول فيها كل ذي جيش السيطرة على أي بلدة تعترض طريقه، وعليه فإنني أعرض عليكم المساعدة لتقديم الدعم لنا كي نستطيع مواجهة مثل هؤلاء، والحلول مكانهم في البادية والمدن الساحلية، وإلا فإن رفضكم سيكون تأكيداً على رغبتكم في مواجهتنا، وحينها فإما الحرب وإما أن تدفعوا أتاوة تكون ضامناً في أنكم ستكونون في صفنا .

استفزت الرسالة الوالي الذي وقف في مكانه غاضباً وهو يرفع صوته:

- كيف يجرؤ على تهديد الدولة العثمانية العظمى؟ سيكون ردنا قاسياً هذه المرة، ولن نتساهل أبداً .

كان الرسول الذي أحضر الرسالة لا يزال واقفاً خارج باب الوالي منتظراً رده، بينما أحمد على وشك الخروج من القصر، فلما رآه عرفه دون تردد، واقترب منه:

- أأنت الرسول الذي جاءني برسالة حاكم مسقط إبان إقامتي في بلدة جو؟

- بلى يا شيخ أحمد، إنه أنا، وما على الرسول إلا البلاغ.

- وما الذي جاء بك إلى هنا؟

- أحضرت رسالة شبيهة بالتي وصلتكم وسلمتها لحاكم البصرة.

- انتظر هنا. (قال أحمد)

ثم طلب الإذن بالدخول إلى الوالي الذي كان في أوج غضبه، فأذن له بذلك، فقال:

- رأيت رسول حاكم مسقط ببابكم، وعلمت بأمر الرسالة التي وردتكم.

- يهددنا وكأننا من بعض حاشيته، لكنني سأكون له بالمرصاد. (قال الحاكم).

اقترب أحمد منه:

- لا تغضب، فقد وصلتني الرسالة عينها حين كنتُ في بلدة جو، وحينها اضطرت إلى ترك البلدة بما فيها كي أتجنب قتالهم، حيث إنني لست حاكمًا ولا قائد جيش. ويبدو أنه لما لم يحقق غايته بقتالي، لم يشأ أن تذهب جاهزية جيشه للحرب أدراج الرياح، فقرر القدوم إليكم.

- ونحن نملك جيشًا يستطيع أن يضع حدًا لغطرسته.

- الأوضاع غير مستقرة في المنطقة، وهذا الأمر سيزيد العبئ على الدولة العثمانية، الأفضل هو اتخاذ قرار بعيد عن المواجهة. (قال أحمد).

- وماذا تقترح علينا.. أن نرضخ لهم!

- لا.. بل مماطلتهم، فدفعت الأتاوة أفضل من سفك الدماء بين الطرفين.. وأنا سأتوصل إلى حل لتجنب المواجهة بينكما.

خرج أحمد إلى الرسول وأبلغه بأن يعود في الغد لأخذ الجواب على ما جاء به. وخلال ساعات كان الرسول قد وصل إلى قائد الرابض في سفينته، والذي عاجله:

- هل أحضرت لنا جواباً على مكتوبنا؟

- أبلغوني بأن أعود غداً لاستلام الجواب.

- هل قابلت الحاكم، هل أخبرك بذلك بنفسه؟

- لا.. لكنني قابلت أحمد ابن رزق، التاجر الذي أخرجناه من بلدة جو قبل فترة.. وقد وعدني بأن يتوصل لحل يحقن دماء الطرفين.

- أحمد ابن رزق.. طالما أعجبتني حنكته، لا بد بأنه سيقنع الوالي بدفع الأتاوة دون اضطرارنا إلى قتاله.

على الرغم من العداوة بين حاكم مسقط وأحمد، إلا أنه يحدث أحياناً أن يعجب العدو بعدوه، ولأن ابن رزق تجنب قتاله في الماضي، وفضل الخروج من جو حقناً لدماء أبناء قومه، فقد كبر في عينه، دون أن ينظر إلى هذا الأمر من مفهوم النصر والهزيمة، بل الحكمة واستعمال العقل بدلاً من التهور.

في اليوم التالي، عاد الرسول إلى قصر الحاكم، وكان الوالي قد أبلغ أحمد بموافقته على دفع الأتاوة، لكن بشرط أن يدفعها بعد أن يضمن مغادرة السفن الحربية لشواطئ مدينة البصرة، وكان هذا الشرط منطقيًا بالنسبة لأحمد، فأبلغ الرسول بهذا الشرط، ونقله بدوره إلى قائده الذي وافق عليه، وبدأت سفنه بالتحرك عودة إلى موائلها.

وجد الوالي أن رأي ابن رزق بدفع الأتاوة أفضل من القتال، لكن هذا الرأي فتح في ذهنه عن مكيدة يتخلص فيها من عدوه دون أن يلجأ لقتاله، وإن فعل ذلك فلن يلام عليه، حيث إنه في موضع الدفاع عن النفس ضد من يحاول غزو مدينته وإعلان الحرب عليها.

حيث أرسل الوالي أحد الجنود المهرة ليتولى مهمة اغتياله بعيد مغادرته ساحل البصرة، وقد تمت هذه المهمة بنجاح، ولم ينتج عنها أي ردة فعل من الجنود المرافقين له، حيث إن الرهبة قد وقعت في قلوبهم لما قتل قائدهم، فأكملوا طريق عودتهم إلى ميناء مسقط.

بعد انتهاء هذه المحنة، وعودة الاستقرار إلى البصرة، بدأ أحمد فعليًا بعملية توطيد أركان الإقامة والتجارة على السواء، وصار لابد له من الخروج من البيت القديم للبحث عن مكان يبني فيه قصره، إذ إنه لا يحب ضجة المدينة وزحامها، ويفضل الإقامة في مكان مشرف عليها، أو قريب منها، شرط أن يكون مطلقاً على البحر، فكيف إذا كان المطلوب جزيرة ذات خضرة وجمال.

جذب انتباهه موقع أجمل من ذلك الذي اقترحه على والي بغداد، ألا وهي جزيرة قريبة محاذية للشاطئ تسمى جردنال، أو الجزيرة الخضراء، لم يكن يقيم على هذه الجزيرة أحد سوى بعض الصيادين الذين بنوا لأنفسهم أعشاشاً لا ترقى لأن تشكل بلدة، فاشترى أحمد الأرض ممن تملكوها، وحصل على صك ملكية بها من الوالي العثماني، ثم بنى عليها قصره، وأحاط القصر بأجود أنواع النخيل.

ولأنه كان كوالده محباً للخير وبث الحياة في بوار الأرض وصحاريها، وتعمير المناطق التي تشكل مواقعاً استراتيجية للتجارة، وخصوصاً تلك المطلة على ساحل الخليج العربي، فقد أثار اهتمامه موقع الأرض التي كان قد أخبر الوالي عنها من قبل، حيث تشكل إطلالتها مكاناً ملائماً لإنشاء ميناء سفن يضاهاى الموانئ الكبرى، وذلك بسبب عمق مياه المنطقة المحاذية للشاطئ، مما يسمح برسو السفن قبالة مباشرة.

فقرر إعداد المكان ليكون مرسى للسفن التجارية، خصوصاً الكبيرة منها، ولأن المنطقة تتميز بهدوئها وبعدها عن ضجيج الحياة والأسواق، فقد ارتأى أن يبني قصرًا له فيها، ليجعله منتجعاً صيفياً أو ربيعياً يتنزه فيه كلما أنهكه العمل في البصرة، وليكون متنفساً له.

وهذه المنطقة التي وقع اختياره عليها أقرب إلى الكويت منها إلى البصرة، وهي وقتئذٍ منطقة خالية من السكان خلا بعض الصيادين الذين

كانوا يسيرون مسافات طويلة للوصول إليها، لاصطياد السمك الذي يكثر في مياهها، ورغبتهم في هذه المنطقة بالذات يعود لعمق مياهها.

كان أول عمل قام به بالتوازي مع بناء القصر فيها، بناء مسجد وحفر بئر للماء العذب، له ولمن معه، وللصيادين، وللتجار لاحقاً، وقد أصبح قصره من أبرز معالم الساحل المطل عليه آنذاك، لدرجة أن البحارة ونواخذة السفن كانوا يستدلون على قريهم من الشاطئ برؤية قصر ابن رزق. وقد أطلق البحارة اسم أم قصر على البلدة التي بنى أحمد فيها قصره، ومن ثم أصبح هذا الاسم مشهوراً بين العامة والخاصة.

في البصرة، استمر بممارسة أعماله التجارية، وحرص على تعليم أبنائه أساليب التجارة كما تعلمها من والده سابقاً، وهذا لم يشغله عن متابعة أحوال ابنه محمد في الكويت، فكان دائم التواصل معه والاطمئنان عليه وعلى سير تجارته هناك. وقد كان ابنه على قدر المسؤولية التي أولاها له والده، حتى أنه بدأ التفكير في توسيع تجارته وأملاكه في أثناء إقامته في الكويت، فكتب إلى والده ذات مرة يطلب منه الإذن لشراء بعض البيوت المجاورة للسوق، بعد أن عرضها ساكنوها للبيع.

لم يكن طلب محمد من أبيه استجداءً للمال كي يستطيع شراء هذه البيوت، بل حرصاً منه على تقدير والده والأخذ برأيه ومشورته والإذن منه لذلك. فمحمد كان يملك مالاً يمكنه من شراء تلك البيوت، بل فائضاً

عليه، إذ نمت تجارتته بفضل المكانة التي وضعه والده فيها إبان وجوده في الكويت.

لم يعارض رغبة ابنه في شراء البيوت التي أشار عليه بها، بل ظهر على وجهه السرور لحرص ولده على نماء تجارتته وإظهار مقدرته على الخوض في شتى سبل الرزق المشروعة. ووافقه لاحقاً على شراء مزرعة أيضاً، وأوصاه بأن يعتني بها.

لمحمد كلمته المسموعة في السوق، ولم يقتصر في تجارتته على ما يجود به البحر من خيرات، بل إنه يتابع مزادات التجار الأجانب في الميناء كلما عقدت، واستأجر لنفسه عمالاً يساعدونه في إدارة المحل التجاري الذي كان لجده من قبل، لكن المحل أصبح محالاً في كل منها صنف محدد يتاجر به، فله محل لبيع التمور وآخر لبيع الأخشاب ولوازم البناء، وآخر لبيع الأقمشة، وفي كل منها وضع عاملاً، بينما يشرف هو على كل هذا من محله الأساسي.

بالإضافة إلى أنه أشرف على ترميم مسجد السوق الذي بناه جده محمد ابن رزق إبان قدومه الكويت في بداية نشوئها، وأشرف على ترميم الآبار المخصصة للمياه العذبة في منطقة الشامية، ولم يرض أن يشاركه أحد في تحمل تكاليف هذه الإصلاحات.

كان جل اهتمام الشيخ أحمد منصباً في التجارة البحرية، إذ إنها المهنة التي ورثها عن والده، والتي يجيدها أكثر من سواها، ومهارته في إدارتها وصلت به إلى مراتب عليا في السوق العربية الخليجية

آنذاك، وخصوصاً بأنه التاجر الوحيد الذي يملك أسطولاً من سفن النقل الكبيرة.

لعل هذا الولع بالبحر هو ما دفعه ليتقلد دور النوخذة لاصطياد السمك أكثر من مرة في الشهر الواحد، برفقة أبنائه الذين اعتادوا على هذه الرحلة معه في ليالي الصيف الهادئة. وفي أثناء هذه الرحلة تكون العلاقة الودية بين الشيخ وأبنائه في أسمى صورها، بل إنهم كانوا يجدونها فرصة للمزاح مع والدهم أحياناً، أو لطلب بعض الحاجيات أحياناً أخرى، وربما للاستفسار منه عن بعض تصرفاته التي لم يستوعبوها في بعض المواقف أحياناً كثيرة.

- أنا سأذهب لأستعجل النوخذة.. يا نوخذة.. يا نوخذة..

(قال الفتى يوسف ابن الشيخ أحمد، وهو يمشي باتجاه باب المنزل، وإخوته ينتظرونه متأهبين للذهاب إلى البحر. وكان الأبناء يلقبون والدهم بالنوخذة إبان كل رحلة صيد، الأمر الذي أزال الحواجز بين الأب وأبنائه في أثناء هذه الرحلات).

- النوخذة سبقكم إلى الشاطئ، حاولوا أن تلحقوا به قبل أن يبحر لوحده. (أجابته والدتهم وهي تقف عند الباب مبتسمة).

- فعلها بنا أيضاً هذه المرة. (قال يوسف بتذمر) ثم تابع:

- أسرعوا أسرعوا فالنوخذة سبقنا.

بينما ظلت أختهم الصغرى شريفة تبكي محاولة إقناع والدتها بالسماح لها بمرافقتهم، لكنها كانت تجيبها في كل مرة:

- لا يجوز يا بنيتي.. لا يجوز، فالصيد للرجال فقط، وعندما يعود والدك سأخبره لترافقيه إلى السوق. كان هذا يهدئ أعصابها في كل مرة، وتدخل إلى البيت منتظرة شروق الشمس وعودة والدها.

بينما تراكض الإخوة نحو الشاطئ فوجدوا والدهم بانتظارهم في القارب وهو يصيح بهم مازحًا:

- كل مرة تأخرونا.

صعد الأشقاء إلى القارب وهم يلهثون:

- كل مرة تفعل هذا بنا يا حجي. (قال ابنه بتعب).

- نوخذة يا ولد.. حجي هذه على البر فقط.

كان لقب الحجي من أبرز ألقاب أحمد بن رزق، فضلاً عن لقب الشيخ الذي كان يطلق عليه كثيراً في تلك الفترة، إضافة إلى لقب النوخذة الذي قلده إياه أبناؤه، ويبدو أن والدهم قد رغب بهذا اللقب في البحر، فكان يصر عليهم بأن ينادوه به دون سواء وقتئذٍ.

ما إن خاضوا في عرض البحر حتى بدأ الأبناء بإلقاء شباكهم في الماء تحت إشراف والدهم، وسارت ليلتهم بأنس وابتهاج إلى أن أوشك الفجر على البزوغ، فأشار إليهم والدهم بالتهيؤ للعودة إلى الساحل.

أول ما وصلوا إلى الساحل، كان أحد التجار الجدد قد وقف منتظرًا الصيادين ليشتري منهم صيدهم، رغبة منه في بيعه لاحقًا في السوق، وهذا النوع من البيع كان مرغوبًا عند صيادي السمك، فبدلاً من أن يحمل أحدهم سمكه ويذهب به إلى السوق، أو يجلس ليعقد عليه المزاد، وربما طال ذلك لساعات، فإنه كان يبيعه لأحد هؤلاء التجار المنتظرين على الساحل، بسعر أقل من السوق، وفي هذه الحالة يكسب الصياد راحة بدنه ويعود باكراً إلى أهله، بينما يكسب التاجر بعض المال من بيع السمك في السوق.

- قواكم الله.. أعطوني أحمل معكم وأساعدكم (قال التاجر الجديد).

فهم يوسف مغزى المساعدة، فقال للتاجر:

- لكنها ليست كمية كبيرة، سنحملها أنا وإخوتي.

لم يعجب هذا الرد التاجر الذي أراد أن يقدم مساعدته عساه يحصل على السمك بسعر مخفض لقاء هذه المساعدة، فبادرهم دون مقدمات:

- أنا أشتريه منكم.

- لكن السمك الذي معنا نادر وسعره غالٍ. (قال يوسف، بينما يقوم أخواه بنقل الأغراض من المركب وهما يستمعان للحديث متفاجئين).

- متى صار الهامور نادرًا؟ على كل حال، كم تريد ثمنًا لها. (وأخذ يقلب السمك في السلة).

- بعشر ربيات هندية.

- نعم!! عشر ربيات!! وهل تظنني أحمد بن رزق لأستطيع دفع هذا المبلغ. (أجاب التاجر بغضب).

ضحك يوسف وأخواه، بينما تدخل الشيخ أحمد في الحديث قائلاً:

- خذ هذه السلة فهي لك، ودون أن تدفع أي شيء، اعتبرها هدية مني.

سرَّ التاجر كثيرًا بهذه الأعطية، فحملها وغادرهم وهو ينظر إلى يوسف متهمًا:

- عشر ربيات تريد إذن؟

أبدى الأبناء تذمرهم من تصرف والدهم، وكيف أنه أعطى التاجر السلة الكبيرة، بينما لم يبق على متن القارب إلا سلة صغيرة فيها بعض السمك، فأجابهم والدهم بحزم:

- هذا كي تتعلموا ألا تتهموا التجار البسطاء الذين يحاولون أن يشقوا دروبهم بخطوات قلقة. ولا تتسوا أنني كنت مثل هذا التاجر عندما كنت في سنكم.

شعر يوسف بالخجل نتيجة فعلته مع التاجر، لكنه أردف مازحًا:

- صيتك يا نوحدة ممتد حتى إلى الذين لم يلتقوا بك من قبل.

- حجّي.. حجّي.. وليس نوحدة، أصبحنا على البر الآن. (قال الشيخ أحمد مبتسمًا، ثم ربت على كتف ابنه وترافقوا جميعًا إلى منزلهم).

مرت الأيام وتجارة أحمد تزدهر أكثر من ذي قبل، ومكانته تزداد بين قومه وأهل عشيرته، وأبنائه يكبرون أمامه إذ غدوا شبانًا، وصار لكل منهم تجارته الخاصة به تحت كنف والدهم، فلكل منهم محل تجاري في سوق البصرة، يشرفون من خلالها على تجارة والدهم، وكل منهم يتحمل مسؤولية جزء من التجارة الواسعة، فأحدهم كان مهتمًا بمزارع النخيل والعناية بها ثم جني محصولها وتصديره إلى السوق، وآخر مهمته متابعة السفن وحمولاتها من البصرة إلى الموانئ الأخرى وعلى العكس، وثالث تعلم مهنة تجارة اللؤلؤ فكان ملازمًا لوالده في محله.

كان محمد كثير التردد إلى البصرة للاطمئنان على والده وإخوته، وكذلك كان والده يقوم بزيارة إلى الكويت كل فترة ليطمئن عليه، يصطحب فيها زوجته ويقوم في الكويت أسبوعًا وأحيانًا أكثر بقليل، ثم يعود إلى البصرة ثانية.

في المرة الأخيرة التي زار بها أحمد الكويت كانت للاطمئنان على ابنه محمد وأبنائه، إذ علم بمرض أحدهم، فلم يستطع الإقامة في البصرة ليلة واحدة لدى سماعه خبر مرض حفيده. إن العطف والحنان يزدادان عند الإنسان كلما تقدم به العمر، وكما قالوا قديمًا فليس أغلى

من الولد إلى ولد الولد، وهذا ما يدركه الإنسان عندما يحمل حفيده الأول بين يديه.

في إحدى الليالي الباردة، أصاب المرض الشيخ أحمد، وكان ذلك طبيعياً في تلك الأجواء، فكثيرون من أهل المدينة يصابون بالحمى والسعال مما يضطر بعضهم إلى الاستسلام للمرض ولزوم الفراش لأيام، إلى أن يتعافوا وتعود لهم صحتهم مجدداً.

وحينها لم يشأ أن يبلغ ولده في الكويت بمرضه، كي لا يقلقه عليه، وتعذر بأن هذا المرض عارض وسيزول قريباً بإذن الله، بيد أن حالته بدأت تتدهور شيئاً فشيئاً وخصوصاً لما أفاق في منتصف الليل يسعل بشكل متواصل وشديد، ممسكاً بيده قطعة قماشية يضعها على فمه كلما باغته السعال، كي لا يزعج أحداً من أهل بيته بصوت سعاله في منتصف الليل. وزوجته تعتني به محاولة التخفيف من هذا السعال بإعطائه ما وصف به الطبيب من علاج. فتارة تغلي له أعشاب الزعتر وتارة أخرى تحضر له الكمادات لتخفض من حرارة جسده.

وما إن أطل الصباح إلا وهرعت الزوجة إليه باكية:

- هل أنت بخير يا أبا محمد، لابد أن أرسل أحد الأبناء لإحضار الطبيب.

- ما الذي يخيفك؟، إنها الأعراض الطبيعية لأمراض الشتاء.

أمسكت الزوجة المنديل الأبيض الذي استعمله زوجها ليلاً ليداري
سعاله، وأعطته إياه ويدها الأخرى تكفكف دموعها.

- دم.. الله يستر. (قال أحمد).

كان لون الدم قد لطح بياض المنديل القماشي، مما يشير إلى سوء
حالته الصحية، وأن الأمور لا تبشر بخير.

- سأذهب لأخبر يوسف ليحضر الطبيب حالاً.. يوسف..
(صاحت زوجته).

- توقفني توقفني، لا تخبريهم بشيء، ناد لي على الخادم، فقط،
وإياك أن تخبري أحداً بالأمر.

خرجت الزوجة مسرعة من باب الغرفة وهي تبحث عن الخادم
الذي مازال مستغرقاً من النوم، فنهض من فراشه فزعاً لما سمع النداء،
واتجه مع أم محمد إلى الغرفة.

- هذا هو، أحضرته.

- اذهب إلى الطبيب الآن، ستجده في منزله، وأخبره بأن يأتيني في
الحال، وإياك أن تخبر أحداً بهذا.

امتل الخادم لأوامره وذهب بسرعة لإحضار الطبيب، بعد لحظات،
كان يوسف وخالد وعبدالمحسن وعبدالعزیز يقفون بباب غرفة والدهم
للاطمئنان عليه وأخذ الرضا منه قبل توجيههم إلى العمل، وهذا دأبهم

في صباح كل يوم. فدخلوا عليه وسلموا عليه، فخبأ أحمد المنديل تحت غطاءه، واستقبلهم بوجه بشوش مبتسم، ودعا لهم بالتوفيق والبركة.

خرج الأبناء من عند أبيهم، وبعدها بلحظات وصل الطبيب إلى البيت، فأدخله الخادم بسرعة إلى الغرفة، ثم خرج.

- اتركينا لوحدهنا يا أم محمد.

خرجت وهي تنظر خلفها بقلق، وأغلقت الباب لكنها بقيت منتظرة خارج الباب.

- خير يا حجي، ما الذي حصل؟ (قال الطبيب)

أخرج أحمد المنديل من تحت غطاءه ودفعه إليه:

- هذا من السعال ليلة أمس.

فتح الطبيب حقييته الجلدية السوداء، وبدأ يخرج منها أدواته الطبية وباشر فحصه، ليشرح المرض بالضبط. وأحمد ممتمل لأوامره منتظراً نتيجة هذا التشخيص.

- خيراً إن شاء الله.. هذه تقرحات في الرئة من البرد يا حجي، وستزول قريباً إن شاء الله.

- اللهم آمين.

لم يطمئن لكلام الطبيب، وخاصة أن القلق بدا واضحاً عليه وهو يقوم بتشخيص حالته.

خرج الطبيب فوجد أم محمد تنتظره، فعاجلته بقولها :

- طمني أرجوك، كيف حال أبي محمد؟

- نقول إنه بخير إن شاء الله، لكن..

- لكن ماذا؟

- أين يوسف؟ أريد الحديث معه.

- لا لا فأبو محمد لا يرغب بأن يعلم أبنائوه أي شيء عن المنديل.

لم يجد الطبيب بديلاً عن إخبارها بحقيقة الأمر:

- لابد لنا من العناية به أكثر، وعليك أن تراقبيه طوال النهار، وخصوصاً هذه الليلة، وغداً صباحاً سأزوره أيضاً.

شعرت أم محمد بأن الأمر يشوبه شيء من الخطورة على حياة زوجها، فألحت عليه بأن يخبرها بالحقيقة، إلا أنه أصر على موقفه بأنه سيعود في صباح اليوم التالي.

حدث ما كان الطبيب يخشاه، ففي صباح اليوم التالي كانت أم محمد تنتظره على باب الغرفة وهي تحمل بيدها منديلاً آخر ملطخاً بكثير من الدماء، مما يدل على تدهور الحالة الصحية لأبي أحمد.

دخل الطبيب إلى أبي محمد وطمأنه بأن هذا الأمر ممكن أن يستمر لأيام معه، لكنه يجب أن يلازم فراشه ولا يغادره، فهو يحتاج للراحة التامة كي يتعافى مما هو فيه.

ثم صارع الزوجة على انفراد بأن مرض أبي محمد خطير، وأن الدواء الذي يعطيه له ما هو إلا مسكن للألم ليس إلا. وأن الشفاء سيكون معجزة من عند الله، وأن الحل هو الدعاء بانتظار هذه المعجزة.

لا تستطيع أم محمد أن تقوم بمهمة التكتّم على هذا المرض لوحدها، فهي تحتاج لأن يقف أبناؤها معها في محنتها، وإن اضطرت لإخبارهم رغم ممانعة أبي محمد لذلك. فأسرت بذلك لابنها يوسف، وأبلغته بحقيقة مرض والده، فانهار باكياً لما سمعه منها، ثم خرج من البيت مسرعاً باتجاه بيت الطبيب، فأخذ يستفسر منه عن مرض والده، فأكد له الطبيب صحة ما قالت له والدته.

عاد يوسف إلى البيت وظل كل اليوم بجوار والده، الذي كان يصر عليه بأن يذهب لمتابعة عمله في محله التجاري، لكن الابن تذرّع بالمرض وبأنه أوكّل بعض المهام للعمال للقيام بها، بينما يرغب اليوم بالبقاء في البيت للراحة كي يستطيع استئناف العمل في اليوم التالي.

هنا كان لابد ليوسف من أن يرسل خبراً إلى أخيه محمد في الكويت ليحضر بسرعة إلى البصرة.. إذ لم يكن يعلم بالمرض الذي أصاب والده، الأمر الذي دعا محمد للسفر مع عائلته إلى البصرة فور سماعه بخبر المرض.

لما دخل محمد على والده لم يستطع منع نفسه من البكاء، فجثى أمام السرير منكباً على يدي والده يقبلهما ويدعو له بالشفاء. هنا شعر أحمد بأن الطبيب لم يصدقه القول بشأن مرضه، وأن مرضه خطير لدرجة كبيرة وخصوصاً أن الأعراض تزداد سوءاً كل يوم، وأنه بات يفقد القدرة على النهوض من فراشه للسير في أرجاء الغرفة.

ظل على هذه الحال لبضعة أيام، وابنه محمد يحضر له كل يوم طبيباً مختلفاً، ويجهد في العثور على علاج لوالده، لكن أثر الإعياء والتعب أصبح أكثر وضوحاً على أحمد. وفي صباح يوم الجمعة، استدعى أبناءه، واستجمع قواه للكلام، ثم قال بكلمات متقطعة:

- والدي رحمه الله توفي في السن نفسه، وقد حزنت كثيراً عليه
أسأل الله له الرحمة والمغفرة والجنة..

- رحمه الله.. اللهم آمين.

- وقد فجعت بموته وظللت سنة كاملة دون أن أدخل السوق أو المحل أو أن ألتقي بأحد، لكنني بعدها عدت لممارسة الحياة الطبيعية مؤمناً بقضاء الله وقدره. ويا أبنائي.. ربما كان قدري وقدر والدي أن نعيش عدد السنين ذاتها، فما أريده منكم هو أن تكونوا إخوة متحابين في ما بينكم، ولا تتخلوا عن فعل الخير والإحسان والصدقات.

- أطال الله في عمرك يا والدنا، وإنك ستشفى وستعود بأفضل حال بإذن الله. (قالوا وأكفهم لا تستطيع حبس دموعهم المنهمرة حزناً).

- يا أبنائي.. كل خائف من شيء فإنه يهرب منه، إلا الخائف من الله سبحانه وتعالى فإنه يهرب إليه، فلا ملجأ منه إلا إليه، فالزموا القرب من ربكم وكونوا عباداً صالحين.

ثم بدأ يتمم بقراءة من القرآن الكريم، وظل يتمم بها إلى أن توقفت شفتاه عن الحركة، وشخص بصره. والأبناء يحاولون إيقاظه، وزوجته ممسكة برأسه وهي تدعوه لعدم الرحيل عنهم.

كانت وفاة الشيخ أحمد راحة له من الآلام التي وصلت نهاره بلبيله دون أن يعرف طعم النوم، وفاجعة حلت بالبصرة، التي حزن أهلها جميعاً على خسارة هذا الرجل المعطاء.

كان مشهد تشييع الشيخ أحمد من أكثر المظاهر الحزينة التي شهدتها مدينة البصرة في تلك الفترة، حيث شارك في ذلك كل شرائح المجتمع، من الوالي إلى التجار إلى العمال إلى الفقراء الذين كانوا يعتاشون مما يصرفه لهم أحمد شهرياً ليعينهم على حياتهم الشاقة.

أرعى الحزن سدوله على قصر ابن رزق، واكتحلت أعين أبنائه بالدمع لأشهر، مما أثر على سير تجارتهم، إلا أنهم لم يهملوها، فقد كان العمال يقومون بمهامهم بأمانة وإخلاص، وجهد الأبناء للحرص على متابعة الأعمال الخيرية التي كان والدهم يقوم بها في حياته. ولم يجدوا إلى ذلك سبيلاً إلا العودة إلى الدفتر الخاص به، والذي كان يسجل به حركة البيع والشراء، ككل التجار.

في الصفحات الأخيرة من الدفتر وجدوا أسماء لعائلات مقيمة في الزيارة وأخرى مقيمة في البوادي على أطراف المدينة، وأمام كل منها مبلغ من المال، فآثر الأبناء إلا الذهاب إلى إحدى هذه العائلات للاستفسار عن هذا الرقم، فهل هو دين لهم على والدهم لكي يقضوه عنه؟ أو غير ذلك.

لما وصلوا إلى إحدى العائلات المذكورة، دخلوا كوخاً مبنياً من اللبن ومسقوفاً بالخشب وجريد النخل، ولم يجدوا إلا امرأة ومعها ثلاثة أطفال ترعاهم، قد احتموا من برودة الشتاء بموقد يوشك على الخمود. فسألها

عن زوجها، فأبلغته بأنه توفي في البحر منذ سنتين، فبادرها بسؤاله عما إذا كانت تعرف الشيخ أحمد بن رزق، فقالت:

- رحمه الله تعالى، ومن لا يعرف هذا الرجل الفاضل، يعلم الله أننا حزنا عليه حزن أهله عليه.

- هل كان يزوركم؟

- نعم في كل شهر، ولولا الله ثم أفضاله علينا لما استطعت أن أقوم برعاية هؤلاء الأيتام.

أخرج يوسف صرة فيها نقود، ودفعها إليها، وقال:

- هذه عن هذا الشهر والأشهر السابقة التي لم يصلك فيها شيء..

خرج يوسف وإخوته وتعاهدوا على الاستمرار بأداء الصدقة التي كان والدهم مواظباً عليها، وانقسموا إلى ثلاثة فرق، كل منهم أخذ أسماء جزء من العائلات المسجلة في الدفتر، وذهب ليعطيهم حصتهم من الصدقة.

أصبح محمد هو صاحب المشورة والرأي بين إخوته بعد وفاة والده كونه أكبرهم سناً. بعد سنوات، ونتيجة الصراعات السياسية في البصرة، اقترح محمد المقيم في الكويت على إخوته الخروج من البصرة والالتحاق به للعيش معه في الكويت، وأن يمارسوا نشاطاتهم التجارية من خلال ميناء الكويت النشط جداً آنذاك.

أصر يوسف على إخوته ليسبقوه إلى الكويت، بينما ظل مع أخيه عبد المحسن في البصرة للإشراف على نقل البضائع من ميناء البصرة إلى ميناء الكويت، وتصفية المحال التجارية مما فيها من بضائع. حيث إن هذه الهجرة تختلف عن الهجرات السابقة التي كان يقوم بها والدهم، إذ كان يهاجر بعد ضغوط عدة، وبعد ألا يبقى له سبيل إلا الرحيل، مما اضطره أحياناً لترك محاله التجارية بيد عماله دون أن يستطيع أخذ كامل أملاكه من البلد التي يقيم فيها. بينما كانت هجرة الأولاد احترازية أكثر منها قسرية فجائية.

وصل الإخوة إلى الكويت وكان أخوهم محمد في استقبالهم على مدخل الحي، ممسكاً بيد ابنه حسين البالغ حينها أربع سنوات، ثم سار معهم إلى البيت إذ إنه كان قد وضب أمور إقامتهم غداة عزم على جلبهم من البصرة.

لم تتأثر تجارة الإخوة بهذه الهجرة، فقد وطد محمد أركان تجارته منذ أن حل فيها بأمر من والده غداة عودتهم من بلدة جو. ودعا إخوته للعمل معه في تجارته، وكل منهم عمل في المجال الذي كان يعمل به من قبل.

كانوا جميعاً يقيمون في القصر الذي ورثوه عن أبيهم عن جدهم، مع أن محمد كان يملك عدداً من البيوت في الحي، إلا أنه لم يشأ لإخوته الإقامة فيها وحيداً دون أحد يشرف على رعايتهم، الأمر الذي دعاه للتفكير لي طرح فكرة الزواج على أخيه يوسف.

- أظن الوقت حان لتتزوج يا يوسف. (قال محمد)
- هذه أفضل جملة سمعتها منذ وصلت الكويت. (رد يوسف بفرح)،
فالتفت إليه أخوه خالد متدخلاً في الحوار بينهما:
- سيصبح الدور حينها عندي. (وعلت محياه ابتسامة عريضة
جعلت أخاه محمد يضحك من مداخلته).
- لا لا سيكون الدور عند عبدالمحسن. (قال محمد)
- عبد المحسن!! لماذا؟ وأنا؟! (خالد بدهشة واستغراب).
- فأجاب محمد بابتسامته المعهودة:
- لأنك ستتزوج مع أخيك خالد في الليلة نفسها.
- لم تكن فرحة الأخوين الصغيرين عبدالمحسن وعبدالعزیز أقل من
فرحة خالد ويوسف، وبعد أقل من شهر تم الزواج، وانتقل الإخوان كل
منهم إلى بيت مستقل به، وأصبح لكل واحد محله التجاري في السوق.
- بينما أصر عبدالمحسن وعبدالعزیز على الإقامة في بيتٍ قريب من
القصر، وتذرعاً بأن لا حاجة لبقائهما في بيت شقيقهما محمد، فالخدم
يمكن أن يشرفوا على الاعتناء بالبيت الذي سيقومان فيه. كما أن ذلك
لن يشكل تأثيراً على عملهما معه إذ كانا يساعدانه في تجارته، فضلاً
عن عملهما كل في تجارته. والأمر الآخر الذي دعاهما لطلب الإقامة في
بيت مستقل، هو بحثهما عن راحة شقيقهما في بيته.

حرص محمد على استقرار إخوته من خلال هذه الخطوات المصيرية، فأهم عاملين للاستقرار: الزواج وتأمين فرصة العمل، والقدرة على الإنتاج والعطاء، والإحساس بالمسؤولية تجاه كل ما يقوم به من أفعال.

بعد أشهر، سافر يوسف وخالد إلى الزيارة، للاطمئنان على ما كان لوالدهما فيها من الأملاك، وذلك بعد أن أشار عليهما أخوهم محمد بهذا، والذي شجعهما على ذلك، هو أنه أخبرهما بأن للعائلة قصر منيف فيها، ويمكنهما أن يقيما فيه كاستجمام بعد الزواج مع زوجتيهما. بينما رافق عبدالعزيز أخاه عبد المحسن إلى جو للاطمئنان على ما فيها من أرزاق لهم أيضاً، خصوصاً بعد أن كانت الأحوال قد هدأت نسبياً في تلك المنطقة.

لم يدم استقرار الحال طويلاً، فما هي إلا أشهر، أي في عام ١٨٣١م، حتى دهم الكويت وباء أشد فتكاً من ذاك الذي حل بها من قبل، فكان سريع الانتشار بين الناس، مما تسبب في وفاة أكثر من نصف سكان المدينة.

إن كثرة عدد الوفيات الناتجة عن الأوبئة يرتبط في قرب البلدة أو المدينة من مركز الوباء وابتعادها عنه، ولأن الوباء الأول الذي حل في الكويت كان بعيداً عن المركز في البصرة والزيير، فإن عدد الوفيات لم يكن كبيراً قياساً إلى العدد الضخم الناتج عن الوباء الحالي، فقد سمع الناس بالوباء قبل انتشاره ووصله إلى الكويت، الأمر الذي ساعد في هجرة عدد كبير من الكويتيين إلى البوادي والأحساء والزيارة وبر قطر.

أما هذا الوباء فقد بدأ انتشاره من الكويت، فكانت المدينة هي مركزه، وهنا كانت الطامة الكبرى على أهل المدينة، فبعضهم حرص

على العمل بالحديث النبوي الشريف: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِالطَّاعُونَ بِأَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوهَا، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا». بينما هاجر قسم من سكان المدينة وخاصة المقيمين على أطرافها.

كثيرة هي المآسي التي لحقت بمعظم الأسر في أثناء هذا الوباء، ولعل من أعظمها وأشدّها تأثيراً تلك التي حلت بقصر محمد بن أحمد ابن رزق.

كانت أعراض الوباء تظهر بسرعة على المصابين، وبعيد ظهورها بأيام قليلة، تفيض روح المصاب إلى بارئها، ولأن محمد كان قد سمع بهذه الأعراض كان دائم الحرص على عدم السماح لابنه حسين بالخروج من البيت كي لا يتعرض للعدوى من أحد المصابين.

بدأت الأعراض تظهر على والدة محمد، ولأنها طاعنة في السن فلم تستطع إخفاء معاناتها، وألمها. ولما لاحظ محمد ذلك، أدرك خطورة الموقف، فخرج مسرعاً من غرفة والدته منادياً على زوجته:

- أم حسين.. أين حسين؟

- موجود في الغرفة؟ لماذا؟ (بقلق وخوف)

- اقتربي.. خذيه واذهبي به إلى جيراننا.. بسرعة والآن فوراً.

- لماذا؟؟

- لا تسألني فقط اذهبي بسرعة.

امتثلت الزوجة لأوامر زوجها وأخذت ابنها وخرجت به مسرعة من البيت إلى بيت جيرانها، وكانوا من أسرة المناع، فرحبوا بها أشد ترحيب، لكنها ظلت قلقة، تقف عند الباب وتتنظر إلى بيتها، عسى ترى شيئاً يذهب عنها هذا القلق. ثم أمر الخدم بالخروج من المنزل والنجاة بأرواحهم، وأصر على أن يبقى لوحده بجوار والدته.

كما استدعى جاره أبا مناع، صاح عليه من نافذة المنزل، ولأن الزوجة تنتظر بلهفة وعيناها لا تفارقان البيت، فقد كانت أول من سمع صوت زوجها وهو ينادي على أبي مناع، فدخلت مسرعة وأخبرته، فخرج إلى باحة بيته واقترب من نافذة محمد الذي قال له بهمس:

- أبا مناع، أظن الوباء قد حل بنا، وأعراضه تظهر على والدتي، ولذلك فقد أرسلت زوجتي وابني حسين إليكم ليكونوا في عهدتكم إلى أن يأتي أحد إخواني.

- ولماذا أنت في الداخل؟ اخرج يا أبا حسين، انج بروحك.

- لن أترك والدتي لوحدها حتى لو كانت حياتي هي الثمن.

ثم أغلق النافذة برفق وعيناه ترمقان زوجته وابنه الواقفين غير بعيد عنه في منزل أبي مناع.

وقع خبر إصابة أم محمد بالوباء كالصاعقة على أبي مناع، وبدأ التفكير في ما لو أن الوباء انتقل بسرعة من بيت أبي حسين إلى بيته، فرفع الشماغ براحة يده وغطى به أنفه وفمه، وعاد إلى منزله.

كان محمد محباً جداً لوالدته، خصوصاً وأنها أقامت معه في منزله طوال السنوات الثلاث منذ وصولها إلى الكويت، ولهذا لم يتركها للحظة واحدة، بل ظل بجوارها يشرف على العناية بها والاهتمام بصحتها، رغم يقينه بأنه سيصاب في نهاية الأمر بالوباء نتيجة العدوى من والدته، ولم يشته ذلك عن تركها وحيدة في محنتها.

انتشر خبر وباء الكويت في شبه الجزيرة العربية، فوصل لمسامع إخوة محمد، فقرر يوسف العودة إلى الكويت للاطمئنان على أمه وأخيه، إلا أن باقي إخوته منعه من ذلك، وآثروا الانتظار إلى أن يخرج محمد من الكويت، وهم متيقنون بأنه سيقوم بهذا التصرف السليم.

لم يكن من سبيل لمعرفة ما يحدث في الكويت إلا عن طريق المهاجرين منها، والذين كانوا يروون حكايا مخيفة عن شدة فتك الوباء بالبشر هناك، مما دفع يوسف للمغامرة والسفر إلى الكويت، وأوصى باقي إخوته بانتظاره إلى حين عودته.

كان محمد يطمئن على زوجته وابنه من خلال النافذة المطلة على بيت أبي مناع، ليهدأ من روعها ويخبرها بأنه لا يزال بخير. وفي منتصف الليل سمع محمد صوت بكاء ابنه حسين، فنهض مسرعاً كالملدوغ، وخرج من فناء البيت مقترباً من بيت أبي مناع، ثم نادى على زوجته ليطمئن على حسين، بيد أنه منعها من الاقتراب، وأشار إليها من بضعة أمتار بذلك:

- ما بال حسين؟ هل هو بخير؟ هل حرارته مرتفعة؟ هل فقد وعيه؟

- لا.. لا.. إنه بخير يا أبا حسين، اطمئن، لكنه تعثر في الظلام ووقع وقدمه تؤلمه.

- الحمد لله .. الحمد لله .. ضعوا عليها كمادات باردة كي لا تتورم ..
(كان يخشى إصابة ابنه بالوباء، فكان خبر تعثره أهون عليه من سماع
خبر إصابته).

ثم تابع بحرقه وغصة الحزن تجرح كلماته وتجعلها تخرج
بحشرجة متقطعة:

- كونوا بخير يا أم حسين .. كونوا بخير.

زوجته التي لم تستطع أن ترد عليه بحرف واحد اكتفت بالبكاء وهي
تتظر إلى زوجها وهو يعود إلى المنزل ويغلق الباب خلفه، وكانت قد علمت
بأن أم محمد مصابة بالوباء، أخبرتها بذلك جارتها بعد أن أسرَّ لها
أبومناع بحقيقة مرضها، وبأن محمد رفض ترك أمه في البيت لتلاقي
مصيرها المحتوم، وآثر الموت على الحياة.

جلس محمد بجوار سرير والدته التي استسلمت للمرض، ولم
تعد تقوى على الحركة، سوى حركة جفניה اللذين كانا الإشارة
الظاهرة لمحمد بأنها لا تزال على قيد الحياة. بدأ يمسح جبينها
براحة يده ويداري سعاله باليد الأخرى، إلى أن استسلم للنوم وغفا
ويده تلامس يد أمه.

يوماً ولم يظهر محمد على النافذة، وزوجته تراقبها صباح مساء ..
لا حركة، ولا صوت، ولا حياة تبدو بعد في هذا البيت. لم يستطع أبومناع
أن يمنعها عن الذهاب لاقتحام بيت زوجها والاطمئنان عليه، ولم تستطع

النسوة فعل ذلك أيضًا، ووقفوا جميعًا ينظرون إليها لما ركضت باتجاه البيت ودخلت من بابه. ليسمعوا بعد قليل صراخها، فعرفوا أن زوجها قد توفي مع والدته. أجهشوا بالبكاء حرقه عليها وعلى وفاة جارهم وأمه، وأكثر ما كان يؤلمهم هو سماعهم لصراخها دون قدرتهم على فعل شيء.

حسين، الطفل الذي لم يستطع التوقف عن البكاء كصدي نشيج بكاء أمه من خلف الجدران، استسلم للنوم بعد تهدأتهم له. لكنه استيقظ مذعورًا في الصباح وهو ينظر إلى بيتهم، مصغيًا محاولاً أن يسمع صوت أمه، لكن بكاءها انقطع منذ الفجر، فقال والعبرة تخنق كلماته:

- عمي أبومناع، أمة توقفت عن البكاء.

اكتفى أبومناع بإغماض عينيه لبضعة ثوانٍ، ثم أمسك بيد حسين واتجه به إلى داخل البيت، وأخبر زوجته بأنه سيذهب ليحضر بعض الرجال، ويأخذوا احتياطاتهم ثم سيدخلون إلى البيت ليخرجوا محمد وأمه، فلم يعد قادرًا على الصبر أكثر وإن كلفه ذلك إصابته بالعدوى أيضًا. ثم أحضر الصبي حسين، وقال له:

- يا ولدي، بدأ المرض ينتشر، اسمع ما سأقوله لك، يجب أن أضعك في هذه الجرة الكبيرة، وأضع ابني مناع في الجرة التي بجوارها، حينها لن تصابا بالمرض، وسأترك بابها مفتوحًا لكن لا تخرجا منها وابقيا في داخلها إلى أن أسمح لكما بذلك.

إن رغبة أبي مناع في هذه الخطوة كانت بهدف دخوله إلى بيت أبي حسين دون أن يراه الصبي، حتى وإن خرج ومعه ضريح والديه، فالأفضل ألا يشاهد هذا المنظر خصوصاً وأنه طفل صغير. ووضع ابنه في جرة بجواره كي يقنعه بأنه بذلك سيحميه من الوباء.

كان يوسف قد وصل إلى الحي وهو يغطي وجهه بشماغه خشية من العدوى، وبدأ ينادي بباب أخيه:

- أبا محمد.. يا أبا محمد.

سمعه حسين وهو في الجرة، فلم يستطع منع نفسه من الالتزام بالبقاء فيها، فخرج منها مسرعاً باتجاه عمه يوسف، الذي تلقاه بفرح:

- حسين.. (قال يوسف ثم ركض نحوه واحتضنه، والصبي يبكي دون أن يستطيع التعبير عما يحس به إلا بالدموع).

دعا أبومناع حسين للعودة إلى الجرة كما ابنه مناع، ثم انفرد بيوسف وروى له الحادثة الأليمة التي أصابت عائلته، وما كان منه إلا التحسر على هذه الخسارة الكبيرة، فأمه مع أخيه وزوجته، ثم الطفل الذي تيمم مبكراً. ولا مناص إلا بمباشرة إجراءات الدفن.

أخبروا حسين بعد إتمام الدفن بأنه فقد والديه، ثم أخذوه معهم إلى خارج مدينة الكويت، حيث قد أقام كثيرٌ من أهل الكويت تجمُعاً من الخيم المتجاروة هرباً من الوباء في المدينة، وتجاور كل من يوسف الذي أرسل أيضاً في طلب إخوته إلى المكان الذي أقاموا فيه، وأبو مناع وأسرته، منتظرين زوال غمة الوباء.

إن معظم ضحايا الوباء من النساء، وهن اللواتي سطرن ملامح الإنسانية والأمومة بأبهى صورها، على الرغم من تضحيتهن بأرواحهن، فلم يعد بإمكانهن الاستمرار بالحياة أو التفكير بالنجاة بعد فقد أبنائهن أو أزواجهن أو عوائلهن بالأكمل. بل إن كثيراً منهن أصررن على احتضان أطفالهن المصابين بالوباء، بل بعد وفاتهم أيضاً، مما سبب انتقال العدوى إليهن، ولحاقهن بهم.

بعد أشهر، انزاحت غمة الوباء، وعاد إخوة محمد إلى الكويت بينما كان يوسف بانتظارهم في مضارب المدينة، وتكفل يوسف بتربية ابن شقيقه محمد، وعاهد نفسه على الحفاظ على أموال أخيه وأملاكه وتجارته إلى أن يشب حسين ويصبح قادراً على إدارة هذه التجارة.

تربى حسين في كنف عمه كواحدٍ من أولاده، ثم أثر الانتقال للإقامة في منزل والده، على الرغم من إلحاح عمه عليه بأن يبقى معهم، لكنه رفض ذلك وانتقل إلى بيت أبيه الذي أصبح بيته، وإن عمله بالتجارة منذ سن مبكرة جعله ينضج قبل أوانه، فكان قادراً على إدارة تجارته دون الحاجة إلى مساعدة أحد، وإن كان لا يستغني عن مشورة أعمامه في هذا الأمر. فضلاً عما حباه الله به من موفور صحة، وجسد يجعل الرأي له لا يستطيع تفريقه عمن يكبرونه بعشر سنوات.

وقد اشتهرت عنه هذه العزيمة والبسطة في القوة، فذات يوم صيفي، هبت الريح ظهراً على الرغم من شدة حرارة الجو، فكانت فرصة ملائمة للصيادين وأصحاب السفن الشراعية لتجهيز سفنهم والخوض في عرض البحر، وصادف مروره بجانب الرصيف البحري وإذ

بمجموعة من الرجال يحاولون جاهدين رفع الشراع على عمود الصاري استعداداً للإبحار، لكنهم عجزوا عن ذلك، فهب الشاب حسين إليهم واعتلى الصاري ورفع الشراع لوحده دون أن يساعده أحد منهم على ذلك. فصار الفتيان والشبان ورجال الحي يتباهون بقوته ويضربون المثل بها، وكلما عسر على أحد منهم شيء، استعان به.

بدأت الوحدة تتسلل إلى نفس حسين في البيت الكبير الذي يقيم فيه دون أنيس، مما جعله يفكر جدياً بالزواج كي يستقر في حياته، ويتخذ له زوجة تكون سنداً له، وتملئ عليه وحدته التي جعلته لا يجلس في بيته إلا ليلاً، بينما يقضي نهاره وبعض ليله بين السوق والساحل.

ذهب إلى عمه يوسف وأسر له عن رغبته بالزواج، وحيث إن عمه يوسف كان الأقرب إلى قلبه من بقية أعمامه، إذ إنه عاش في كنفه، فقد أثره بأن يظهر له هذه الرغبة. ودون تردد طلب يد ابنة عمه للزواج، الأمر الذي لم يعترض عليه يوسف، بل فرح بذلك وقال له:

- إذن تهيأ للزواج، ومتى ما أصبحت جاهزاً سنقيم حفل ذلك إن شاء الله.. الساعة المباركة يا حسين يا ولدي.

بعد أسبوعين، تزوج حسين بابنة عمه، واسمها مريم، فاختلفت مظاهر حياته التي كانت قبل زواجه عما أصبحت عليه بعده، فلم يعد يقضي نهاره في السوق، بل قسم وقته ليكون قبل الظهر في محله التجاري، ثم يعود إلى بيته إلى صلاة العصر، ثم يتابع تجارته إلى المساء.

كان زواج حسين موفقاً، حيث أنجبت زوجته منه ثلاثة أبناء وابنة، هم: إبراهيم وعبدالرحيم ومحمد، ثم آمنة. لكن يبدو أنه كان مقدراً لحسين أن يفجع بكل من يحب، فقد توفيت زوجته مريم جراء مرض عارض أصابها، وعجز الأطباء عن علاجها منه، والمؤنس أنها لم تذق مرارات الألم طويلاً، فما هي إلا أيام حتى تولاه الله برحمته وقبض روحها.

ظل حسين مهموماً لأشهر بعد وفاة زوجته، بينما كانت الأمة سلامة هي من تشرف على رعاية أبنائه بعد وفاة أمهم. هذا الأمر الذي أثر في حسين كثيراً، خصوصاً وأن طفلة الصغيرة كانت تنادي سلامة «أمي» في ظلها أنها أمها.

لم يجد حسين بداً من الزواج بسلامة، حيث إنها مخلصة وأمينية، فضلاً عن محبة أولاده لها، فقد عوضت عليهم مرارة الفقد والحرمان، وأخرجتهم من حالة اليتيم التي كانت لتغزو أفئدتهم لولا رحمة الله تعالى ثم عطف سلامة عليهم. وبعد سنة أنجبت سلامة ابنة لحسين، فأسمها حصة، وهو من الأسماء الشعبية الشائعة في دول شبه الجزيرة العربية.

مرت السنين، وكبر أبناء حسين وأقبلوا على الحياة التجارية كما كان دأب أبيهم وأجدادهم من قبل، وحافظوا على الالتزام بالتقاليد العائلية التي ورثوها في فعل الخير ومد يد المساعدة للمحتاجين، وتشجيع العلم وطلبته، وخصوصاً حفظ القرآن الكريم، فقد كان حسين مهتماً بمكافأة المتفوقين في الكتابات، ويشرف بنفسه على توزيع المبالغ النقدية التي يكافؤون بها نظير حفظهم لكتاب الله عز وجل.

ومن العادات التي حافظوا عليها منذ عهد جدهم محمد، تزويجهم المبكر نسبياً لأبنائهم، عملاً بحديث النبي عليه الصلاة والسلام «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج»، وهذا فضلاً عن قناعتهم أيضاً بأن استقرار الشاب لا يكون إلا بزواجه واهتمامه بأسرته والانتباه إلى تجارته، فالزواج يزيد من مسؤولياته، ويجعله مسؤولاً على أسرته بعد أن كان مسؤولاً من أسرته.

ولهذا فور أن بلغ أبناؤه سن الزواج فإنه سارع إلى تزويجهم وأفرد لكل منهم بيتاً خاصاً به، ومحلاً تجارياً مستقلاً يمارس من خلاله تجارته.

الفصل الخامس

الفصل الخامس

الجيرة والرضاعة مع آل سعود

في هذه المرحلة، كانت شبه الجزيرة العربية ترزح تحت وطأة المعتكرات الحربية القبلية التي خلقت جَوْاً مشحوناً بالتوتر السياسي؛ إذ تعاني مخاضاً عسيراً لولادة مملكة موحدة تجمع قبائل نجد تحت لواء واحد، بيد أن كثرة المتصارعين على زعامة نجد والاستئثار بحكم الرياض جعل من هذه الولادة أمراً شبه مستحيل آنذاك.

ومن أبرز نتائج هذه المعتكرات السياسية، تنازل عبدالرحمن بن فيصل عن حكم الرياض لأخيه عبدالله بن فيصل، رغبة منه في إنهاء حالة الصراع على الحكم، لكن الأوان كان قد فات حينها، فبعض زعماء القبائل كانوا متربصين بهم، منتظرين الفرصة للسيطرة على الرياض وانتزاع الحكم من بيت آل سعود، فانتهزوا حالة النزاع ليبسطوا سيطرتهم على البلدات المحيطة بالرياض، ومن ثم الهجوم المباغت من قبل ابن رشيد على مدينة الرياض، مما جعلها تسقط في يده بسهولة.

ثم بدأ بملاحقة كل من له علاقة بآل سعود الحكام الأصليين للرياض، حذراً وحيطة منه كي لا يدع مجالاً لأحد منهم يطلبه الثأر لاحقاً، بل أن يستأثر بالحكم وحده على الرياض وما حولها، وصولاً إلى نجد.

ولما شعر عبدالرحمن بن فيصل بأن الخطر قد دهم حياته وحياة أسرته، سحب معه زوجته وأبناءه وخرجوا من عمار المدن إلى قفار البوادي، متخفياً خشية من ضعاف النفوس الذين قد تسوّل لهم أنفسهم النيل منه أو من أسرته. وأول ما خطر بباله الذهاب إلى القبائل الموالية له في عمق الصحراء، في الربع الخالي تحديداً، حيث لا يمكن أن تصل يد أحد من المتمردين إليه، فحل ضيفاً على قبائل آل مرة والعجمان.

أطلق ابن رشيد رجاله بحثاً عن عبدالرحمن بن فيصل، وأوكل إليهم مهمة التخلص منه وممن معه، على أن يعطيهم نظير ذلك مكافأة مالية مجزية، فانطلقوا يجوبون القرى والبلدات بحثاً عنهما، بينما فكر آخرون بالتوجه إلى القبائل التي كان معروف عنها ولاؤها لحكام الرياض آل سعود. وهنا شعر عبدالرحمن بدنو الخطر منه، لكن ذلك لم يثبط من عزيمة المستضيفين له، بل إنهم آثروا التصدي لكل من تسول له نفسه بالدنو من مضاربهم للنيل من ضيفهم عبدالرحمن.

تهيأوا للقتال لأجل ذلك، لكن عبدالرحمن رفض أن يزج بالعشيرة في حرب ستكون خاسرة أمام جيش ابن رشيد. وحفاظاً على سلامتهم ترك أهله عندهم ثم جمع بعض الرجال الموالين له وأغار على ابن رشيد محاولاً استرداد الرياض من يده، بيد أنه لم يوفق في ذلك، حيث إن قوات خصمه كانت أكثر عدداً وعتاداً، فعاد إلى البادية مجدداً.

لكن مقامه في هذا المكان شكل خطراً عليه وعلى أبنائه وأسرته، فتوقع أن يعود ابن الرشيد لمهاجمته في أي وقت، فأرسل ابنه عبدالعزيز الذي كان يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً إلى الشيخ عيسى آل خليفة شيخ البحرين، يستأذنه في إقامة النساء والأطفال بجواره وفي حماه، فذهب عبدالعزيز وعاد بالموافقة، فأخذ النساء والأطفال وسار بهن مع أخيه محمد ومعهما بعض الموالين لهما إلى البحرين.

ثم عاد عبدالعزيز إلى البادية حيث يقيم أبوه بضيافة آل مرة والعجمان، وبدأ يتعلم الفروسية والرماية مع أقرانه من القبيلة. ثم أرسله أبوه إلى الأحساء ليفاض الترك للإقامة في الأحساء، بيد أن مندوب الوالي العثماني فيها لم يوافق على ذلك خوفاً من دخوله في معركة ليس له فيها أي مصالح، أو أنه كان يميل إلى ابن رشيد.

بعد ذلك وجد عبدالرحمن أن الهجرة من هذه المنطقة ضرورية، فذهب برفقته ولده إلى قطر لأنها أكثر أماناً من البادية القريبة من جيش ابن رشيد، واختار قطر لأنها قريبة من البحرين التي أودع أهله فيها من قبل، فالتقى بأهله وأقام فيها شهرين. ثم حمل عصا ترحاله للتوجه إلى مدينة الكويت، وفي نيته الإقامة فيها مطولاً.

سارت القافلة التي تقل الشيخ عبدالرحمن وأسرته باتجاه مدينة الكويت، وما أن كادوا يدخلوها حتى استوقفهم الحراس الذين طوّق بهم

الشيخ محمد الصباح مدينته آنذاك، مستفسرين عن سبب قدومه، فلم يرغب الشيخ عبدالرحمن بالإفصاح عن هويته الحقيقية حينها، فأخبرهم بأنه تاجر من الأحساء قصد ميناء الكويت لأمر تتعلق بتجارته. والذي شجع هذا الرأي أن هيئته كانت هيئة رجل غني صارم، خصوصاً مع البضائع التي تحملها قافلته.

إن حرص الشيخ محمد على حماية حدوده من القادمين الجدد إلى الكويت كان إجراءً احترازياً حينئذٍ، حيث إن الوضع السياسي المحيط به مضطرب أشد اضطراب، والتهديدات بغزو الكويت تأتيه من أكثر من جهة، فتارة من الدولة العثمانية التي ترغب بالسيطرة الفعلية على الكويت وضمها إلى رقعة دولتها الشاسعة، وتارة من القوات البريطانية التي تريد منه التعاون معها بأي وسيلة من الوسائل، وتارة من الخطر الذي بات يشكله ابن رشيد في الرياض وخشية من أطماعه التوسعية لاحقاً.

تجاوز الشيخ عبدالرحمن الحراس بعد أن سمحوا له بالدخول، واتجه إلى المدينة فدخلها من بوابة السور الرئيسية، وسار في طرقاتها وهو يشير بيده لابنه عبدالعزيز:

- انتظر هنا يا ولدي مع الأهل، وأنا سأدخل السوق لأمر ضروري.

لكن عبدالعزيز أصر إلا أن يرافقه إلى السوق، على أن يبقى أخوه محمد مع باقي الأهل بانتظار عودتهما. لم يشأ عبدالرحمن أن يرفض طلب ابنه للذهاب معه، خصوصاً وأنه يعلم أن سبب هذا هو رغبة عبدالعزيز في تأمين الحماية له وأن يكون عينه الثالثة من حوله.

فبينما كان الشيخ يسير بثقة وشموخ، لعلمه بأن سوق الكويت يحوي مزيجاً متنوعاً من العرب والأجانب، بحيث ليس من السهولة أن يلاحظ أحدهم أن غريباً دخل السوق يتجول فيه. كان عبدالعزيز لا يفتأ يجوس بعينه السوداوين الحادثتين أوجه المارة والباعة على السواء، حذراً وحيطة، وقد أوكل نفسه مهمة حماية والده ولو كلفه ذلك حياته.

توقف الشيخ عند أحد المحال التجارية ثم نظر يمنة ويسرة، وانتظر قليلاً حتى خرج أحد الزبائن من المحل، ثم دخله ودخل خلفه عبدالعزيز بحركة خاطفة. أثار دخوله المفاجئ استغراب صاحب المحل الذي يعرف الشيخ معرفة جيدة، حيث إنه كان على علاقة طيبة معه أيام كان في الرياض مشاركاً في صلح بين قومين كان القائم عليه الشيخ عبدالرحمن. لكن الشيخ أشار إليه بيده بألا يصدر ضجة ترحيبية برؤيته، واكتفى بالسلام عليه، إلا أن التاجر آثر إلا أن يقبل رأسه ويجلسه في مكانه.

اقترب عبدالعزيز من التاجر وسلم عليه بوجه بشوش، ثم رجع إلى الخلف، وعاد القلق مجدداً ليكحل عينيه وهو يقف بجوار الباب من الداخل، موهمًا رواد المحل بأنه يبحث عن شيء من البضاعة ليشتريه، بينما كان يسد الباب بجسده الشامخ، منعاً أن يقاطع والده والتاجر أي زبون عارض.

- سمعنا بالحدث الجلل الذي أصابكم يا شيخنا، ونسأل الله أن يعود الحق لأصحابه مجدداً، وأنا أقول ما هي إلا شدة وستزول بإذن الله. (قال التاجر بتأثر).

- إن شاء الله. (أجاب الشيخ بوقار). ثم تابع التاجر قوله:

- ستنزّلون ضيوفاً عندي يا شيخنا، وأرجو أن تقبلوا دعوتي هذه.

كان عبدالرحمن يعلم أن إقامته ستطول في الكويت، فلا مبشرات بالعودة السريعة إلى الرياض خصوصاً في خضم المعتركات السياسية والحربية التي تطوق نجد وتعصف بمعظم أطراف البادية العربية وسواحلها. فأجابه بابتسامة لا تخفي الحزن في عينيه:

- صاحب واجب أنت دائماً يا أبا سليمان، لكنني أرغب في أن تجد لي بيتاً خالياً كي أستكرهه، وأرجو منك أن تعذرني على هذه الرغبة، لكن الأيام القادمة ستجمعنا كثيراً.

حاول التاجر أن يثني الشيخ عن رأيه محاولاً إقناعه بأن يقيم عنده في منزله، إلا أن محاولاته باءت بالفشل، وتكسرت أمام إصرار الشيخ على الإقامة في بيت مستقل. وهنا ما كان من التاجر إلا أن بادره بقوله:

- البيت جاهز، وهو قريب من هنا، فهو على طرف السوق، فإذا رغبت نذهب الساعة لرؤيته.

وافق الشيخ على ذلك، وسرَّ لأنه عثر بسرعة على البيت الذي سيقوم فيه، وانطلقا سوياً إلى البيت الذي وصفه التاجر.

لما وصلا إلى مكان صاحب البيت، استأذن التاجر من الشيخ بأن يسمح له بالدخول إلى صاحب البيت ليطلب منه مفاتيح البيت والإذن في الإقامة فيه، ويبلغه بأنه عثر له على عائلة تريد استكرأه. فصاحب

البيت أصلاً كان قد أبلغ التاجر من قبل عن رغبته في تأجير هذا البيت عندما انتقل منه إلى بيت آخر قريب منه في الحي نفسه.

- البشري يا أبا عامر، فقد وجدت لك مستأجرًا يريد أن يقيم في بيتك الذي تركته. (قال التاجر لصاحب البيت). فرد عليه بلهفة:

- بشرك الله بالخير يا أبا سليمان، وأنا حاضر، أمهلني دقائق وأكون معك لنعطيه المفاتيح.

- انتظر.. انتظر.. هناك أمر يجب أن تعلمه، وهو أن الذي سيقوم في البيت ليس رجلاً عادياً.

- كيف ليس عادياً؟ لم أفهمك يا أبا سليمان.

نظر أبو سليمان حوله بعينه يمنة ويسرة، ثم اقترب برأسه من أبي عامر هامساً:

- إنه الشيخ عبدالرحمن بن فيصل.

- أمير نجد!

- نعم نعم، بفضل الله استطاع الخروج من الرياض، وهو يقف خارجاً الآن.

خرج أبو عامر بسرعة من بيته إلى أن وصل إلى الشيخ، فأقبل عليه مقبلاً رأسه، ثم أقسم عليه بالدخول إلى مجلس البيت.

تحت إلحاح أبي عامر، مع عدم رغبة الشيخ في الدخول كي لا يتأخر على ابنه محمد وأسرته الذين تركهم في أطراف السوق، دخل محرّجاً على ألا يطيل المكوث، فأبلغهم بأنه لا يستطيع التأخر على أهله الذين تركهم بانتظاره، لكنه سيدخل لاحتساء قهوة الضيافة.

بالفعل لم تطل جلسة الشيخ في مجلس أبي عامر، لكن أبا عامر لم يرض بأن يقيم الشيخ في منزله القديم، فقال له:

- يا شيخ أرجو منك أن تسمح لي بأن أخلي هذا البيت لك تقيم فيه أنت وأهلك، وأنا سأعود إلى البيت القديم، فقد اشتقت أصلاً للإقامة فيه.

رفض الشيخ عرضه بشدة، وأصر عليه إلا أن يبقى في بيته بينما سيقوم في البيت المعروض للإكراء. وهنا رضح أبوعامر لرغبة الشيخ:

- إذن أقسم عليكم بأن تكون إقامتكم في البيت الذي أعطيتكم إياه ضيافة مني لمعاليتكم، وإلا فوالله لن يرضيني إلا هذا.

تم الأمر تحت ضغط التاجر أبي سليمان وصاحب البيت أبي عامر، وخرجوا جميعاً باتجاه البيت المقصود، وما إن وصلوه حتى أرسل الشيخ ابنه عبدالعزيز ليأتي بباقي الأهل إلى هذا البيت، ثم دخل ومعه أبوعامر والتاجر، فبدأ أبوعامر يشرح للشيخ عن طبيعة البيت ومكانه والجيران كي يكون على دراية بجيرانه، فقال له:

- في هذا الاتجاه يكون المسجد، ولا يفصله عن البيت إلا مسافة قصيرة، ومن هذه الجهة بيت جيراننا القدامى الذين ستسعد بهم وكم

كنت فخوراً بجيرتهم وهو لعبد الرحيم بن حسين ابن رزق، ومن هذه الجهة تقيم امرأة مسكينة لا يسمع لها صوت، وهي حكيمة الحي كله، إذ هي من تقوم بعمليات الولادة. أما من هذه الجهة فهي براحة لا عمار فيها كما ترا.

أخذ الشيخ يتفقد أرجاء المنزل بعينه. وما هي الا لحظات حتى وصل عبدالعزيز بصحبة أمه وأخته وأخيه محمد، ثم بدأوا بإدخال الأحمال إلى باحة البيت، فاستأذن أبو عامر وأبو سليمان وخرجا منه.

لاحظ جارهم عبدالرحيم أن تجمهراً وبعض أصواتٍ توحى بجيران جدد بعد رحيل أبي عامر إلى بيته الجديد، فلمح جاره أبا عامر والتاجر أبا سليمان يمران من أمام بيته، فخرج مسرعاً إليهما:

- أبا عامر، أبا سليمان، الساعة المباركة التي نراكما فيها.

- أسعد الله مساءك يا أبا حسن.

- تفضلوا.. تفضلوا بالدخول، حياكم الله.

كان عبدالرحيم بن حسين رجلاً وقوراً صاحب دين ووجاهة، ويحظى باحترام كبير من أبناء قومه، وقد رزقه الله من زوجته الأولى سارة ابنة وحيدة أسماها مريم على اسم والدته، ثم ما لبثت زوجته طويلاً في الحياة إلا وانتقلت إلى رحمة ربها، فتزوج عبدالرحيم مرة ثانية، حيث إنه كان ما يزال شاباً ووجد أنه من غير المناسب أن يعيش أرملاً في هذا السن المبكرة، فضلاً عن حاجته إلى زوجة تقوم على رعايته ورعاية ابنته

الصغيرة مريم. فتزوج من فتاة اسمها سلطانة، وقد أنجب منها ابنه حسن وعبدالله وابنتيه فاطمة وأسماء. فصار الناس ينادونه بأبي حسن تكنياً بابنه حسن.

كان عبدالرحيم مولعاً بالأطفال الصغار، حتى أنه لا يكاد يفارقهم ولا يفارقونه، وفي المجلس حيث كان مع أبي سليمان وأبي عامر، كان أطفاله يتحلقون حوله كالفراش حول الضوء، ولم يبد انزعاجاً منهم أبداً، بل أشار إلى ابنه حسن بأن يأخذ إخوته إلى الداخل كي يلعبوا قليلاً، وبالفعل امتثل حسن لأمر أبيه وخرج من المجلس مع إخوته.

بعد أن قدم عبدالرحيم ضيافة القهوة لضييفه، قال له أبو عامر:

- هنيئاً لك يا أبا حسن، صار لك جار سيحسدك الناس عليه.

نظر إليه أبو حسن وأجابه بحنكة وذكاء:

- كان الناس يحسدونني على جيرتك يا أبا عامر، ومن وقتها وأنا أسأل الله أن يرزقني بجار مثلك.

هنا لم يكن من أبي سليمان إلا أن يتدخل في الحديث ويشارك في نقل البشرى السارة إلى أبي حسن، فقاطع أبا عامر الذي كان متهيئاً للكلام:

- جارك هو أمير نجد، الشيخ عبدالرحمن بن فيصل.

نظر عبدالرحيم إلى أبي عامر باستغراب منتظراً منه أي إشارة حتى وإن كانت بسيطة تثبت أو تنفي ما قاله أبو سليمان، فهز أبو عامر رأسه بتأييد ما قاله رفيقه. فأجاب بسعادة:

- هذا خبر تستحقان عليه وليمة فاخرة. وسأجعل هذه الوليمة غداً
إن شاء الله بمناسبة تشريف الشيخ عبدالرحمن لجوارنا.

فأجاب أبوعامر:

- هذه فكرة صائبة يا أبا حسن، مع أنني كنت أحبذ أن أكون أول من
يبادر بعقد هذه الوليمة، لكن لا ضير أن أكون بعدك.

فأردف أبوسليمان:

- وأنا بعدكما إن شاء الله، مع أنني أحقكما بهذه الوليمة حيث إنه
زارني أولاً.. لكنني أتنازل لكما عن اليومين الأولين.

ثم استأذنا بالخروج للذهاب إلى صلاة المغرب، فخرج معهما
عبدالرحيم ليؤدوا الصلاة جميعاً في المسجد القريب، وما إن خرجا من
الباب حتى سمعا باب الشيخ عبدالرحمن يفتح، وإذا به يخرج مع ولديه،
فأقبل عليه عبدالرحيم مسلماً ومقبلاً رأسه ومرحباً به، وتوجهوا جميعاً
إلى الصلاة.

كان الشيخ عبدالرحمن وقوراً حاد العينين، تعرف في وجهه علامات
الوجاهة والرفعة والمُلْك، وكذلك كان ابنه عبدالعزيز الذي يوازي أباه
طولاً، وتعطيه العباءة السوداء التي يطويها ويلقيها على كتفيه هيبة وجلالة
الأمراء وسمة الفرسان، تجعله يفوق أقرانه إذ يبدو أكبر منهم بسنوات.

بعد أن انتهت الصلاة بَكَر عبدالرحمن مع ابنه الخروج من المسجد،
وذلك لعدم الرغبة في التعرض للأسئلة إن عرفهم أحد من المصلين،

فضلاً عن أن الشيخ عبدالرحمن قد أوصى أبا حسن ورفيقاه بألا يفصحا لأحد عن هويته وأنه أصبح مقيماً في المدينة، فلم يكن منهم إلا الحفاظ على السر.

في عتمة الليل وتحت ضوء القنديل الخافت جلس الشيخ مع ولديه أمام إحدى الغرف، يتبادلون الحديث عما سيؤول إليه الحال لاحقاً، وعن الوضع الذي عليه أقاربهم الآن في نجد ونواحيها، ثم قال عبدالعزيز لوالده:

- هل ستكون إقامتنا هنا سرية يا والدي؟

فأجابه بعد تنهيدة طويلة:

- هناك أمور يجب أن تكون سرية، وأمور أخرى لا يجوز التكتم فيها. وليس من الحكمة أن يعلم جميع من في الكويت أننا مقيمون هنا، فنحن نريد الإقامة بأمن واستقرار ريثما يأذن الله بفتح من عنده يفرج عنا كربتنا.

- ولهذا سمعتك توصي جارنا أبا حسن بأن يبقي الأمر طي الكتمان.

- بالضبط يا عبدالعزيز، لكننا يجب أن نبليغ أمير البلاد بوصولنا، وكلما استعجلنا ذلك كان الأمر أفضل وأوجه لنا، فمن غير اللائق أن يسمع خبر إقامتنا من غيرنا.

- فعلاً يا والدي، لا بد من ذلك.

تابع الشيخ قائلاً:

- غداً صباحاً إن شاء الله ستذهب معي للسلام على الشيخ محمد،
فليس من المعقول أن نكون ضيوفاً في بلده دون علمه، خصوصاً وأننا
ربما نطيل المقام هنا، لكنني أخشى أن يسبب مقامي حرجاً على الشيخ.
- حرج! لماذا؟ فالشيخ محمد يَكُنُّ لك المحبة والتقدير، وتربطك به
علاقة ود قديمة.

- إنما خشيتي أن تكون إقامتنا ذريعة لابن رشيد لإعلان
الحرب على الشيخ محمد. أو محاولة ذلك على أقل تقدير.

بدأ القلق يتسلل إلى قلب عبدالعزيز بعد احتمالات أن يظهر الشيخ
محمد استياءه مثلاً، على الرغم من أن هذا كان مجرد احتمال، بيد أن
من طبيعة الملوك والقادة حساب الأوجه كافة، وأخذ الحيلة والحذر
للأمور السلبية قبل الأمور الإيجابية، وكما يقال في عرف التجار، حساب
الخسارة قبل حساب الربح.

في صباح اليوم التالي هياً الشيخ عبدالرحمن نفسه للذهاب إلى
الشيخ محمد للسلام عليه، وأخذ معه ابنه عبدالعزيز، وترك في البيت
ابنه محمد ليبقى بجوار الأهل والأسرة. ولم يكن الوصول إلى قصر
الشيخ محمد بالأمر الصعب، حيث إن الشيخ عبدالرحمن يعرفه جيداً.

في هذه الأثناء كان عبدالرحيم يهجز حاجيات الوليمة التي ينوي
إقامتها للشيخ عبدالرحمن، وبدأت زوجته بمساعدة بناته بتجهيز الموقد،
وانتظر عبدالرحيم حتى فترة الضحى ثم خرج من بيته قاصداً بيت جاره

الشيخ عبدالرحمن، ليأخذ منه الموافقة على قبول الدعوة للعشاء قبل أن يسبقه أحد إلى ذلك، ولما طرق الباب براحة يده طرقات خفيفة، كانت الإجابة سريعة من محمد بن الشيخ عبدالرحمن، إذ خرج مسرعاً وفتح الباب في ظنه أن والده وأخاه قد عادا، لكنه رأى عبدالرحيم يقف بالباب.

- تفضل يا عم، أهلاً وسهلاً بك.

- باركك الله يا ولدي، أين الشيخ حفظه الله.

- لقد خرج منذ الصباح ومعه أخي عبدالعزيز، ولم يعودا إلى الآن.

تسلل القلق إلى نفس أبي حسن خشية من أن يتأخر عن دعوة الشيخ، فعاد إلى بيته مصغياً بحذر علّه يحظى بدعوته، ومرت ساعة دون جدوى، فخرج أبوحسن إلى السوق على أمل اللقاء به، وأوصى ابنه حسن بالبقاء في البيت وأن ينتبه جيداً إذا ما وصل الشيخ إلى بيته ليبلغه بذلك فور عودته.

في هذه الأثناء كان الشيخ قد حلّ بضيافة الشيخ محمد الصباح، والذي رحب به ترحيباً يليق بمقام الأول وكرم ضيافة الثاني، فتبددت كل غيوم القلق التي ساورت نفس عبدالعزيز ووالده ليلة أمس، وشعرا بالراحة بعد أن لاحظا الاهتمام من الشيخ بهما، حتى أنه عرض عليهما الإقامة في أحد البيوت الخاصة به، تعبيراً عن تقديره لهما، بيد أن الشيخ عبدالرحمن اعتذر عن قبول هذا العرض وأظهر رغبته بالبقاء في

البيت الذي استكراه في السوق، ووصف للشيخ محمد مكان هذا البيت، فعرفه ووعدته بزيارته.

لم يكن رفض الشيخ عبدالرحمن لعرض الشيخ محمد مجرد رغبة من الأول في المعيشة البسيطة بين الناس في أحياء المدينة، بل كان ينطوي على أسباب لا يعقلها إلا الأمراء بين بعضهم بعضاً، وهو رغبته في أن يكون بعيداً عن مركز إصدار القرار السياسي في الكويت، خشية من أن يُتهم لاحقاً بالمشاركة في هذا القرار أو التآمر لإجهاضه، وحذراً منه في ألا يرى في أعينهم نظرة الحيطة منه إذا كان الحديث سياسياً، خصوصاً وأن الكويت تجبه أكثر من طامع في أراضيها وقتئذٍ.

أصر الشيخ محمد على إقامة وليمة غداء يشاركه فيها الشيخ عبدالرحمن وابنه، ولم يقبل منه أي عذر دون قبولها، فقبلها الشيخ بوجه بشوش، ودارت بينهما الأحاديث الطويلة عن حال نجد بعد خروجهم منها، وأبدا الشيخ محمد استياءه من تصرفات ابن رشيد الذي بدأ بتنفيذ مخططه بالسيطرة على أكبر رقعة ممكنة من شبه الجزيرة العربية، وأوضح أن الكويت تقع تحت منظار طمعه، وأنه لولا القوة العسكرية التي حرص الشيخ محمد على تعزيزها في تلك الفترة لشن ابن رشيد غاراته الواحدة تلو الأخرى دون أي ذريعة.

لم يكن الشيخ محمد يخشى ابن رشيد بالقدر الذي يخشاه هو من التجراً والتفكير بمهاجمة مدينة الكويت، وهذا أوسع المجال لترحيبه العظيم بالشيخ عبدالرحمن، فضلاً عن علاقة الود بينهما، الأمر الذي

سيغيظ ابن رشيد والذي سيشد من عزم القبائل النجدية المناوئة لحكم ابن رشيد، إذا ما علموا أن شيخهم أمير نجد مقيم بأمان في الكويت، مما سيدفعهم للتكفير بجديّة لمساندته وتهيئة الزمان والمكان المناسبين لإعادة المُلك إلى أصحابه الأصليين.

عاد عبدالرحيم من السوق بعد أن صلى الظهر في المسجد، وبحث فيه ملياً عساه يلقي الشيخ عبدالرحمن، لكن دون جدوى من هذا البحث، ولما وصل إلى بيته وجد محمد ابن الشيخ يجلس مع ابنه حسن على المصطبة الطينية أمام المدخل الرئيسي، فاستفسر منهما إذا ما كان الشيخ قد عاد، لكن ابنه أجاب بالنفي وهو ينظر إلى محمد المتوتر من تأخر والده وأخيه.

دخل أبوحسن إلى بيته ليطمئن على إعداد الوليمة بشكل يليق بالشيخ، فوجدهم قد هياؤا الموقد وأعدوا الخبز بيد أنهم لم يبدأوا بعد بوضع اللحم في القدر، وتعذرت زوجته بأنها تنتظر منه تأكيداً على قيام الوليمة، فبدأ يضع اللحم في القدر وهو يقول:

- جهزي الطعام ليكون عشاءً بعد صلاة المغرب، وبإذن الله سيعود الشيخ قريباً.

دخل حسن مسرعاً إلى والده:

- لقد وصل الشيخ يا أبي.

ترك أبوحسن قطع اللحم من يديه ثم خرج مسرعاً ليطمئن عليه،
ولحق به عند الباب قبل أن يدخل بيته:

- حمداً لله على السلامة يا شيخنا، أطلت الغياب وقد قلقنا عليك.

فتدخل محمد ابن الشيخ قائلاً:

- نعم يا والدي منذ الصباح وعمي أبوحسن يبحث عنك في السوق
ثم في المسجد ولم يرجع إلى البيت إلا منذ دقائق.

بدا وجه الشيخ مشرقاً على غير ما كان عليه من غيوم الحزن أمس،
فقد تبددت شكوكه ونوى الإقامة في الكويت بترحيب كبير من الشيخ
محمد، فأجاب:

- والله لم يكن في خاطري أن أقلق جاري عليّ منذ الصباح الأول،
لكنني كنت في أمر ضروري، والحمد لله تم بخير.

- الحمد لله أنك معافاً بيننا، كنت أرغب لو أنكم تقبلون دعوتي
لمأدبة عشاء أعددتها هذه الليلة على شرف حضوركم.

- لا أريد أن أثقل عليك يا أبا حسن، وإنه ليشرفني ذلك، فشكراً
لك كل الشكر.

دخل الشيخ بيته ثم دخل عبدالرحيم بيته بضع دقائق، ثم خرج
باتجاه السوق مرة أخرى قاصداً أبا سليمان، لكنه لم يجده في محله،

فعاد إلى المنزل الجديد لأبي عامر، فوجد أبا سليمان عنده، وحديثهما كله يدور حول الشيخ عبدالرحمن، فدخل إليهما واستفسر منهما قائلاً:

- إنني دعوت الشيخ اليوم لمأدبة العشاء، ومع أن الواجب واللائق بمقامه أن ندعوا وجهاء القوم إلى هذه المأدبة أيضاً، إلا أنني قد اقتصرتها علينا نحن الثلاثة وعلى الشيخ وولديه، فما رأيكم بذلك؟

- هذا هو الرأي الصائب يا أبا حسن، خصوصاً وأن الشيخ قد أوصانا بآلا نفصح لأحد عن وجوده هنا، ولا ندري ما سبب ذلك، مع أن الأجدر به أن يحظى بالتكريم الذي يليق به في الكويت.

في حقيقة الأمر فإن كل تصرفات الشيخ عبدالرحمن كانت مدروسة بعناية، وذلك ليس بعيداً عن حصافته وحكته التي مكنته من إمارة الرياض ونجد، فإن رغبته في عدم إفصاحه عن وجوده في الكويت لعامة الناس أو وجهائها أو تجارها تكمن في حرصه على ألا يجعل من بيته مزاراً ومجلساً يومياً أو حتى أسبوعياً للوافدين للسلام عليه والأخذ بمشورته، وقد خشي أن يؤثر ذلك على سمعته المصونة والمسورة بذكائه وحصافته.

حتى أنه لم يشأ أن يعقد مجلساً له في بيته، كي لا يتكاثر مريدوه من حوله، مما قد يهيئ الفرصة للشوشة بأن يتناقلوا الحديث بأن الشيخ عبدالرحمن يجمع مريدين له في الكويت. فكان دائماً متحفظاً على هذا الأمر، مفضلاً الاعتزال في المسجد للتفرغ للعبادة والتفكير والتأمل، إذ لم يكن يجد راحته إلا فيه.

لما أدرك أبوحسن مع أبي عامر وأبي سليمان أن الشيخ عبدالرحمن يجد راحته في المسجد، فإنهم عمدوا إلى ترميم المسجد الصغير في الحي الذي يقيم فيه الشيخ، مما يجعله قريباً منه، وتم ذلك دون أن يبلغوه بذلك أو أنهم قاموا بهذا الفعل بغية راحته. فصار الشيخ يقضي معظم وقته في المسجد، دون أن ينقطع عن الناس بالشكل الذي يمكن تخيله، فقد كان يذهب أحياناً إلى ديوان الخميس ليجالس وجهاء القوم وأهل العلم، ويستأنس بهم في غربته عن وطنه الأصلي نجد.

في أغلب الأيام كان الشيخ يخرج من بيته مبكراً باتجاه قاصداً سوق المناخ القريب منه، والمناخ سوق يقصده التجار من البوادي فيجتمعون فيه ويعرضون بضائعهم للبيع، وصار متعارفاً عليه بهذا الاسم، وأصل التسمية مأخوذ من ناخت الإبل أي إذا أقامت في المكان وبركت فيه.

لم تكن زيارة الشيخ للسوق بقصد ممارسة التجارة، على عكس ما كان عليه أبوحسن وأبو سليمان على سبيل المثال، فكلاهما يحرصان أشد الحرص على الذهاب إلى السوق طوال فترة انعقاده، سواء للشراء أو للبيع، ووجدها الشيخ عبدالرحمن فرصة مناسبة ليزور السوق معهم، فأن يدخله بصحبة تاجر من أهل السوق خير له من أن يدخله منفرداً، وذلك سيتيح له الاختلاط بالتجار القادمين من نجد، وهذا هو المغزى من ذهابه إليه.

وفي كل مرة يرغب فيها بالذهاب إلى السوق يرافقه ابنه عبدالعزيز مرافقة لصيقة به، إذ لا يتركه يخرج لوحده أبداً، حتى أنه كان أشبه بالحارس الشخصي، تكاد يده لا تفارق قبضة سيفه إذا ما سار مع والده في مكان يحتمل فيه وجود خطر على حياته.

وفي السوق كان رجل عجوز قد بنى له كوخاً صغيراً من الخشب، مسقوفاً بجريد النخل، وقد مد السقف إلى جوانب هذا الكوخ ليكون المكان المحيط به أشبه بخيمة مسقوفة، يستظل بها التجار والمنهكون من تعب السفر، وفي المقابل فإنهم كانوا يشترون منه ما يشربونه أو يسدون به رمقهم. أصر أبوحسن على أن يدعو الشيخ وابنه عبدالعزيز ليجلسا سوياً في ظل هذه السقيفة، ريثما يهدأ السوق قليلاً، ويبدأ التجار بعرض بضائعهم فيه، فامتثل الشيخ لطلبه واتجها إليها وجلسا في ظلها.

بجوارهم يجلس مجموعة من التجار أفصحت ملامحهم المغبرة أنهم قادمون حديثاً من البادية، وأن قافلتهم لازالت تقوم بإنزال حملها، وفي فترة استراحتهم هذه فإنهم يتحدثون عن مشاق الرحلة والأوضاع بشكل عام في مناطقهم التي قدموا منها، وما أثار فضول الشيخ عبدالرحمن هو سؤال وجهه أحد التجار القادمين من البصرة إلى آخر قادم من نجد:

- وكيف حالكم في ظل الأمير ابن رشيد؟

هنا أصغى الشيخ وأسند ظهره إلى الخلف قليلاً، عساه يعرف بعض الأخبار من هذا التاجر الذي يبدو أنه من نجد بناءً على سؤال الآخر له. فأجاب التاجر النجدي:

- ويلاه على نجد، كنا في نعيم قبل إمارته، فقد فرض علينا ضرائب كثيرة لا نستطيع تحملها، لكننا مضطرون إلى ذلك.

- وما الحل برأيك؟

رد التاجر النجدي دون خوف أو حذر:

- الحل هو أن يعود الحق لأصحابه، ويعود معهم الأمن ورخاء العيش مجددًا.

لما لمس الشيخ أن التاجر النجدي يميل إلى صفه لا إلى صف ابن رشيد، فإنه وجدها فرصة ملائمة للتعرف عليه ولمعرفة أخبار ابن رشيد في نجد عن طريقه، خصوصًا وأنه من التجار دائمي التردد إلى سوق المناخ في الكويت، فانتظر إلى أن فرغ التاجران من حديثهما، ثم قام كل منهما ليرى حال بضاعته، فتبعه الشيخ، ومعه عبدالعزيز، سيرًا بعيدًا عن الكوخ بضعة أمتار، ثم وقف معه مسلمًا عليه.

في بداية الأمر ظنه التاجر تاجرًا مثله، يرغب في رؤية بضائعه، بيد أن الشيخ عاجله قائلًا:

- سمعتك تتحدث عن أخبار ابن رشيد في نجد، فزدني حديثًا عن ذلك، فإني وجدتك ثقة لآخذ منه هذه الأخبار.

كان معروفًا عن هذا التاجر بين زملائه التجار صرامته وفصاحته وعدم رهبته من قول الحق أمام أي كان، فأجابه بثقة:

- وأنا عند كلامي، فأنا شخصياً وكثير غيري وإن لم يصرحوا بذلك،
ضد حكم ابن الرشيد، حتى وإن شئت الوشاية بي فليس هذا يثني عن
قول الحق.

ابتسم الشيخ وزادت ثقته بهذا التاجر، فقال له:

- سأقول لك أمراً أرجو أن يبقى بيني وبينك، وأن أكون على تواصل
دائم معك.

- تفضل قل.

- أنا عبدالرحمن بن فيصل، وهذا ولدي عبدالعزيز، ونحن نقيم
هنا في الكويت.

تدخل هنا عبدالعزيز قائلاً بحنق:

- وسنعيد المُلْك المسلوب بإذن الله.

اقترب التاجر وقبّل رأس الشيخ وراح يدعو له، إلا أن الشيخ ثناه عن
متابعة ذلك، حيث الأمر لازال سرياً بين القوم في الكويت، وأنه لا يريد
منه إلا أن يأتيه بالأخبار ويتقصى عنها بتفاصيلها، ثم يبلغها له كلما جاء
إلى الكويت، وبأنه سيلقاه هنا بكل تأكيد، وإلا فما عليه إلا السؤال عن
التاجر أبي حسن، وهو الذي سيبلغه بوصوله.

منذ ذلك الوقت بدأ الشيخ يحدث نفسه بالرغبة في العودة مجدداً
لاستعادة الرياض من ابن رشيد، منتظراً الفرصة ليبدأ التجهيز لهذه

الخطوة المصيرية، واستند في ذلك بشكل رئيسي إلى دعم القبائل النجدية له في هذا المسعى، وهذا ما كان متأكدًا منه، وخصوصًا بعد الأخبار التي أكدت ذلك من التاجر النجدي.

بيد أن التاجر كان يأتي محبطًا في كل مرة يزور فيها الكويت، دون أن يخفي عن الشيخ حقيقة ما يحدث في نجد، فأصبح يخبره عن قوة ابن رشيد، وبأن القبائل لا تجرؤ على الوقوف في وجهه وصدده، وأنهم أسلموا الأمر لله دون مقاومة منهم لقوة أميرهم الجديد.

إن الأخبار عن قوة ابن رشيد، وتردد القبائل النجدية في محاربته وإذعانهم للوضع الراهن بعدم القدرة على وضع حد لتجاوزاته المستمرة، بدأت تصل تباعًا إلى مسامع الشيخ عبدالرحمن من التاجر النجدي، لدرجة أن هذا الأمر أثر على معنويات الشيخ، وبدأ يقتل في داخله بذرة الحلم بالعودة لحكم نجد مجددًا، وجعله يتباطأ تباعًا في مقابلة التاجر النجدي في الأيام التالية لهذه الأخبار، إذ إنه قد أوشك على الاستسلام لحقيقة ما يجري في نجد، وأن مقامه سيكون في الكويت إلى الأبد.

كانت نوبة الإحباط التي أصيب بها الشيخ حادة وأليمة وذات وقع شديد عليه، فهذا معناه بأن كل الأحلام التي راودته عن الانتصارات والعودة إلى الرياض ما هي إلا أضغاث هدمتها قوة ابن رشيد، ودفعه إلى الرضوخ لهذا الإذعان، عدم قدرته، أو مجرد التفكير، في إعداد جيش يستطيع مواجهة عدوه ودحره عن من الرياض.

لاحظ عبدالعزيز أن والده قد انزوى بنفسه عن الناس وعن السوق وحتى عن البيت، بل إنه لم يعد بالحماس نفسه الذي كان عليه من ذي قبل، وإذا ما تطرق أحد من أبنائه إلى موضوع محاربة ابن رشيد فإنه يلتزم الصمت ويكتفي بقوله:

- الله كريم.

نورة، ابنة الشيخ عبدالرحمن، والأخت الكبرى لعبدالعزیز، أدركت بحنكتها وفطانتها أن والدها قد بدأ يعتاد حياة العامة، بينما كانت ترفض أن تتسخ هذه الفكرة في ذهنه، فرويداً رويداً سيبدأ بالتفكير بالتخلي عن الملك الذي يراه صعب العودة. فكانت دائمة التحريض له ولأخيها عبدالعزيز، وكانت ترا في عبدالعزيز الشخصية القيادية الفذة والأمل الذي سينتشلهم ليضعهم على عرش نجد مرة أخرى. ويأخذ لهم بالثأر ممن استولى على أملاكهم عنوة.

نقيض حالة اليأس التي عاشها الشيخ عبدالرحمن، كان الحماس لفتح الرياض سمة ابنه عبدالعزيز الذي أصر على الذهاب لمقابلة التاجر النجدي في الموعد الشهري الذي كان يتم بينه وبين والده.

إن الألفة التي حصلت بين عبدالعزيز والتاجر جاءت من مرافقته المستمرة لوالده في كل مرة يقابل التاجر فيها، فقد كان عبدالعزيز على اطلاع كامل على حال نجد وقبائلها في ظل حكم ابن الرشيد، وبدل من أن تؤثر الأخبار التي تصل على معنوياته سلبياً كما فعلت بأبيه، فقد زادته حماساً وحنقاً على ابن رشيد، وفي كل مرة يستمع فيها للتاجر

عن تجاوزهاته المستمرة، يركب فرسه وينطلق بها إلى أطراف المدينة حيث يبدأ بصب جام غضبه في التدريب على الفروسية.

تفرّس التاجر سمات المُلْك في وجه الشاب عبدالعزيز، وتأمل فيه أن يكون الفرصة التي ستعيد نجد لسابق عهدها من الرخاء والأمن. وقد لاحظ ذلك من خلال ردات فعله في كل مرة يسمع فيها أخبار ابن رشيد، ويتوعد بأنه لن يترك ظلمة يمر مرورًا عابرًا.

كانت نورة دائمة التذكير لوالدها بأنه أمير نجد وشيخها الهمام، وبأن شمس مجده ستشرق قريبًا، وفي المقابل كانت دائمة الحرص على متابعة شقيقها عبدالعزيز، وحثه على ممارسة الفروسية والتدرب على أساليب القتال كي يكون جاهزًا إذا ما جاءت الفرصة التي ينتظرونها.

شاءت الأقدار أن يتقلد زمام الحكم في الكويت الشيخ مبارك الصباح، وقد كان معروفًا عنه قوته وعزيمته وحنكته السياسية، فضلًا عن إدراكه لخطر ابن رشيد في نجد، بعد أن بدأ يهدد بالإغارة على الكويت، وفعلها أتباعه عندما أغاروا على مجموعة من الرعاة الكويتيين بالقرب من الحدود مع البصرة، الأمر الذي دفعه للتفكير في حل يبعد ابن رشيد عن حكم الرياض.

هذا التفكير الذي كان يعصف بذهن الشيخ مبارك قد جعل الشيخ عبدالرحمن يستعيد جزءًا من نشاطه وحيويته وحماسه السابق، خصوصًا وأنه لم يعد العدو الوحيد لابن رشيد، بل إن الشيخ مبارك سينتهز أي

فرصة للتخلص من تهديداته المتواصلة، واتضح ذلك من خلال اللقاءات التي كانت تتم بين الشيخين كل فترة، عبدالرحمن ومبارك.

بيد أن الشيخ عبدالرحمن قد لمس من الشيخ مبارك عدم رغبته في مهاجمة ابن رشيد في عقر داره طالما أن الآخر ملتزم بالتهدئة، مما أثار قلق الشيخ عبدالرحمن، وتوقع أن يكون ابن رشيد على حصافة عالية تجعله لا يغامر في فتح جبهة جديدة عليه من الكويت، وهذا الأمر سيثبت أركان حكمه في نجد ويقوي دعائمه. فعاد الشرود واليأس إليه واكتفى بالاعتزال في المسجد.

وقتئذٍ، أصبح عبدالعزيز في مقتبل الشباب، وبدأ يأخذ ملامح والده بشكل أكثر دقة، ولم ينقطع عن التواصل مع القبائل النجدية التي أصبحت على علم بأنه لن يوفر مجهوداً في سبيل الانتصار لقضية حقه المسلوب.

لم تكن الحالة النفسية الكئيبة التي يمر بها الشيخ عبدالرحمن تطيب لابنته نورة التي كانت شديدة التعلق بوالدها، والتي تصر دائماً على خدمته بنفسها، دفعها هذا الأمر لاحقاً إلى التفكير في البحث عن أي وسيلة تخرجه من الأزمة النفسية العصبية، وتعيد البهجة والفرح إلى حياته، فما كان منها إلا أن عرضت على أخيها عبدالعزيز أن يتزوج من إحدى الفتيات في الحي، وأوضحت له السبب في ذلك، وأنها ترغب في أن يعم الفرح في هذا البيت مرة أخرى بعد سنوات الحزن والأسى.

وافق عبدالعزيز على طلب أخته، والتي لم تنتظر طويلاً حتى أبلغت والدها برغبة أخيها في الزواج، وزينت الأمر له كي لا يعارض هذا الأمر متذرعاً بالأوضاع الراهنة، وبالفعل تم زواج عبدالعزيز من إحدى الفتيات آنذاك، وقد ارتأى الشيخ أن يكون حفل الفرح مختصراً، وأنه لن يقوم بدعوة كثيرين إليه، فقط الجيران وبعض المعارف الذين أصبح له معهم صداقة في المجتمع الكويتي.

بيد أن حضور الشيخ مبارك لمباركة هذا الزفاف قد دعت كثيرين إلى الحضور للمشاركة فيه، والأمر الذي دعا جاره أبا حسن إلى الخروج من بيته وفتح أبوابه أمام المدعوين ليتسع المكان لكل من حضر هذا الحفل، بينما كانت زوجته وابنته تساعدان أم عبدالعزيز وابنتها نورة في فرحهما بزواج عبدالعزيز.

عم الفرح بيتهم العامر لأيام لاحقة، لكن عبدالعزيز عاد إلى سابق عهده في الخروج للتدرب على الفروسية والرماية ومخالطة الأعراب والتجار القادمين من نجد، بينما عاد الشيخ إلى الاعتكاف أغلب الوقت في المسجد المجاور له، وملازمة قراءة القرآن والصلاة وأداء العبادة.

إن العلاقة التي تربط بين بيت أبي حسن وبيت الشيخ عبدالرحمن وطيدة إلى درجة كبيرة، حيث إن أم حسن دائماً ما تذهب لزيارة أم عبدالعزيز وابنتها نورة، مصطحبة معها طفلتيها أسماء وفاطمة.

ولما كان في منتصف الجدار الفاصل بين البيتين نافذة صغيرة كانت تسمى «الفرية» وهي تعد بقدر ربع النوافذ الخاصة بالبيوت، تسمح هذه النافذة للجيران بتبادل الأطعمة من خلالها، أو تلبية احتياجات بعضهم بعضاً من استعارة أدوات وما إلى ذلك. لكن أبا حسن أغلق هذه النافذة لما رحل أبوعامر إلى بيته الجديد، فلم يعد لها أي داعٍ بعد ذلك، لكن أثرها ظل واضحاً في الحائط، ولا تحتاج إلا لمجهود يسير كي تفتح مرة أخرى.

طلبت نورة من أبيها أن يسمح لهم بفتح هذه الفرية بينهم وبين جيرانهم، لأن ذلك أسير لها ولوالدتها إذا ما احتاجتا شيئاً من أم حسن خيرٌ من الخروج من البيت والالتفاف للوصول إليها، لم يعارض الشيخ هذا الرأي بحكم العلاقة الوطيدة التي تربطهم بجيرانهم بيت أبي حسن، وقال لابنته بأنه سيأخذ موافقة جاره أولاً، فإن وافق فسيقوم بفتحها، وهنا قاطعته نورة بأن أم حسن موافقة على ذلك وقد أخذت رأي زوجها والذي قال مثل قولك، في أنه سيسألك الموافقة.

في اليوم التالي وبعد أن سأل الشيخ عبدالرحمن جاره عن موافقته على ذلك، تم فتح الفرية بينهما كما كانت عليه من قبل أيام جاره أبي عامر. وتم وضع نافذة خشبية عليها، حيث إن أرادت إحداهن شيئاً من جارتها فإنها تكتفي بالطرق عليها مرة أو مرتين حسب ضرورة الأمر، وفي هذه الحالة تفتح الجارة الفرية لتتظر طلبها وتلبيه لها.

ما هي إلا أشهر حتى مرضت زوجة عبدالعزيز، ولم ينجح الأطباء في علاجها من الحمى التي أصابتها، ففارقت الحياة ولم يمض على زواجهما إلا ستة أشهر. شعر عبدالعزيز بفاجعة الفقد التي لم يسبق له أن اختبرها بأحد المقربين منه، فحاول جاره أبو حسن أن يخفف عنه وطء هذه المصيبة، فكانا يجلسان سوياً على شاطئ البحر في أغلب أيام المساء التي تلت هذه الحادثة، فأخبره أبو حسن أنه سبق له وعاش هذه التجربة القاسية، وعانى مرارة الفقد من قبل، حينما تزوج للمرة الأولى وفقد زوجته باكراً، لكنه استطاع أن يتجاوز هذه المحنة وأن يتزوج مرة ثانية.

إن نعمة النسيان من أجل النعم التي وهبها الله تعالى للبشر، فلو ظل الإنسان متعلقاً بالماضي وأحزانه لما استطاع أن يمضي بحياته ويتخطى العقبات التي اعترضته، ولوقف عند أول عقبة وظل يستذكرها مراراً وتكراراً حتى تهلكه أو تفسد عليه معيشته وحياته.

بعد أشهر من حادثة الوفاة الأليمة، بدأ عبدالعزيز يفكر ملياً في الزواج مرة ثانية، يدفعه إلى ذلك رغبته، الأولى هي حرصه على أن يعجل بإنجاب أبناء يحملون اسمه باكراً، خصوصاً وأنه فارس مغوار له طموح كبير، وهذا الطموح مجهول النتيجة، فكان لابد له أن يضمن ولداً يحمل اسمه إذا ما حصل له أي مكروه.

والثانية اعتياده الحياة الأسرية في مسؤوليته تجاه زوجة تعتنى به وترأف بحاله وتختصر مسافات الحزن في عينيه، وتهداً من روعه إذا ما اجتاحتها عاصفة الذكريات الأليمة في الرياض من قبل.

فضلاً عن تشجيع أبي حسن له على الزواج كي يستطيع متابعة حياته، وكي لا يبقى حبيس قيد الزواج الماضي، وأن يتحرر من عزوبيته التي لم تعد تليق به بعد أن جرب الزواج من قبل.

ولأن عبدالرحيم (أبو حسن) رجل مقتدر مادياً، وصاحب دين وأخلاق والتزام، فلم يجد عائقاً أمامه من الزواج مرة أخرى خصوصاً وأن الشرع يسمح له بذلك شرط العدل بينهما، ولما كان على قناعة بأنه سيعدل بين الزوجتين، رغب في الزواج أيضاً في الوقت عينه الذي قرر فيه عبدالعزيز الزواج.

في بداية الأمر أبدت أم حسن رفضها لهذه الفكرة التي طرأت فجأة على بال زوجها، لكنها لم تستطع ثنيه عن هذه الفكرة، فقالت له:

- كيف يطاوعك قلبك أن تأتي بامرأة غريبة إلى بيتنا.

ثم امتلأت عينها بالدمع وهي تردد هذه الجملة بحرقة. إلا أن أبا حسن ضمها إليه وقبّل رأسها بحنان الأب، ثم قال لها:

- إذا لم تعجبك فسأتخلى عنها، هذا وعد مني. لكنني لا أريد أن يتم هذا الزواج دون مباركتك، والأمر الآخر فقد تورطت وبحث بهذا الأمر لجارنا الشيخ، فهل ترضين أن يستصغرنني إذا ما تراجعت الآن؟.

- المهم أنك ستتزوج.

- اعتبريه زواجاً صورياً فقط، وقلت لك إذا لم تعجبك لاحقاً فسأتخلى عنها.

شعرت أم حسن ببعض الطمأنينة إزاء هذا الاقتراح، وهي تردد بصوت خفيض:

- بالتأكيد لن تعجبني.

ابتسم أبو حسن من هذا الكلام، وأجابها:

- إذاً بالتأكيد سأترك تحديد مصيرها بيدك.

عبدالعزیز الذي استعد للزواج وأبلغ والده بذلك، علم من أبي حسن عن نية زواجه، فاقترح أن يكون حفل زفافهما في الليلة نفسها، الأمر الذي لاقى ترحيباً كبيراً من أبي حسن، والذي صار يداعب الشيخ عبدالرحمن قائلاً:

- ما رأيك أن تشاركنا هذا الزفاف يا شيخنا، لازلت شاباً.

والذي كان يجيبه بوقار دائماً:

- في المرة القادمة إن شاء الله.

وأظهر ابتسامته التي تلمز إلى أن عبدالرحيم ربما قد يفكر في الزواج بثالثة لاحقاً وإلى حينها سينظر الشيخ في هذا الموضوع، مما أوجد جوّاً من الفرح في تلك الجلسة.

تزوج عبد العزيز من فتاة من أعيان قومها تسمى وضحي، وعاش معها أياماً رغيدة، وبعد زواجهما بمدة لا تتجاوز الشهر، بدت ملامح التغيير إلى الأفضل تظهر على وجه عبدالعزيز، فقد تخلص من الوحدة التي عاشها بعد وفاة زوجته الأولى، ثم إنه نظم وقته لمتابعة أخبار نجد، غير مغفل ملازمة التدريب والفروسية بانتظار ساعة الحسم.

أما عبدالرحيم فقد تزوج فتاة من أقاربه، يلتقي معها في جدهما أحمد بن رزق، فهي هميان بنت عيسى بن خالد بن أحمد بن محمد بن رزق، وهو عبدالرحيم بن حسين بن محمد بن أحمد بن رزق. والهميان هو الكيس الحريري المملوءة بالذهب والجواهر، حيث يشده التجار على وسطهم، وكان بعضهم يسمي البنات بهذا الاسم للدلالة على قيمتها الثمينة عند أهلها.

أوصى عبدالرحيم زوجته هميان بأن تكون حريصة على رضا زوجته أم حسن، وأن تداري غيرتها قدر المستطاع وتلبي لها جميع احتياجاتها، بيد أن أم حسن كانت تحاول أن تلمح لأبي حسن بالوعد الذي قطعه لها إبان رغبته في الزواج من هميان، لكنه كان دائماً يقول لها:

- اصبري شهر وبعدها احكمي عليها.

بعد شهر تقريباً، علمت أم حسن بأن هميان حامل، ولأنها تدرك تماماً مدى حب عبد الرحيم للأطفال، فقد وجدت من غير المناسب أن تعصف بالفرحة التي تملكته لدى سماعه خبر حملها، كما أنها بدأت بالاعتیاد على ضررتها الجديدة، وبخاصة لما مرضت أم حسن وظلت

هميان ساهرة طوال الليل بجانبها تبدل لها الكمادات، مما ترك أثراً كبيراً في نفسها إزاء هذا الموقف الإنساني.

كان حمل هميان متوافقاً مع حمل وَضْحَى زوجة عبدالعزيز، مما جعل ولادتهما متقاربة، يفصل بينهما أسابيع قليلة، فتتالت الأفراح عندما ولدت وَضْحَى المولود الأول لعبدالعزیز، وفرح الشيخ عبدالرحمن بهذا المولود فرحاً كبيراً، فهو الحفيد الأول له، والذي يضمن استمرار اسم العائلة لاحقاً، وقد ترك الشيخ مهمة تسمية المولود لابنه عبدالعزيز، فسماه تركي.

وبعد أسابيع ولدت هميان ابنها البكر، فأطلق عليه والده اسم علي، وتبارك به خيراً، إذ ولد بالتوافق مع تركي بن عبدالعزيز. بيد أن وَضْحَى لاحظت أن طفلها الصغير لا يفتأ يبكي معظم الوقت، وقد قالت لها جارتهم الحكيمة التي أشرفت على ولادتها، والتي كانت تزورها كل يوم بالإضافة إلى زيارة هميان، بأن سبب بكائه ربما يكون جوعاً، إذ لا يكفيه الحليب الذي يرضعه من أمه، واقترحت عليها أن تذهب معها إلى هميان التي لاتزال في فراشها، فعسى أن تقوم بإكمال إرضاع تركي، وحينها يمكن التأكد إن كان سيسكت بعد أن يشبع الحليب، أو أن سبب بكائه هو أمر آخر.

وبالفعل ذهبت وَضْحَى مع الحكيمة إلى هميان للاطمئنان عليها وتلبية رغبتها في إسكات الطفل، حتى أنه لم يكف عن البكاء منذ خرجتا من البيت، علماً بأنها أرضعته قبيل خروجها مباشرة. ولما رأت

هميان هذا، واقترحت عليها الحكمة رغبتها في أن تقوم بإرضاع الطفل تركي قليلاً لتعرفا سبب بكائه، لم تتردد هميان أبداً، فوضعت طفلها الذي كان نائماً في حجرها بجانبها، ثم حملت تركي برفق وحنان، وأرضعته حتى هدأ وسكن.

لما كان هذا هو السبب، أصبحت وَضَحَى تتردد على هميان في بيتها كل يوم، إلى أن استطاعت هميان المشي والنهوض من فراشها، فأصبحت تذهب إلى وَضَحَى للجلوس معها وإرضاع طفلها أيضاً. مما جعل العلاقة بينهما قوية للغاية، حتى كانت كل واحدة تعتبر الأخرى أختاً لها.

في هذه الأثناء كان الشيخ مبارك يستشيط غضباً من تصرفات ابن رشيد الذي أغار على أطراف الكويت، وكان عبدالرحمن على علم بكل ما يجري بين الشيخ مبارك وابن رشيد، لكنه لم يشأ التدخل أمام الشيخ كي لا يظن أنه يقوم بتحريضه لاستعادة الرياض بقوات كويتية، بيد أن الشيخ مبارك قطع عليه هذا التفكير وأرسل أحد أبنائه يدعو الشيخ عبدالرحمن وابنه عبدالعزيز لمأدبة غداء أقيمت على شرفهما، وكان من عادة الشيخ مبارك أن يقوم بهذه المأدبة بشكل دوري تقديراً للشيخ وإجلالاً له، وكي يأخذ مشورته في بعض الأمور السياسية وخصوصاً تلك المتعلقة بابن رشيد، بحكم أن الشيخ عبد الرحمن كان أميراً عليها، ولعلمه بالقبائل الموالية لابن رشيد من الأخرى المعارضة له.

لما وصل الشيخ بصحبة ابنه إلى قصر الشيخ مبارك، استقبلهما بحفاوة ودخل معهما إلى المجلس فتناولوا طعام الغداء سوياً، ثم شرح له

الشيخ مبارك تجاوزات ابن رشيد، وبأنه ينوي وضع حد لهذه التجاوزات، وإلا فإن الأمر قد يتطور أكثر من ذلك، ولكي يتم هذا الأمر لابد من مهاجمة ابن رشيد في عقر داره.

كان هذا الخبر ساراً لعبد العزيز الذي يحلم بهذه المواجهة مع عدوه، وأدرك أن بؤادر تحقيق الحلم باستعادة الرياض قد لاحت في الأفق، فأصر على الشيخ مبارك أن يشارك معهم في هذه الحملة الحربية، فوافق على ذلك، وأبلغه أن الانطلاق سيكون خلال شهر من تاريخه، ريثما توضع الخطة بإتقان ويتم الاتفاق مع القبائل التي تقف ضد ابن رشيد.

عاد عبدالعزيز إلى البيت والأرض لا تكاد تحمله من فرحه بالذهاب إلى الحرب لاستعادة الحق المسلوب، فابن رشيد أوقع نفسه في مصيدة، فبدلاً من أن يحافظ على العلاقات الودية مع دول الجوار، فإنه ناصبهم العدا، مما جعل أعداءه في الخارج أكثر من أعدائه في الداخل، وهذه كانت بداية النهاية لحكمه.

توجه الشيخ مبارك على رأس جيشه وبرفقتة مجموعة من أمهر القادة العسكريين عنده، وبينهم الشاب عبدالعزيز، بينما بقي الشيخ عبدالرحمن في الكويت بانتظار أخبار النصر التي سيزفها له المبشرون عما قريب. ولما وصلوا إلى منطقة تسمى الصريف، والتي من المفترض أن يلتقي بها الجيشان، أدرك الشيخ مبارك أن تعداد جيش ابن رشيد أكبر من تعداد جيشه كما أبلغه بذلك الأفراد الذين أرسلهم للتجسس

على حالة جيش العدو، فوقع في حيرة من أمره، لكن هذا لم يثنه عن التصميم على المواجهة وتحقيق النصر.

لمعت في ذهن عبدالعزيز فكرة خطيرة بخصوص التخطيط للمعركة، فطلب الإذن من الشيخ مبارك ليخبره بها، فلم يعر كلامه اهتماماً مطلوباً وقتئذٍ، إذ إن القادة العسكريين وضعوا أكثر من خطة حسب ما هو مفترض قبل خروجهم إلى المعركة، لكن الشيخ أراد أن يسمع رأي عبد العزيز في هذا الشأن، فأجابه:

- يا شيخ إن الحرب خدعة كما تعلمون، وإن تمركز الجيشين هنا سيجعل كل من يقف في صف ابن رشيد يتجه إلى ساحة المعركة للمشاركة في دعمه ومؤازرته.

- هذا مؤكد.

- ولهذا فإنني أقترح أن نشنت جيش ابن رشيد، ونلهيه بمعركة أخرى في الوقت ذاته مع هذه المعركة.

- وكيف ذلك؟

- سأخذ معي مجموعة من الرجال، وأتجه إلى الرياض، وهناك لن أجد مقاومة كبيرة من أهلها لأنهم سيظنون أن جيشكم هجم بكامله على الرياض بدلاً من مواجهة ابن رشيد هنا. فيرسل ابن رشيد دعماً لحماية

الرياض من قواته التي جمعها لحربكم، وحينها يقل عدد جنوده ويكون النصر حليفنا إن شاء الله.

أعجبت الفكرة الشيخ مبارك، وأثنى عليها وهو ينظر بطرف عينه إلى قادته العسكريين مزدرياً لخططهم. ثم أشار إلى عبدالعزيز بأن يتجه مع رجاله إلى الرياض. فلم يتوانى عبدالعزيز عن الذهاب، فجمع رجاله في لحظات ثم صاح فيهم قائلاً:

- لا راحة لنا إلا في الرياض.

واتجه الجيش إلى مدينة الرياض يسابقون الوقت والريح معاً، فإن الوصول إلى الرياض يستغرق ثلاثة أيام على الخيل، لكن جيش عبدالعزيز استطاع أن يصلها خلال يومين، وذلك ليكون عنصر المفاجأة في صفه قبل أن يصل الخبر إلى الحامية في الرياض عن انقسام الجيش واتجاه قسم إليهم فيحتاطون ويصدون الهجوم.

لم يجد عبد العزيز أية مقاومة تذكر لدى دخوله المدينة، ففضى على الحامية التي تحرس القصر، وهرب كثير من جند الحامية باتجاه الحصن، في ظنهم أن جيش الشيخ مبارك أصبح كله في الرياض.

في هذه الأثناء بدأت الأخبار تصل إلى الكويت بأن الشيخ مبارك قد انتصر على ابن رشيد في معركته، وأنه أرسل عبد العزيز ليتولى إمارة الرياض حاكماً عليها.

حاصر عبدالعزيز الحصن لأيام دون أن يستطيع اقتحامه، ثم وصلته الأخبار بأن جيش الشيخ مبارك قد هزم في موقعته مع ابن رشيد، دون أن يعرف أية تفاصيل عن سبب هذه الهزيمة، ولعل ذلك يعود إلى التفوق العددي لابن رشيد، إذ إنه كان يضمن الحفاظ على الرياض من خلال الحصن المنيع فيها، بينما زج بمعظم جيشه في المعركة مع الشيخ مبارك.

لما شعر الشيخ مبارك بأن النصر لن يكون حليفه في هذه المعركة، أعطى أوامره بالانسحاب إلى الكويت، كما أن عبدالعزيز أعطى أوامره بالانسحاب من الرياض والعودة إلى الكويت أيضاً، خشية وصول الإمدادات العسكرية من ابن رشيد إلى مدينة الرياض قبل أن يستطيع احتلال الحصن.

كان يوم عودة الجيشين إلى الكويت دون تحقيق الهدف الذي خرجوا من أجله يوماً حزيناً، بيد أنه كان في المقابل لا يقل حزناً وكآبة عن يوم ابن رشيد، فقد أدرك أن الحرب قد بدأت فعلاً، وأن مسألة المناورات والتهديدات قد انتهت، وما بدأ بالسيف لن ينتهي إلا بالسيف.

تابع عبدالعزيز تواصله مع قبائل نجد الذين بدوا أكثر حماسة ورغبة في التحرر من حكم ابن رشيد من ذي قبل، فقد شحذت المعركة الأخيرة عزيمتهم، وأدركوا أن الانتصار والمواجهة لابد أن تنصرهم في نهاية المطاف.

بيد أن الشيخ مبارك كان يعارض فكرة المغامرة مرة ثانية بافتعال معركة خارج أرض الكويت، وأن يزج بجيشه كاملاً لإسقاط حكم ابن رشيد، خصوصاً وأن المطامع تحيط بالكويت من كل الاتجاهات فالدولة العثمانية تتأهب وتتنهز الفرصة، وكذلك الإنجليز.

ما هي إلا ستة أشهر حتى نسَّق عبدالعزيز مع القبائل النجدية

وأبلغهم بأنه سيأتي برفقة المؤيدين له لمحاربة ابن رشيد مجدداً، وأبلغ بذلك زعماء القبائل والذين يعدون على أصابع اليد، كي لا يتسرب الخبر إلى ابن رشيد ويأخذ حيطة.

إن أجل درس تعلمه عبدالعزيز لما هاجم الرياض في المرة الأولى، هو إدراكه أهمية السيطرة على الحصن قبل السيطرة على دار الحكم، وبهذا فإنه لن يدع لابن رشيد وحاميته مكاناً يلتجؤون إليه ويتحصنون فيه. فقد تعلم أن خطأه وقتئذ كان في مهاجمته دار الحكم قبل الحصن، والأجدر به لتحقيق المفاجأة والنصر السريع والساحق أن يهاجم الحصن أولاً.

شعر عبدالعزيز بأن الشيخ مبارك لن يشارك هذه المرة في الحرب، فما كان منه إلا أن يجد له مبرراً بخروجه مع أتباعه من الكويت مسلحين، فأوضح له أنه سيذهب للقضاء على بعض المتمردين الذين يغيرون على أطراف الكويت، وأن الرعاة يشتكون من هؤلاء المرتزقة، مما جعل الشيخ مبارك يعطيه ما يحتاجه من سلاح وعتاد.

حان وقت الرحلة المصيرية، والتي لم يكن عبدالعزيز ليخفي أمرها عن زوجته وأبيه، وقد شعر الشيخ عبدالرحمن بأن ابنه مقدم على أمر خطير، فحاول أن يثنيه عن رأيه بتأجيل هذه المعركة، خوفاً من ألا يجد النصر المرجوة في نجد، لكن محاولاته تحطمت على صخرة العزيمة التي نطقت بها عينا ابنه عبدالعزيز.

وإزاء هذا القلق كانت أخته نورة متفائلة بأن النصر سيكون حليف أخيها، وكيف لا وهو يتهياً لهذا اليوم منذ كان فتىً.

دخل عبدالعزيز إلى أبيه لتوديعه وطلب رضاه ودعائه، ثم اتجه إلى غرفة زوجته ووضّح التي أنهكها الحمل، إذ هي بانتظار مولودها الثاني في أي لحظة، فما كان منه إلا أن كفكف دموعها براحه يده، ثم أوصاها

إن رزقه الله بمولود ذكر بأن تسميه سعوداً، عسى أن يكون ميلاده فآل خير في هذه الرحلة الشاقة. ووعدنا بأنه سيعود إليها ليأخذها مع أهله إلى الرياض.

خرج عبدالعزيز من الكويت وترك والده عبدالرحمن فيها، وبشره بأنه سيزف له الأخبار الطيبة خلال أيام، وبالفعل؛ فقد انطلق بجيشه مقتحماً صمت الصحراء ومُعكراً هدأة الرمل ومثيراً غضبة، حتى وصل نجد والتقى بجند القبائل المؤيدين له، ثم انطلقوا سوياً إلى الرياض، فدخلها خلال أيام وهاجم الحصن بادئ الأمر، فسيطر عليه، ثم ذهب إلى دار الحكم وقضى على الحامية وفتح الرياض وجلس فيها أميراً عليها.

في هذه الأثناء كانت هميان زوجة عبدالرحيم حاملاً منه بمولود جديد، وللصدفة نفسها التي كانت في الولادة الأولى فقد توافق حملها مع حمل وَضَحَى زوجة عبدالعزيز، وولدتا في الفترة نفسها تقريباً.

أطلق عبدالرحيم اسم مبارك على مولوده الجديد، تيمناً بالشيخ مبارك حاكم الكويت، إذ إن الشيخ كان محبوباً من الجميع، ويتمتع بالجرأة والذكاء والفتنة، وكما يقال فإن لكل مولود من اسمه نصيب، وقد تفاعل عبدالرحيم بهذا الاسم خيراً عسى يكون لمبارك الصغير شأن كمبارك الكبير يوماً ما.

بينما اشتدت المعركة في الرياض وأوشكت الساعات العصبية على الانقضاء لصالح عبدالعزيز، كانت زوجته وَضَحَى تعاني آلام الولادة وكأن روحها وروح ابنها شعرتا بالمشقة التي يعانيها عبدالعزيز هناك.

دخل الشيخ عبدالرحمن في دوامة من القلق والارتباك لم تحصل له من قبل، فنصف روحه تقاتل مع عبدالعزيز في الرياض، ونصفها الآخر

قلقة على حالة زوجة ابنه التي أرهقتها المخاض بشكل يدعو إلى الخوف على حياتها وحياة المولود .

ما هي إلا دقائق حتى وصلت الحكيمة المجاورة لهم، فأدخلها الشيخ بسرعة إلى البيت وأرشدتها إلى الغرفة التي تقيم فيها وضحى، بيد أنها أومأت إليه برأسها بأن الصراخ الصادر من الغرفة كفيـل بأن يرشدـها إلى المكان .

- لله درك يا أم تركي.. انشغلي بنفسك الآن، فـعبدالعزیز بخير إن شاء الله . (قالت الحكيمة هذه الكلمات وهي تحاول مساعدتها على الولادة، بينما كانت وضّحى لا تفتأ تذكر اسم عبدالعزیز على لسانها) .

هميان التي لا زالت على فراشها، لم تستطع الصبر دون الاطمئنان على جارتها، فاقتربت من الجدار وطرقت على الفرية، فأجابها الشيخ عبد الرحمن الذي ينتظر في باحة البيت، ثم فتح لها الفرية كي تطمئن إذا ما تمت الولادة، ثم عاد إلى ما كان عليه، وجلس على حجر قد وضع بجانب الجدار، فقطع قلقة صوت بكاء الطفل من داخل الغرفة، فنهض مسرعاً إلى الباب، ثم عاد مجدداً دون أن يدري أي جهة يقصد، لكن الفرحة أخرجته من حالة القلق الأولى التي أحيطت بها .

- هل هو ولد؟ (قالت وضّحى بتعب ومشقة) .

- نعم.. نعم.. إنه ولد (أجابتها الحكيمة والفرحة تغمرها) .

- إنه سعود، الحمد والشكر لك يا رب .

إن أكثر ما كانت تخشاه هو ألا يكون المولود ذكراً، فذلك ربما سيكون فـأل شؤم خصوصاً وأن عبدالعزیز في معركة مصيرية في تلك الأثناء .

كان الفجر قد بدأ يلوح في الأفق، ناسجًا خيوطه الذهبية، خرجت الحكيمة بعد أن اطمأنت على المولود الجديد، فوجدت الشيخ ينتظرها في باحة البيت.

- البشرى يا شيخ، المولود ذكر، عسى أن يبارك الله لكم به.

- بشرك الله بالخير يا جارتنا وأطال في عمرك.

ثم نظرت الحكيمة إلى شعاع الشمس وقالت بتفاؤل:

- شعاعها هذا الصباح ذهبي لامع. والعلم عند الله إن هذا المولود ملك من ملوك الأرض.

الشيخ عبدالرحمن مؤمن ملتزم ولا تؤثر فيه مثل هذه التوقعات التي تدخل في علم الغيب، بيد أنه كان بحاجة إلى أي قول يشحذ عزيمته خصوصًا وأن ابنه عبدالعزيز يقاتل في هذه الأثناء بشراسة لاسترداد المُلْك المسلوب.

إن البشارة الأولى التي أكدت الفأل بالمولود سعود، ولادته فجر الليلة التي فتح فيها والده عبدالعزيز مدينة الرياض، وانتصر على أعدائه المناوئين له. فلهذا كان لهذا الطفل مكانة خاصة في نفس أبيه وجده على السواء.

كانت الحكيمة تتردد إلى بيت الشيخ عبدالرحمن كل يوم للاطمئنان على مولود عبدالعزيز، وقد لفت انتباهها منذ اليوم الأول أن هذا الطفل كأخيه الأكبر منه لا يشبع من حليب أمه أيضًا، فما كان منها إلا أن تقول لوضحة:

- لا سبيل إلى ذلك إلا بالذهاب إلى هميان كما فعلنا مع تركي من قبل.

وافقت وَضَحَى على اقتراح الحكمة، لكنها كانت مجعدة من الولادة، ولأن بكاء الطفل كان مرتفعاً فقد قامت هميان من فراشها واتجهت إلى الفرية التي في الجدار وطرقت عليها، فقامت الحكمة وفتحتها وإذ بهميان تستفسر عن صحة وَضَحَى ومولودها وعن سبب بكائه، فأبلغتها أن السبب المحتمل هو بكائه من الجوع.

لم تنتظر هميان طويلاً حتى التفت من خلف الجدار ودخلت إليهن وبدأت بإرضاع سعود، الذي هدأ وسكن مباشرة، وهنا تكفلت هميان بإرضاعه مع أبنائها، واعتباره ابناً لها.

بعد فتح عبدالعزيز للرياض، وبعد أن أرسل المبشرين ليلغوا أباه والشيخ مبارك بالنصر الذي حققه وباسترداده للرياض، بدأت مرحلة التطهير في بوادي نجد، فكانت عملية تطهير من المتمردين وتوحيد للقبائل تحت حكم عبدالعزيز في الوقت نفسه. ولما استقر الأمر لعبدالعزیز وبدأ بإصلاح القصور التي تضررت، أرسل إلى والده يدعوه للقدوم إلى الرياض.

مرت الأيام وتقلد عبدالعزيز ملكاً على الدولة السعودية، وأصبحت المملكة منذ ذلك الوقت دولة لها ثقلها ووزنها عالمياً، وذات تأثير في أي قرار سياسي قرب من شبه الجزيرة العربية أم بعد عنها.

أما ابنه سعود، فقد كان أقرب أبنائه إلى قلبه، فشبَّ في مجلس أبيه، وتعلم من مجالسة الوجهاء والزعماء أصول السياسة، وبدأ بكسب ثقة والده من خلال ممارسة بعض المهام العسكرية والسياسية والإدارية بصفة مستقلة، كما فوض له المهام التي تكسبه الحنكة السياسية الخارجية بعد أن تتلمذ في العلوم السياسية والدبلوماسية على يدي

عبد الله الدملوجي والشيخ حافظ وهبة وهما من أعمدة بلاط والده خلال تلك الفترة.

وعندما كان بسن الثالثة عشر أرسله والده إلى قطر لمقابلة حاكمها الجديد الشيخ عبد الله بن قاسم آل ثاني وذلك لتصفية الخواطر وإزالة الترسبات بالعلاقة بينهما، حيث إن الأخير لم يكن ينظر بعين الرضا إلى استيلاء عبد العزيز على الأحساء، وكانت هذه المهمة هي أول عمل دبلوماسي يقوم به.

وبعد توحيد معظم أراضي شبه الجزيرة تحت حكم الملك عبدالعزيز وإطلاق اسم المملكة العربية السعودية عليها تبع ذلك الإعداد لإعلان ابنه سعود ولياً للعهد بعد أن رأى أنه استوفى كافة الأوصاف الشرعية الواجب توفرها، وبعد أن أثبتت الأحداث دوره القيادي فيها، فقام بترشيحه للمنصب، وأقر هذا الترشيح بالإجماع من أفراد العائلة والمشايخ وعلماء الدين.

وتحققت نبوءة الحكمة التي حضرت ولادته عندما تفاءلت به لأن يكون ملكاً، فأصبح ملكاً على المملكة العربية السعودية، وحافظ على السياسة الحكيمة التي سار عليها والده الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود.

هميان التي أصبحت عجوزاً، كانت معتزلة في بيتها في الكويت، وكلما انزعجت من صراخ الصبية الذين يلعبون حول البيت بشكل شبه مستمر، قالت لهم:

- سأترك الكويت لكم، وسأذهب لأقيم عند ابني سعود.
